

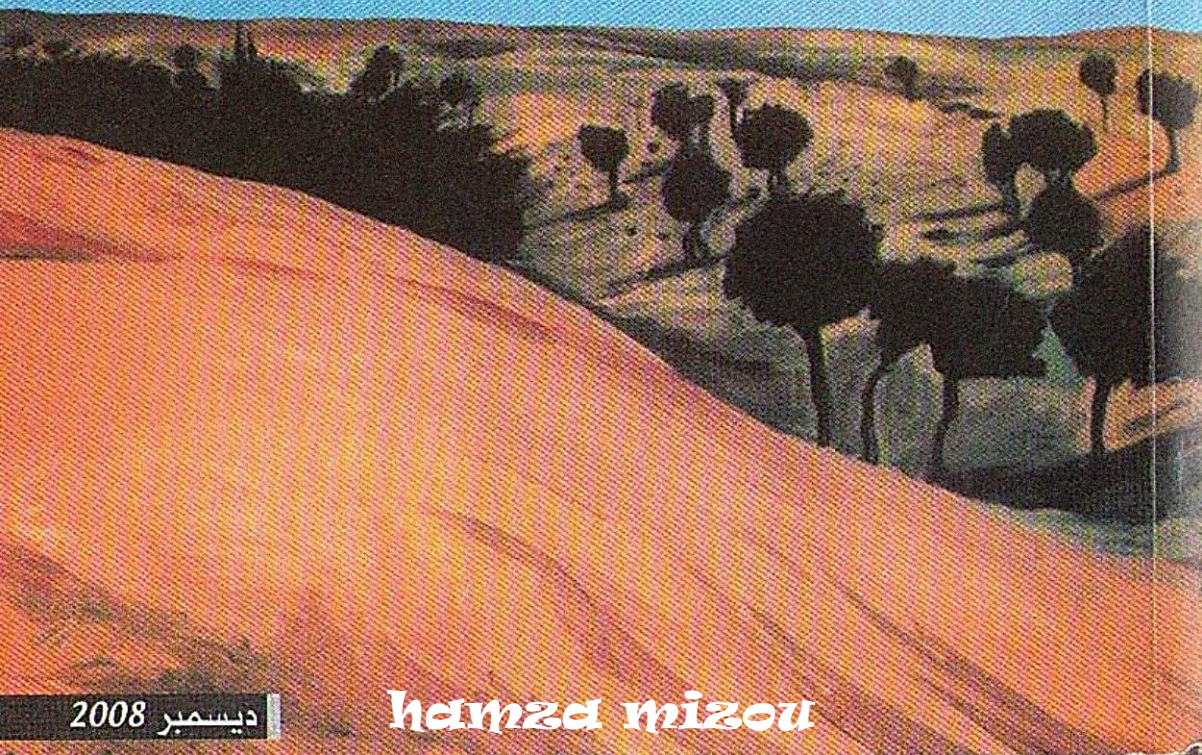
العقرب وقصص أخرى

(الجزء الأول)

تأليف: بول بولز

ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام

مراجعة: د. سليمان خالد الرباح





الفنانة: سامية السيد عمر

بدون عنوان

زيت على قماش - ٦٠×٥٠ سم

من كتالوج مختارات تشكيلية

من مقتنيات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

العقرب

وقصص أخرى

(الجزء الأول)

تأليف: بول بولز

ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام

مراجعة: د. سليمان خالد الرياح

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيا

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 دك
للمؤسسات	20 دك

دول الخليج

للأفراد	12 دك
للمؤسسات	24 دك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولارا أمريكيا

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل

على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٠٧٨

ردمك: ٩٩٩٠٦-٠٠-٢٥٧٩

إبداعات

لجنة إدارة شؤون

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

بدر بن عبد الوهاب الرقاصي

هيئة التحرير:

١- زبيدة علي أشكناني

٢- سعد عبد الوهاب عبد الرحمن

٣- سليمان خالد الرياح

٤- سليمان علي الشطي

٥- ليلى عثمان فضل

٦- محمد النصف الشنوفي

مكتبة التحرير

إدارة التحرير

التنفيذ والإخراج والتنفيذ:

وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني

للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

E-Mail

ebdaat_alamia@yahoo.com

• العقرب وقمصان الخراف
(الجزء الأول)

العنوان الأصلي:

Stories
by: Paul Bowles
Penguin Books 2000

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2008م

إبداعات عالمية - العدد 375

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

مقدمة المترجم

بين يدي قارئ هذه المجموعة أجمل ما أبدعته مخيلة الكاتب الأمريكي بول بولز من قصص قصيرة. وقصة «العقرب» التي تحمل المجموعة عنوانها، المنشورة في العام ١٩٤٥، هي القصة الأولى التي جذبت انتباه النقاد إلى بولز بوصفه قاصا متميزا. تضم المجموعة أروع ما كتب بولز من قصص، وأيضا أشهر القصص المكتوبة باللغة الإنجليزية في القرن العشرين، مثل «فريسة رقيقة»، صفحات من النقطة الباردة، حادث قديم» وغيرها.

بدأ بولز التأليف الأدبي، شعرا وقصة ورواية، في منتصف القرن العشرين تقريبا، وظل إنتاجه في التدفق بشكل متواصل على مدى أربعين سنة تقريبا، كتب فيها أربع روايات، أشهرها «السماء الواقية»، وأكثر من بضع وخمسين قصة، نشرت جميعها في مجلات أدبية متعددة، قبل أن تصدر في مجموعات مختلفة في الفترة ما بين ١٩٥٠ و١٩٨٦. وقد حملت المجموعات العناوين التالية على الترتيب: «مائة جمل في الفناء»، و«صفحات من النقطة الباردة»، و«قداس منتصف الليل»، و«قصص مختارة».

تتميز كتابة بولز بالوصف المكثف البسيط والمباشر سواء للأحداث أو الشخصيات، وهو وصف حيادي تماما، من دون

أن يورط مشاعره - كقاص - أدنى توريط في ما يرويه، ومن دون أدنى تعاطف من جانبه مع الشخصيات أو مصائرها أو إصدار أي أحكام. ويمتاز وصفه التقريري هذا بالترابط المحكم والانسياب الشديد، وهو، إن شئنا الدقة، وصف درامي تتقدم فيه الأحداث بشكل هادئ منخفض النبرة، حتى عندما يصف أكثر المشاهد عنفا وحدة. ودائما ما يعتمد بولز في قصصه الابتعاد عن الجمل الطويلة والألفاظ أو المفردات الصعبة المركبة، وكذلك تغييب السارد بصيغة المتكلم غيابا شبه كلي، ونلاحظ هذا في أغلب قصص هذه المجموعة، ربما باستثناء آخر قصة في المجموعة التي جاءت في شكل رسائل متبادلة، وتحمل عنوان «كلمات غير محببة».

كما تتسم كتابة بولز بصفة عامة، وهذه المجموعة بصفة خاصة، بالاغتراب والحس الوجودي العميق، بالإضافة إلى العنف الفني الجميل غير المباشر. والعالم الذي تدور في فلكه شخصياته شديد الخصوصية، سواء كان في المغرب أو الصحراء الكبرى أو أفريقيا أو أمريكا الجنوبية، عالم يتداخل فيه العنف والقسوة، والبراءة، التي تقترب من السذاجة في أحيان كثيرة. إن ما تؤكده شخصياته دائما هو الوحدة والانعزال، والاندفاع الأخرق نحو المجهول، بوعي أو من دون وعي، وكذلك الضياع سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي؛ فهي شخصيات هروبية مستسلمة، ليست مقاتلة

أو محاربة على الإطلاق. ونرى هذا جليا في عدة قصص منها على سبيل المثال: «توقف قصير في كورازون» و«القس دوو في تاكيت» و«تابياما». وقصته النموذجية في هذا الصدد هي المعنونة بـ «حادث قديم»؛ حيث يسمح أستاذ في اللهجات الجديدة لنفسه بأن يؤخذ أو يستدرج إلى ظلام الصحراء. هذه الإشارة المتميزة إلى القبول والإذعان («الانطلاق البشع» كما يدعوها بولز في قصة أخرى)، تعرضه بسهولة شديدة إلى عنف وحشي مهلك؛ فقد قطع لسانه، ثم اتخذ عبدا، وأكره على الغناء والرقص لأسريه بعدما ألبسوه كساء شديد الغرابة من علب الصفيح. وكانت هذه القصة خير تجسيد لكيفية رؤية بولز للإنسان: كطريدة أو فريسة رقيقة وهشة عرضة للهجوم والانتهاك الوحشي.

دائما ما نجد عند بولز شخصيات تنتمي إلى ثقافات أو بيئات غير متوافقة. وهذا هو موضوعه الفكري الأساسي، وموضوع كثير من قصص هذه المجموعة، وخير مثال على ذلك قصة «وقت للصدقة». وعن ذلك قال بولز في حوار معه: «إنني فقط أريد إظهار كيف أن الإنسان الغربي مهيا على نحو سيئ للتداعي أو الانهيار عندما يقابل ثقافات هو لا يعرف... أو فقط يعتقد أنه يعرف عنها الكثير، وأنه كلما حاول اختراقها، ازدادت وعورة وصعوبة، فالرجل البدائي يحتفظ بأشياء أضاعها الرجل الغربي، وبإمكان البدائي أن

يشتغل في، ويتفاعل مع، البيئة المحيطة به. الأمريكيون أقل استعدادا ومقدرة من الأوروبيين في مثل هذه الظروف؛ لأنهم يعتقدون أن كل شخص يجب أن يتصرف وفق الطريقة الأمريكية؛ لذلك كان من الصعب عليهم إقامة تواصل حقيقي مع الآخرين».

ومن هنا كان تركيزه المتعمد على الأماكن أو الخلفيات البيئية التي تدور فيها أحداث قصصه، ربما أكثر من تركيزه على الشخصيات نفسها؛ فالبيئة والاحتكاك بها وبثقافتها بمنزلة الشرارة المحفزة، وهي المتسببة في نشوء الصراع أو الصدام الحتمي، الذي دائما ما ينتهي إلى انهزام الإنسان الغربي «المتحضر» أمام الإنسان «البدائي». وإنسان الغرب عند بولز تائه ضائع، عليه أن يبحث ويرتحل، وغالبا ما ينتهي بحثه وارتحاله إلى لا شيء. وسواء كان في الغابة أو وسط الصحراء أو بين الجموع نجده دائما ضحية للبيئة البدائية أو الصحراء أو الجموع وثقافتها، وبولز من جانبه لا يوجه إدانة لأي منها، بقدر ما يوجه إدانته إلى القادم أو الوافد أو الغريب على هذه البيئات أو الثقافات وناسها، بل يعد ردود أفعالها ردودا سوية تماما، متناسقة ومتناسبة مع طبيعتها وبيئتها.

أود أن أشير في النهاية إلى أنني لم أتطرق إلى كل قصة من قصص هذه المجموعة على حدة وبصورة مفصلة،

كما يحدث في كثير من المقدمات المخصصة للمجموعات القصصية والروايات، وذلك لرغبتني الشديدة في أن يطالعها كل قارئ وفقا لخلفيته الخاصة، ويخرج منها بما يعن له. كما تجنبت، أيضا، سرد سيرة بولز الذاتية لعدة أسباب، من بينها، كثرة ما كتب ونشر عنه وعن حياته، سواء في مقدمة مجموعة «البستان» للمترجم القدير إبراهيم الخطيب، أو مقدمة رواية «السماء الواقية»، أو الكتاب المهم للقاص والمبدع القدير محمد شكري بعنوان «بول بولز وعزلة طنجة»، إلى جانب كثير من المقالات والحوارات المنشورة له، إضافة إلى أن هناك بالفعل عدة قصص في هذه المجموعة سلطت الضوء على سيرته، وإن كان بشكل فني، مثل، «توقف قصير في كورازون»، و«حقول صقيعية»، والأهم من هذا كله هو ما قاله «بولز» نفسه:

«الكتابة أهم من حياتي. لا أهمية لحياة الكاتب. إن عمق تفكيري موجود في كتاباتي وموسيقاي».

محمد هاشم عبد السلام

مقدمة

بقلم: جيمس لاسدان^(١)

من هو بول بولز؟ لا توحى الحقائق المعروفة عن حياته بالكثير جدا عن شخصية شهيرة كانت نقطة انطلاق ثقافية ذائعة الصيت، نقطة تقاطع حيث التقى بصورة غير محتملة عدد كبير من الاتجاهات الفنية الرئيسة للقرن في بؤرة واحدة.

طفل وحيد نضج أدبيا على نحو مبكر، كتب سلسلة من قصص الجريمة عندما كان في الخامسة، وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره قبلت أول قصيدة منشورة له في المجلة السريالية الدولية التي كان يشرف عليها يوجين إيولاس، والتي كان اسمها «التحول». وفي التاسعة عشرة، قرر أن يكون مؤلفا موسيقيا بالإضافة إلى كونه كاتبًا، فدرس على يد آرون كوبلاند، الذي احتضنه بسرعة كشخص يتمتع برعايته وتشجيعه الخاص. وبعد سنتين، في العام ١٩٣١، رحل بولز إلى باريس، وتحت تأثير جاذبيته التي لا تقاوم، لقي اهتماما وعناية من جانب جيرترود ستاين، والتقى إزرا باوند، وجان كوكتو، وأندريه جيد، ثم انتقل إلى برلين حيث كان يقضي فترات بعد الظهر في مقهى «دي ويستينز» مع

(١) جيمس لاسدان: أديب وأستاذ جامعي، نشر مجموعتي قصص وديواني شعر. ودّرس في جامعات كولومبيا، وبرنستون، ونيويورك.

كريستوفر إيشيروود وستيفن سبندر. وبعد زيارته للمغرب بناء على اقتراح من ستاين، عاد إلى مزاولة مهنة الموسيقى في الولايات المتحدة، بتزكية من آرون كوبلاند وفيرجيل طومسون، وصار يتلقى أموالا مقابل أعمال يكلف بها مثل كتابته لباليه لصالح لينكولن كيرشتين، وأوبرا لليونارد برنشتين، وموسيقى مصاحبة لمسرحيات كل من أورسون ويلز، وويليام سارويان، وتينيسي ويليامز. وفي العام ١٩٣٨ تزوج بالروائية جين أور (التي عرفت بعد ذلك بجين بولز). وسافر الاثنان إلى أمريكا الوسطى، ثم انتقلا للعيش في منزل دبليو. إتش. أودين في بروكلين، مع بنيامين بريتين وبيتر بيرس. قرر بولز بعد الحرب العالمية الثانية أن ينقل طاقاته الإبداعية من الموسيقى إلى الأدب، وعاد إلى طنجة. بعكس ما يمكن توقعه له من النضوب هناك، يبدو أن بعده الجغرافي قد شحذ قدرته على التقدم تدريجيا وباطراد. لحق به بعد ذلك في المغرب كل من ترومان كابوت وجور فيدال، ووليام برون، وألن جينسبرج، وبرناردو بيرتولوتشي، كلهم قاموا بتلبية رغباتهم في زيارته بالمغرب تقديرا له، وهلم جرا.

إن التناقض الظاهري الذي ما ينفك يتردد في هذه الترتيلة أو صلاة الابتهاال المتكرر هو أن الاتجاه المميز للكاتب والمرتبط به من بين عدة سلوكيات كان هو الانعزال، وفي

الوقت نفسه نجد أن الحال أو الوضع المفضل لدى معظم شخصياته هو تلك الوحدة. «لا يمكنك أن تقضي شهر العسل بمفردك»، يقول بطل الكاتب في قصة «زيارة قصيرة إلى كورازون»، «تستطيع أنت»، وترد هكذا الزوجة الشبيهة بجين بولز بحجة معاكسة وحاسمة. ربما يكون بولز واحداً من أكبر اللامنتمين أو المغترين في زمننا، لكن عزلته كانت اختيارية، وكانت معرفته واطلاعه على الثقافة التي تركها وراء ظهره هي بوضوح لشخص منغمس في مجتمعه ومغرق في انغماسه هذا. في وقت مبكر اتضح أنه لم يكن قد أبهر الناس كثيراً بأي شيء كتبه (لم يكن قد نشر أي إنتاج أدبي عندما قابلته جيرترود ستاين، وقد كرهت شعره)، بل بما يتعلق بصفات فطرية معينة متأصلة فيه - طريقة معينة خاصة به للعيش في العالم. «إنه رجل حر للغاية كما تنامي إلى علمي»، هكذا كتب فيرجيل طومسون. كان انجذاب ستاين، كما يتذكر بولز نفسه بمرح في سيرته الذاتية المعنونة «بدون توقف»، ربما بشكل حدسي أو استبصاري، وإن كان أقل رومانسية: «قمت في اللقاء الأول لي معها باستعراض الظواهر الاجتماعية المعاصرة التي كانت نادرة حينها ثم صارت الأكثر شيوعاً في الوقت الراهن، أطفال الضواحي الأمريكية بكآبتهم القاسية الحاقدة... كنت من أكثر الشباب الذين رأتهم هي في أي وقت فساداً وبروداً، وانغماساً في

الملذات، وقد هالها رضاي الذاتي واقتناعي الهائل برفض جميع القيم. لكنها قالت وهي تبتسم في استمتاع... «لو كنت شخصا نموذجيا وقدوة، لكانت هذه نهاية حضارتنا»، ثم قالت لي: «أنت همجي مصطنع».

من دون محاولة متعمدة من جانبه، بدا أنه قد أبرز واحدة من أكثر الخصائص تميزا في نظر فناني القرن العشرين، ألا وهي الجمع بين الطهارة أو النقاء وتجسيد الجنوح أو كسر القانون. عندما تحول بولز إلى ممارسة الأدب، عبرت هذه الخاصية عن نفسها كموهبة أكيدة بلا حدود عنده وذلك في حدود الحركة المنحدرة أو المناهضة بل الهادمة للنظام الاجتماعي. في هذا الصدد، بدا بولز في منطقة ما متوسطة تقريبا بين اثنين آخرين من أعظم كتاب الرحلات في قرننا: دي.إتش. لورانس ووليام بروز (الذي ضم يوميات خط السير في رحلاته، عدا الأجزاء المقابلة من الكرة الأرضية (مثل أستراليا)، ومزجها في عمله بطريقة أو أخرى). ومثل لورانس عندما كتب «سانت ماور» أو «المرأة التي مضت بعيدا»، كتب بولز في الغالب عن الأوروبيين أو الأمريكيين المثقلين بالروحانية، الذين يزجون بأنفسهم باندفاع فيه طيش أو تهور في ثقافات بدائية أجنبية غريبة عنهم. لكن في الوقت الذي كان ينظر فيه لورانس إلى ذلك بعين الاعتبار كخطوة في اتجاه إعادة الإحياء وبعث الأمل، صاغ بولز ذلك في قالب

درامي على نطاق واسع وبشكل كبير داخل إطار كارثة حتمية، وكان اهتمامه منصبا أكثر على تفاصيل هذا الدمار أكثر منه على أي تحرر أو خلاص قد يعقبه. وقصته النموذجية في هذا الصدد هي المعنونة بـ «حادث قديم»، حيث يسمح أستاذ في اللهجات الجديدة لنفسه بأن يؤخذ أو يستدرج إلى ظلام الصحراء. هذه الإشارة المتميزة إلى القبول والإذعان («الانطلاق البشع» كما يدعوها بولز في قصة أخرى)، تعرضه بسهولة شديدة إلى عنف وحشي مهلك. فقد قطع لسانه، ثم اتخذ عبدا، وأكره على الغناء والرقص لأسريه في كساء غريب من الصفيح. الصورة الأخيرة للأستاذ المختل وهو يجري صارخا، وتصلصل ملابسه، نحو موته، ربما أبدعت لتصوير وتجسد فكرة جيرترود ستاين عن «الهمجي المصطنع». وقد احتلت القصة مكانها بالتأكيد كأحد أكثر التوجسات المزعجة عن انهيار حياتنا.

من ناحية أخرى، على الرغم من اشتراك بولز مع بروز في الاستمتاع بخبرة استيعاب عمليات التفكك والانهيار الاجتماعي والنفسي (العنف العشوائي، والمخدرات، والحمى والقلق، كسر المحرمات الجنسية بأنواعها كافة وجميعها وجدت طريقها إلى قصصه)، فإنه نادرا ما كان يسمح لروح التشوه أن تخترق وتنفذ إلى روح راوي القصة نفسها. ليست هناك قطع (تجزئيات أو أعمال كولاج)، بالإضافة إلى أن

استخداماته لـ «الكيف» كعامل مساعد للإلهام، قليلة جدا على أي حال وعلى سبيل التجريب في الشكل. وفي أغلب الأحيان، تظل حكاياته مترابطة بشكل رائع، بل وتقليدية. هذا التوتر بين الطبيعة الحادة المتطرفة للأفعال التي عليها الشخصيات، والمنطق الهادئ الذي تظهره عيانا من دون موارد هو ما يعطي هذه الحكايات بشكل جزئي فتنتها أو سحرها الفريد المميز، فلا يقرأها المرء إلا ويستسلم لها. إن قصصه تبدأ بالبساطة أو السهولة الموضوعية نفسها الموجودة بالحكايات الشعبية - «عاشت امرأة عجوز في الكهف الذي كان أولادها قد قاموا بتجويفه في جرف طفلي قرب ينبوع ماء...»، وقبل أن تتعرف على مضمون القصة تنساق إلى عالم حيث يبدو ليس فقط معقولا ومقبولا وجديرا بالتصديق بل يتعذر اجتنابه إلى حد ما، حيث ينبغي أن يتحول إنسان إلى ثعبان، وأن يغوي صبي والده، وأن يشوه جسد أحد رجال القبائل الصحراوية ويغتصب أحد رفاقه في السفر.

إلى حد ما أو بشكل جزئي هذه مسألة متعلقة بالتقنية. وعلى الرغم من أن بولز كثيرا ما زعم اعتماده على التقنيات السريالية في الكتابة، حيث الذهن الخالي من الأفكار المسبقة وأسلوب التأليف التلقائي العضوي، («أكتب بطريقة لا واعية، من دون أن أعرف ما الذي أقوم بكتابته»)، فإن

قصصه معقدة جدا من ناحية الصنعة، وأبنيته ذات تأثيرات معيارية ومهارات ذات حذق وبراعة وتنظيم. بالنسبة إلى شخص ما وزع نفسه بشكل مستمر بين شيئين «مهنتين، قارتين، تكيفين جنسيين صريحين»، فربما ليس من قبيل المفاجأة أن تجد هذه الانعكاسات، والتغيرات المتكررة الساحرة ليست فقط في موضوعات العديد من قصصه، بل أيضا في الأدوات المهنية المستخدمة في بناء هذه القصص. «سنيور أونج وسنيور ها» جرى بناؤها على سلسلة من التبادلات تعمل على إبراز العملات المعدنية الفضية، والرمل الفضي، مسحوق الكوكايين الأبيض الخاص بالسنيور أونج، والشعر الأبيض للفتاة المصابة بالبهاق، التي تدعى لوز. تكرر الفعل أو العمل العدواني من جانب الفتاة، بما في ذلك المياه المتفجرة في قوة وعنف، في قصة «الصدى»، والتي كان هديرها الصاخب يتردد صداه على الفور في الوادي الضيق شديد الانحدار أسفل بيت أمها. (هذا التدخل والاحتفاء الشكلي المحكم، ربما يعزى في معظمه نوعا ما إلى ماضي بولز كمؤلف موسيقي، حيث في واقع الحال يكون الشكل في الموسيقى هو كل شيء تقريبا). وفي قصة «أنت لست أنا»، استخدام لصيغة المتكلم على لسان فتاة مجنونة، وهي تمثل سبقا على بعض قصص «إيان ماك يوان»، والتبدل النهائي للهويات جرى الترتيب له بطريقة جميلة منذ اللحظة

التي دخلت فيها إيثيل المخادعة من جديد إلى بيت أختها «وراحت تتذكر» الأشياء من الماضي إلى الحاضر (بطريقة استرجاعية)، «تبينت على الفور أنها قد غيرت وجددت كل شيء، لكن بطريقة عكسية».

من ناحية الأسلوب، يميل بولز إلى نوع من الشفافية المحايدة، بتفضيله عدم التعبير الأكثر دلالة على شخصيته، وعدم الإكثار من استخدام المصطلحات المركبة، بخلاف معاصريه من الكتاب. مما أفضى إلى سمو متميز في تعبيراته من خلال إعطاء القصص نوعاً من الجسدانية والطبيعية وحقيقة الوجود الموضوعي الشيئي، بفضل توظيف الكلمات التي تعمل فقط كنوافذ مفتوحة على الأحداث التي تحتويها القصة. وفي بعض الأحيان تقرأ هذه القصص إلى حد كبير مثل الترجمات، ترجمات مثالية لنصوص مفعمة بالحيوية، فيندر أن نجد الزخارف البيانية الاستعارية أو الوصف بالمحسنات البديعية السافرة، ومع ذلك عندما يرد أي منهما، فإنه يرد غير أجوف بل يرد مثقلاً بمعان كثيفة لكن في حذر وتعقل لأنه يتناول الحقائق الحسية. من الملامح الجديرة بالاعتبار الحس المشترك المتزامن لـ «تتابع دفعات صغيرة خافتة من الصوت»، الذي يستحضر سماع طفلين في الخلاء لصوت تدريب البنادق الآلية في الريف، أو التلطيف المرح من خطر وتهديد التمساح الصغير النشط

على ذراع الفتاة في قصة «القس دوو في تاكيت». وعلى المنوال نفسه نجد، استخدام التفاصيل لاستدعاء أو تجسيد مكان وزمان مشهد، هذا الاستخدام يميل إلى الاقتصاد وعدم الإسهاب، ولكن مع اختيار بارع ومتقن لها: الأشجار المترامية على امتداد الممر المائي الضيق التي تعوق المركب الذي يقل العروسين ذوي الحظ السيئ في «زيارة قصيرة إلى كورازون»، الفناء الخلفي للفندق الذي نزل فيه الأستاذ في قصة «حادث قديم»، «مليء بالنفايات والبراميل، حيث كانت هناك غزالتان تتجولان».

نحن بالطبع لا نقرأ بولز أو أي كاتب آخر لأجل براعتهم التقنية. فالتكنيك لا يمكن أن يكون غاية، ويمكن له تجميع أو صنع قصة «مشغولة» بكل ما تحمله كلمة آلي من معنى (وبعض من قصص بولز الأقل من حيث المستوى، وهي ليست موجودة، في هذه المجموعة، ينطبق عليها ذلك بحذاقيره بل وأكثر قليلاً)، لكن ما يجعل المرء مهتماً بمواصلة القراءة هو التفرد في نفاذ البصيرة لدى الكاتب، وحده، وشجاعته في الفهم والتخيل، باختصار، حساسية قصصه. والجو المقلق لأعمال بولز لا نظير له، هذا الاضطراب الشامل، والمنظور غير البشري المتكرر للمسائل الإنسانية، والإحساس بالكارثة المحدقة (حتى عندما لا تحدث) هي كلها ما نستخلصه من عمله. كان بولز قد تحدث عن كتاباته كشيء «علاجي».

والتكرار المفرط للموضوعات يوحي فعلا بالحاجة إلى مواجهة تجارب معينة مزعجة بشكل جوهري. إذا كان الأمر كذلك، إذن احتكاما إلى سيرته الذاتية، يكون من المحتمل النظر إلى علاقته بأبيه على أنها الأصل. يتذكر بولز أن العلاقة المتبادلة بينه وبين والده (والتي يعود إليها في قصته القصيرة التي تعتبر شبه سيرة ذاتية «حقول صقيعية»)، كانت عدائية، أقل تقدير. «كان والدك يريد أن يقتلك»، يتذكر بولز أن جدته لأمه أخبرته بهذا عندما كان ولدا صغيرا. «أقسمت أن أكرّس حياتي لتدميره»، يشير إلى مناسبة لاحقة عندما ضربه والده وصادر منه مفكراته، (يبدو أن بولز الأب قد راوده الشك في ممارسة ابنه للعادة السرية في الحمام). وفي التاسعة عشرة من عمره رمى بول والده بسكين اللحم.

في رد فعله على هذه العداوة المتعذر فهمها بشكل واضح، بدأ بول مبكرا في تبني وتعهّد حالة من الانفصال البارد، وصفها بأوصاف متنوعة كشكل من أشكال اللامبالاة - «قلت مذكرا نفسي أنه نظرا لعدم وجود شيء حقيقي، فإن الأمر لا يهم كثيرا» - وكنوع من إرجاء الرغبة، والذي به، مثلما كان بالكثير جدا من إبداعاته اللاحقة، كان قادرا على القيام بأكثر الأفعال اللامنطقية اعتقادا منه أنه لم يكن لديه خيار آخر. رحيله الأول إلى أوروبا، الذي كان وليد اللحظة كان - هكذا يقول لنا - نتيجة لواحدة من هذه

الخبرات الإجبارية: «رجعت إلى حجرتي ذات مرة في الغسق، وعندما فتحت الباب، عرفت على الفور، على الرغم من أنه لم تكن لدي أي فكرة عما كان سيحدث، أنني كنت على وشك القيام بشيء ما انفجاري ونهائي لا رجعة فيه... أخرجت عملة معدنية وأجريت قرعة... جاء الوجه... وكان الظهر يعني أنني من الممكن أن أتناول زجاجة ألونال في تلك الليلة ولا أترك أي ملاحظة مكتوبة. لكن الوجه كان يعني أنني سأرحل إلى أوروبا بأسرع ما يمكن».

ليس هذا في حد ذاته بعيدا جدا عن السلوك المسرحي المتكلف لأي مراهق يعذب ويشعر بالألم والكرب، ويصفية خاصة لشخص ذي ميول أدبية (كان بولز في ذلك الوقت مأخوذا إلى حد كبير بمفهوم أندريه جيد عن «الفعل المجاني»). وما يجعل الأمر ممتعا هو أنه بدلا من حب الظهور استنادا إلى نظرية إدراك الأنا لذاتها فقط، والذي كان من المحتمل أن يركن إليه كاتب آخر بتربيته الغربية والمؤلمة، فإن بولز استخدم الفكرة كوسيلة للدخول إلى العالم الرحب. يشعر المرء بضغط الفكرة وتأثيرها فيه، ليس فقط من خلال تفسيره لحب الاستطلاع الشديد الذي لديه نحو الثقافات الأخرى التي بخلاف ثقافته هو - «كان عندي إيمان راسخ أنه من الأفضل لي أن أعيش وسط أناس لا أفهم دوافعهم» - لكن أيضا لما اكتشفه

بنفسه هناك. كتب في إحدى قصصه «في الصحراء، حيث الهواء، والضوء، وحتى السماء توحى بكوكب ما لم تطأه قدم حتى تلك اللحظة، لا يكون من الغريب أن تجد أنماطا من السلوك البشري غير مألوفا هي الأخرى... إذا أتاحت الظروف الفرصة للهجوم والسلب، وهو عمل متوقع، وواقع بالطبع، فإن العادة تقتضيه». عالم لا رحمة فيه، لكن ليس على أي حال بعيدا جدا بدرجة كبيرة عن العالم الذي تركه وراء ظهره: «عقلية نيو إنجلاند»^(٢) التي وفقا لها يجب أن تلازم التعويضات الانتهاكات».

بالضبط مثلما احتال كافكا على الأمر فأوجد الوسيلة لتحويل تصلب والده إلى قلاع أو حصون، وبوابات ذات قضبان وعقبات بشرية لا تقهر ظهرت في الروايات والقصص، كذلك لخص بولز ظروفه الشخصية في مشاهد تعبيرية جسدية وأخلاقية جاءت غريبة بصورة مخيفة ومألوفة بصورة غريبة أيضا. وهذه هي علامة دالة على فنان كبير ورائد.

(٢) منطقة في شمال شرق الولايات المتحدة الأمريكية. [المترجم]

العقرب

عاشت امرأة عجوز في الكهف الذي كان أولادها قد قاموا بتجويفه في جرف طفلي قرب ينبوع ماء، قبل ذهابهم بعيدا إلى المدينة، حيث يعيش العديد من الناس. لم تكن سعيدة ولا حزينة لكونها هناك؛ لأنها كانت تعرف أن نهاية حياتها كانت قريبة وأن أولادها لن يحبوا أو يتمكنوا من العودة بأي شكل مهما كانت الأسباب، ففي المدينة هناك دائما العديد من الأشياء لعملها، وعليهم أن يقوموا بها، غير مبالين بتذكرهم للوقت الذي كانوا قد عاشوا فيه في التلال يخدمون المرأة العجوز ولا ييخلون عليها بالرعاية.

عند مدخل الكهف، وفي أوقات معينة من السنة، كانت هناك ستارة من الماء المتساقط أمامه حيث يجب على المرأة العجوز عبورها للدخول. كان الماء ينحدر إلى أسفل المنحدر من النباتات الموجودة أعلاه ويقطر نحو الطمي الموجود في الأسفل، لذا فقد عودت المرأة العجوز نفسها على الجلوس منحنية من دون حركة في الكهف لفترات طويلة من الوقت لكي تبقى جافة وبعيدة من البلل قدر المستطاع. في الخارج عبر قطرات المياه المتساقطة كانت ترى الأرض الجرداء تلمع بفعل السماء الرمادية، وأحيانا كانت أوراق النبات الكبيرة الجافة تطير من أمامها بفعل دفع الرياح لها؛ تلك التي تأتي من الأجزاء المرتفعة من الأرض.

اعتاد القليل من الناس على المرور من وقت إلى آخر على امتداد الطريق، ليس بعيدا منها. ولأن الينبوع كان على مقربة، فإن القادمين منهم الذين يعرفون أن عين الماء موجودة، لكن لا

يعرفون بالضبط أين كانت توجد . أحيانا ما كانوا يقتربون من الكهف قبل اكتشافهم أن العين ليست هناك . المرأة العجوز لم تكن تتحدث إليهم أبدا . كانت تراقبهم فقط بينما يقتربون وفجأة يرونها . ثم تواصل مراقبتها لهم وهم عائدون وهم يذهبون في اتجاهات شتى أخرى بحثا عن الماء لكي يشربوا .

كان هناك الكثير بخصوص هذه الحياة التي تحبها المرأة العجوز . لم تعد مجبرة - بعد الآن - على الجدل مع أولادها لجعلهم يجيئون بالخشب لفرن الحطب . كانت حرة في التنقل هنا وهناك في الليل للبحث عن الطعام . كان في إمكانها أكل أي شيء تجده من دون أي مشاركة من أحد . لم تكن مدينة للغير بأي جميل تشكره عليه لشيء نالته في حياتها .

اعتاد رجل عجوز على المجيء من القرية إلى أسفل الوادي ، والجلوس على صخرة قريبة بقدر كاف من الكهف بحيث يمكنها أن تدرك وجوده . عرفت أنه كان مدركا لوجودها هناك في الكهف ، وعلى الرغم من أنها لم تكن تعلم هذا ، فإنها كرهته لعدم إعطائه أي إشارة يُعبّر فيها عن أنها موجودة هناك . بدا لها أنه لديه فرصة غير عادلة ضدها ويستخدمها بطريقة غير مهذبة . فكّرت في العديد من الأفكار لمضايقته إذا حاول الاقتراب أكثر من هذا ، لكنه كان دائما يمر على نفس المسافة ، متوقفا لبعض الوقت للجلوس فوق الصخرة ، غالبا عندما يريد أن يحرق مباشرة نحو الكهف . ثم بعد ذلك يستأنف سيره ببطء ، كان يبدو دائما للمرأة العجوز كما لو أنه يذهب ببطء أكثر عما كان قبل استراحته .

كانت هناك عقارب في الكهف طوال تلك السنين، لكن الأهم كان وجود العقارب خلال الأيام السابقة مباشرة لابتداء النباتات في جعل الماء يتساقط. كان لدى المرأة العجوز كومة ضخمة من الخرق والأسمال البالية، وكانت تمسح بها الحوائط وتنظف السقف من هذه العقارب لتسحقهم في سرعة بكعب قدمها العاري القوي. أحياناً بين الفينة والفينة كان أحد الطيور أو الحيوانات البرية يضل طريقه إلى داخل المدخل، لكنها لم تكن أبداً سريعة بما يكفي لتقتله، وسرعان ما كانت تقلع عن المحاولة.

في يوم قاتم مملوء بالسحب نظرت فوجدت أحد أبنائها يقف عند المدخل. لم تذكر أياً من أولادها هو، لكنها اعتقدت أنه كان ذلك الذي ركب الجواد إلى أسفل قاع النهر الجاف، وربما مات مقتولاً على الأرجح. نظرت إلى يده لترى ما إن كانت هي يده. لكنها لم تكن كذلك.

بدأ التحدث قائلاً: «هل هذا أنت؟»

- «نعم».

- «هل أنت بصحة جيدة؟»

- «نعم».

- «هل كل شيء على ما يرام؟»

- «كل شيء على ما يرام».

- «أنت موجودة هنا؟»

- «بإمكانك أن ترى هذا»

- «نعم».

ساد بعض الصمت. نظرت المرأة في ما هنا وهناك داخل الكهف وكانت غاضبة لرؤية ذلك الرجل عند المدخل وقد حال بالفعل من دون نفاذ الضوء إلى الداخل. راحت تشغل نفسها بمحاولة تمييز الأشياء المتنوعة التي لديها: عصاها، جرة الماء، علبتها المصنوعة من الصفيح، طول حبلاها. كانت متجهمة من فرط المجهود. تحدث الرجل مرة ثانية:

- «هل تسمحين لي بالدخول؟»

- لم تعط إجابة.

تراجع مبتعدا عن المدخل، وراح ينفذ قطرات الماء عن ثيابه. كان في موقف يسمح له بقول شيء مهين، هكذا فكرت المرأة العجوز، التي، على الرغم من ذلك لم تعرف من يكون ولا ماذا كان يريد أن يقول، وتذكرت ما سوف يفعله.

قررت أن تتكلم.

- «ماذا؟» قالت.

أحنى رأسه إلى الأمام عبر ستارة المياه وكرر سؤاله.

- «هل بإمكانني الدخول؟»

- «ما الذي تريده؟»

- «لا شيء».

أضافت: لا يوجد متسع هنا.

تراجع مرة ثانية، ومسح رأسه. اعتقدت المرأة أنه ربما يكون ذاهبا، ولم تكن متأكدة إن كانت تريده أن يفعل. أيا كان، لم يكن هناك شيء آخر في إمكانه أن يفعله، فكرت. سمعته وهو يجلس في الأسفل خارج الكهف، ثم اشتمت رائحة تبغ.

لم يكن هناك صوت سوى صوت المياه المتساقطة فوق الطمي.
بعد فترة زمنية قصيرة سمعته ينهض. وقف مرة ثانية
خارج المدخل.

- «سوف أدخل».

لم تُجب.

انحنى واندفع إلى الداخل. كان الكهف واطئاً جداً بالنسبة
إليه كي يقف. نظر متفحصاً في ما حوله وبصق على الأرض
وقال:

- «تعالى».

- «أين؟»

- «معي».

- «لم؟»

- «لأنه عليك أن تأتي».

انتظرت لفترة قصيرة، ثم قالت بارتياح: إلى أين ستذهب؟
أشار بلا مبالاة تجاه الوادي، وقال: أسفل ذلك الطريق.

- «إلى البلدة؟»

- «أو أبعد؟»

- «لن أذهب»

- «عليك المجيء»

- «لا»

- التقط عصاها وناولها إياها

- «غدا»

- «الآن»

- قالت ينبغي عليّ أن أنام، وعادت لترقد فوق كومة أسماها.

- حسنا. سأنتظر في الخارج. أجب، وذهب إلى الخارج.
دخلت المرأة العجوز في النوم على الفور. حلمت أن المدينة كانت واسعة جدا. ممتدة إلى ما لا نهاية وشوارعها مملوءة بالناس الذين يرتدون ملابس جديدة. كان للكنيسة برج عال ذو أجراس عديدة كانت تدق طوال الوقت. كانت تمشي في الشوارع طوال يوم كامل، محاطة بالناس. لم تكن متأكدة إن كانوا كلهم أبناءها أم لا. سألت بعضا منهم: هل أنتم أبنائي؟ لم يكن في استطاعتهم الإجابة، لكنها اعتقدت أنهم إن كانوا قادرين على الإجابة، فسوف يقولون: نعم. وعندما حل الليل وجدت بيتا بابه مشرع. في الداخل كان هناك ضوء وبعض نساء جالسات في أحد الأركان. نهضن عندما دخلت. وقلن: لديك حجرة هنا. لم تكن راغبة في رؤيتها، لكنهن ظللن يدفعنها حتى دخلتها، وأغلقت الباب. وجدت نفسها فتاة صغيرة وكانت تبكي. أجراس الكنيسة في الخارج عالية جدا، وتخيلت أنها تملأ السماء. كانت هناك مساحة مفتوحة في أعلى الحائط فوقها. كان في إمكانها رؤية النجوم من خلالها، وقد ألقت النجوم بالضوء داخل غرفتها. عبر البوص والغاب الذي يتشكل منه السقف جاء عقرب يزحف، نزل على الحائط ببطء تجاهها. توقفت عن البكاء وراقبته. ذيله منحني إلى أعلى فوق ظهره ويتحرك قليلا من جانب إلى آخر بينما كان يزحف. بحثت سريعا عن شيء ما تزيحه به، ونظرا إلى أنه لم يكن هناك شيء بالغرفة فقد استخدمت يدها. لكن

حركتها كانت بطيئة، وأمسك العقرب إصبعها بكلابتيه، وظل ممسكا به بإحكام على الرغم من أنها حركت ذراعها وهي تهزه بقوة في جميع الاتجاهات. ثم أدركت أنه لن يلدغها. غمرها إحساس طاع بالسعادة. رفعت إصبعها إلى شفيتها لتُقَبِّلُ العقرب. توقفت الأجراس عن الرنين. بخطوات بطيئة كان ذلك العقرب قد تحرك إلى داخل فمها. أحست بقشرته أو محارته الصلبة وأرجله الكلابية الصغيرة خلال شفيتها وعبر لسانها. كان يزحف ببطء إلى أسفل حلقها واستقر هناك. استيقظت وصرخت بدهشة.

رد ابنها: «ما الأمر؟»

- «أنا مستعدة»

- «بهذه السرعة؟»

وقف بالخارج حتى جاءت عبر ستارة المياه، متكئة على عصاها.

ثم بدأ يخطو خطوات قليلة إلى الأمام منها نحو الطريق.

- «سوف تمطر»، قال ابنها.

- «هل الرحلة طويلة».

- «ثلاثة أيام»، قال، وهو ينظر إلى قدميها الخائرتين.

أومأت برأسها، ثم لاحظت الرجل العجوز الجالس على الصخرة. كان قد انطبع على وجهه تعبير عميق من الدهشة، كما لو أن هناك معجزة قد حدثت لتوها. كان فمه فاغرا بينما يحدق في المرأة العجوز. وعندما وصلا قبالة الصخرة أنعم النظر عن قصد أكثر مما سبق إلى وجهها. تظاهرت بأنها لم تلحظه. بينما كانا يمشيان في طريقهما ببطء أسفل التل على

امتداد الطريق الحجري، سمعا الصوت الواهن للرجل العجوز
من خلفهما يحمله الهواء.

- «مع السلامة».

- «من هذا؟» سأل ابنها.

- «أنا لا أعرف».

نظر ابنها إلى الوراء نحوها باكفهرار وقال:

- «أنتِ كاذبة».

عند الماء

يسيل الثلج المنصهر من الشرفات ويسرع الناس عبر الشارع الصغير الذي تشتم فيه دائما رائحة السمك المقلي. من وقت إلى آخر كان أحد طيور اللقلق ينقض إلى أسفل، جارا خلفه أو تحته رجله اللتين تشبهان العصا. وكانت الجراففونات الصغيرة تصرصر ليلا نهارا خلف جدران المحل الذي كان يعمل الشاب عمّار فيه ويعيش. كانت هناك أماكن قليلة في المدينة حيث يزاح دائما الثلج عنها، ولم تكن هذه إحداها. لذا فإنه يتجمع على مدار أشهر الشتاء، ويتراكم أمام أبواب المحلات.

لكن الشتاء الآن أوشك على الانتهاء؛ والشمس صارت أكثر دفئا. كان الربيع على وشك القدوم، حيث تضطرب القلوب وتذوب الثلوج. ولكون عمّار وحيدا في العالم، فقد قرر أن هذا هو الوقت المناسب لزيارة إحدى المدن المجاورة لمدينته حيث أخبره والده ذات مرة أن بعض أبناء العم يعيشون هناك.

في الصباح الباكر ذهب إلى محطة الباص. الظلام لا يزال موجودا، وجاءت الحافلة الخاوية بينما كان يحتسي القهوة الساخنة. كان الطريق يلتوي خلال الجبال طوال المسافة. عندما وصل إلى المدينة الأخرى كان الظلام قد حل بالفعل. هنا كان مستوى الثلج أكثر عمقا في الشوارع، والجو أكثر برودة، ولأنه لم يأت إلى هنا من قبل، فلم يتوقع عمّار هذا، وضايقه كونه مُجبرا على أن يلف نفسه مرات كثيرة بالبرنس الذي كان يرتديه بإحكام منذ أن غادر محطة الأوتوبيس. كانت مدينة عدوانية، بإمكانه

أن يكتشف ذلك على الفور. يمشي الرجال ورؤوسهم محنية إلى الأمام، وإذا ما مر بهم عابر سبيل أمامهم فإنهم غالبا لا يرفعون بصرهم تجاهه.

عدا الشارع الرئيسي، الذي توجد فيه مصابيح على هيئة أقواس كل عدة أمتار، هناك بدا أنه لم تكن ثمة إضاءة أخرى، والأزقة التي تبدأ من كلا الجانبين تقبع في ظلام دامس؛ وأشباح الناس المتشحة بالبياض تختفي فيها على الفور.

«مدينة سيئة» قال عمّار بصوت خافت. شعر بالفخر لكونه قادما من مدينة أكبر وأحسن، لكن سعادته اختلطت بقلقه بشأن قضاء الليل في مثل هذا المكان المعادي. تخلص عن فكرة محاولة العثور على أبناء عمه قبل قدوم الصباح، وبدأ البحث عن فندق^(٢) أو حَمّام حيث يكون بمقدوره النوم حتى الفجر. فقط مسافة قصيرة إلى الأمام وانتهى الشارع المنتظم الإضاءة، وبعد ذلك، ظهر الشارع منحدرًا بحدة وضائعا في الظلام. كان الثلج هنا عميقا باتساق، وغير منزوح مقارنة بما كان عليه قرب محطة الباص. قلّص شفّتيه ونفخ أمامه مكونا سحبا قليلة من البخار. بينما كان يعبر المنطقة المظلمة سمع بضع نغمات موسيقية واهنة كانت تعزف على العود. جاءت الموسيقى من مدخل طرقة على يساره. توقف عمّار وأنصت. اقترب شخص ما من المدخل من الجهة المقابلة وسأل من يبدو أنه الرجل عازف العود، ما إذا كان «الوقت متأخرا جدا».

«لا»، أجاب الموسيقي، وعزف عدة ألحان أخرى.

(٢) وردت بالعربية - المترجم.

اقترب عمّار أكثر من الباب.
«ألا يزال هناك متسع من الوقت؟»
«نعم».

مشى إلى الداخل عبر الباب. لم يكن هناك ضوء، لكن كان في إمكانه الشعور بالهواء الدافئ يهب على وجهه من الممر الذي على يمينه. واصل سيره، جاعلاً يده تجري على امتداد الحائط المبتل بجانبه. بعد فترة قصيرة أصبح داخل حجرة واسعة قليلة الإضاءة أرضيتها من البلاط. هنا وهناك، كان في مختلف الزوايا، أشباح تستلقي نائمة، ملتفة ببطاطين رمادية. في ركن بعيد مجموعة من الرجال، نصف عراة، يجلسون حول محرقة مشتعلة، يحتسون الشاي ويتحدثون بنبرات منخفضة. اقترب عمّار ببطء، لئلا يطفأ أحداً من النائمين.
كان الهواء مملوءاً بالحرارة المقبضة والرطوبة.
«أين الحمّام؟» قال عمّار.

«هناك إلى أسفل»، أجاب رجل من المجموعة، من دون حتى أن يرفع نظره إلى أعلى. أشار إلى الركن المظلم الذي على يساره، وبالطبع، الآن وقد ركّز عمّار تفكيره على المكان، بدا له أن تيار الهواء الدافئ قادم من هذا الجزء من الحجرة، ذهب في اتجاه الركن المظلم، خلع ملابسه، وترك هذه الملابس في كومة منظمة على قطعة من حصير القش، ومشى تجاه الدفء. كان يفكر في سوء الحظ الذي صادفه بوصوله إلى المدينة عند الغسق، وشعر بالقلق إن كانت ملابسه ستسرق أثناء غيابه. كان قد وضع نقوده في المحفظة الجلدية التي تدلت من حبل معلق

في رقبته. شعر بعدم الارتياح بسبب كيس المال الموضوع أسفل
ذقنه، استدار عائداً مرة ثانية ليلقي نظرة على ملابسه. لم يبد
أن أحداً قد لاحظته بينما كان يخلع ملابسه. استمر. لن يكون
الارتياح الشديد مفيداً له وسوف يتورط بسرعة شديدة في
شجار لن ينتهي في مصلحته في أغلب الأحوال.

اندفع صبي صغير خرج من الظلام تجاهه وهو ينادي:
«اتبعني، سوف أقودك إلى الحمّام»، كان قدراً جداً ورث الثياب،
ويبدو أكثر شبهاً إلى حد ما بقزم منه بطفل. تقدم الصبي وراح
يثرثر بينما كانا يهبطان السلالم الزلقة الدافئة في الظلام. «هل
ستتادي على إبراهيم عندما تريد احتساء الشاي؟ أنت غريب.
لديك مال كثير...».

قاطعه عمّار بسرعة. «ستتال عملاتك المعدنية عندما تأتي
لتوقظني في الصباح. ولن تحصل عليها الليلة».

«لكن، سيدي^(٤)! غير مسموح لي بالوجود في الغرفة الكبيرة.
أنا أبقى عند المدخل وأصحب الرجال إلى أسفل حيث الحمّام.
ثم أعود مرة أخرى إلى المدخل. لا يمكنني أن أوقظك».
«سأنام قرب المدخل. إنه أدفاً هناك، على أي حال».

«سيغضب لازراج وستحدث أمور فظيعة. ولن يمكنني العودة
للبيت ثانية، أو إن حدث ورجعت فربما أصبح طائراً وعندئذ لن
يتعرف عليّ أبي وأمي. هذا هو ما يفعله لازراج عندما يصبح
غاضباً».

«لازراج؟»

(٤) وردت بالعربية - المترجم.

«إن هذا المكان ملك له. ستراه. إنه لا يخرج أبداً. إذا حدث وخرج فستحرقه الشمس في ثانية واحدة، مثل قشة في النار. سيسقط في الشارع محترقا وقد تحول إلى قطعة من السواد في الدقيقة التي سيخطو فيها خارج الباب. لقد ولدَ هنا في الأسفل في الكهف».

لم يعر عمَّار انتباهها كاملاً لثروة الولد التافهة. كانا ينزلان الصخر المنحدر المبتل، مُبدِّلين ببطء في الظلام القدم إثر الأخرى، ويتحسسان الحائط الخشن برفق بينما يتقدمان. كان هناك صوت ارتطام مياه وأصوات بشرية أمامهما.

«هذا حمَّام^(٥) غريب» قال عمَّار. «هل هناك مسبح مملوء بالماء؟»

«مسبح! ألم تسمع من قبل أبداً عن كهف لازراج. إنه موجود إلى الأبد، وهو قائم على المياه الدافئة العميقة».

بينما تكلم الولد كانا قد وصلا إلى شرفة صخرية تعلو بأمتار قليلة بداية بحيرة أو بركة ماء واسعة مضاءة، تحت مكان وقوفهما بوساطة مصباحين كهربيين كبيرين عاريين بلا غلاف زجاجي ومتوهجتي الإضاءة، وتمتد إضاءتهما إلى مسافة بعيدة خلال العتمة في ما وراء الظلام الكلي.

كانت هناك أجزاء من السطح منحنية إلى أسفل، «تبدو مثل عروق أو كتل جليد رمادية متدلّية»، هكذا فكَّر عمَّار، بينما كان يتفحصه بتعجب. لكن المكان هنا كان دافئاً جداً حيث حجاب رقيق من البخار منتشر فوق صفحة المياه، يتصاعد باستمرار في

(٥) وردت بالعربية - المترجم.

حلقات حلزونية نحو السقف الصخري. ركض رجل يقطر الماء منه عابرا إياهما وغطس في الماء. آخرون كثيرون كانوا يسبحون هنا وهناك في المنطقة الساطعة قرب الأضواء، ولم يشردوا إلى الوراء نحو المنطقة المظلمة. وكان الغطس والصياح يحدثان أصداء عنيقة تحت السقف المنخفض.

عمّار ليس سباحا جيدا. التفت ليسأل الولد: «هل هذه المياه عميقة؟» لكنه كان قد اختفى بالفعل عائدا إلى أعلى المنحدر. رجع إلى الوراء عدة خطوات واتكأ على الحائط الصخري. كان هناك كرسي واطئ إلى يمينه، وبدا له في الضوء المملوء بالضباب أن هناك شكلا بشريا كان قريبا من الكرسي. راح عمّار يراقب المستحمين لدقائق قليلة. هؤلاء يقفون عند حافة الماء يغسل بعضهم بعضا بالصابون في اجتهاد؛ وهؤلاء الذين في الماء يسبحون ذهابا وإيابا في المسافة القوسية القصيرة تحت الأضواء. فجأة تحدث صوت عميق على القرب منه. نظر إلى أسفل عندما سمعه، كان الصوت يقول: «من أنت؟».

كان مخلوقا ذا رأس ضخمة؛ وكان جسده صغيرا وليس له أرجل أو أذرع. والجزء الأسفل من الجذع كان ينتهي بزعنفتين تبدوان كقطع من اللحم البشري. من الكتفين نمت كلابات قصيرة. كان ذلك الجسد رجلا، وكان ينظر إليه من الأرض حيث يقبع.

«من أنت؟» قال الجسد ثانية، وكانت نبرته جلية واضحة العداء. تردد عمّار. «جئت لأستحم وأنام»، قال أخيرا.

«من سمح لك بهذا؟»

«الرجل الذي عند المدخل».

«اخرج من هنا. أنا لا أعرفك».

امتلاً عمّار بالغضب، ثم نظر باحتقار إلى أسفل حيث الكائن الضئيل، واتجه بعيداً منه ليشارك الرجال الذين يغسل بعضهم بعضاً عند حافة المياه. لكن المخلوق الغريب اندفع أكثر منه، تحرك بسرعة، وتمكن من دحرجة نفسه على امتداد الأرض حتى صار أمامه، ليرفع نفسه مرة أخرى ويقول:

«تعتقد أنه في مقدورك الاستحمام بينما أمرك بالخروج من هنا؟» وضحك ضحكة قصيرة، في صوت رفيع، لكنه عميق في طباقته. ثم تحرك مقترباً، ودفع برأسه قبالة رجلي عمّار. أرجع عمّار قدمه إلى الوراء ورفس الرأس، ليس في قوة شديدة، لكن بعزم كاف للإخلال بتوازن هذا الجسد.

تدحرج الشيء في صمت، باذلاً مجهودات برقبتة ليتحاشى الوصول إلى حافة الرصيف، لكن من دون جدوى.

وارتفعت نظرات الرجال كلهم. كانت علامات الدهشة قد اعتلت وجوههم أثناء تدحرج ذلك المخلوق الضئيل فوق الحافة، خصوصاً أنه كان يصرخ. كان الارتطام في الماء يبدو مثل ارتطام حجر كبير. كان هناك رجلان في المياه راحا يسبحان بسرعة ناحية المكان، حيث حدث الارتطام. انطلق الآخرون وراء عمّار، وهم يصيحون: «لقد ضرب لازلراج!»

بارتباك ورعب، استدار عمّار وجرى عائداً إلى المنحدر. زلت قدمه وهو صاعد في الظلام إلى أعلى. وخدش جزء من

الحائط فخذ العاري. كانت الأصوات من خلفه تزداد علوا وهياجا.

وصل الغرفة التي كان قد ترك ملابسه فيها. لم يتغير شيء. مازال الرجال جالسين حول المنقذ يتحدثون. انتزع بسرعة كومة ثيابه، واندس في البرنس، ثم جرى ناحية الباب المؤدي إلى الشارع، وقد تأبطت بقية ملابسه تحت ذراعه. الرجل الذي عند المدخل صاحب العود نظر إليه بوجه مروع وانطلق في أثره. جرى عمّار حافي القدمين إلى الشارع المؤدي إلى وسط المدينة. أراد أن يكون في مكان توجد فيه بعض الإضاءة القوية. الناس القليلون الذين كانوا سائرين لم يعيروهم انتباها، عندما وصل إلى محطة الباص كانت مغلقة. ذهب إلى حديقة عامة صغيرة مقابلة لها، حيث تنتصب منصة حديدية عميقة وسط الثلج.

جلس هناك فوق حجر بارد وألبس نفسه من دون هندمة قدر الإمكان، مستخدما برنسه كستار. كان يرتجف، ويفكر مليا بمرارة وسخرية في حظه التعس، وتمنى لو كان لم يغادر مدينته، عندما دنا منه شبّح صغير وسط الإضاءة الشاحبة الضعيفة.

«سيدي»، قال الشبح، «تعال معي. لازراج يبحث عنك».

«إلى أين؟» قال عمّار، بعدما عرف أنه الولد المتشرد الذي كان في الحمّام.

«إلى بيت جدي».

بدأ الصبي في العدو، مشيرا له أن يتبعه. مرا خلال الأزقة والأنفاق، نحو الجزء الأكثر ازدحاما في المدينة. لم يزعج الصبي

نفسه بالنظر خلفه، لكن عمّار كان منشغلا بهذا. في النهاية عبرا خلال باب صغير في جانب ممر ضيق. طرق الصبي بقوة. جاء من الداخل صوت أجش قائلا: «من الطارق؟»^(٦)
«أنا!»^(٧) صاح الصبي.

بتأن شديد أدار الرجل العجوز الباب فاتحا إياه ووقف ينظر إلى عمّار.

«ادخلا»، قال أخيرا؛ وأقفل الباب خلفهما وقادهما عبر ساحة مملوءة بالماعز نحو غرفة داخلية حيث يتراقص ضوء واهن. وأخذ يحرق بصرامة في وجه عمّار.
«إنه يريد البقاء هنا الليلة» هكذا قال الصبي.
«هل يعتقد أن هذا فندق؟»

«إنه لديه مال»، قال إبراهيم بحماس.

«مال!» صاح الرجل العجوز باحتقار. «هذا هو ما تتعلمه في الحمام! كيف تسرق المال! كيف تأخذ المال من محافظ الرجال! الآن تحضرهم إلى هنا! ما الذي تريدني أن أفعله؟ أقتله وأستولي على محفظته من أجلك؟ هل هو يستعصي عليك؟ ليس في إمكانك القيام بهذا بمفردك؟ هل الأمر كذلك؟» كان صوت الرجل العجوز قد وصل إلى درجة الصراخ الهستيري وإيماءاته صارت تزدد إثارة واهتياجا. جلس على الأرض فوق وسادة بصعوبة وصمّت للحظة. وفي النهاية قال مكررا «مال».
«دعه يذهب إلى فندق أو حمام. لماذا أنت غير موجود الآن في

(٦) وردت بالعربية، (أيش كون؟) - المترجم.

(٧) وردت بالعربية، (أناة) - المترجم.

الحَمَام؟» ونظر إلى حفيده بارتياح. فتشبث الصبي بكم صديقه.
«تعال»، قال الصبي، وهو يجذبه إلى الخارج نحو الساحة.
«خذه إلى حَمَام!» صاح الرجل العجوز. «دعه ينفق ماله
هناك!»

عاد الاثنان إلى الشوارع المظلمة.
«لازراج يبحث عنك»، قال الصبي: «عشرون رجلاً ينتشرون
في المدينة للإمساك بك وإعادتك إليه. إنه غاضب جداً وسوف
يُحوِّلُكَ إلى طائر».
«إلى أين نحن ذاهبان الآن؟ سأل عمَّار بحدة. كان متعباً جداً
ويشعر بالبرودة، وبالرغم من كونه غير مصدق لقصة الصبي،
فإنه تمنى مغادرة المدينة العدائية.
«يجب علينا أن نبعد من هنا قدر الإمكان، طوال الليل. في
الصباح سنكون قد ابتعدنا في الجبال، ولن يعثروا علينا. في
إمكاننا الذهاب إلى مدينتك».

لم يجب عمَّار. كان ممتناً لأن الصبي أراد البقاء معه، لكنه
لم يعتقد أنه من المناسب قول هذا. سارا في طريق منحني
نحو سفح التل إلى أن اجتازا كافة المنازل خلفهما وصارا في
الريف المفتوح. بعد قليل أفضى بهما الطريق إلى أسفل واد
ضييق بارز للعيان، وامتصل بالطريق السريع عند إحدى نهايتي
جسر صغير. هناك كان الثلج متراكماً على طريق المركبات
العام، لكنه كان متصلباً خشناً بفعل سير المركبات، ووجد أنه
من السهل جداً السير فيه. عندما كانا يهبطان الطريق، وبعد
أن استغرق هذا ربما الساعة وسط البرد الآخذ في التزايد،

وصلت شاحنة كبيرة تهدر في سيرها، وتوقفت أمامهما تقريبا، وعرض السائق العربي عليهما أن يركبا في الصندوق. تسلقا الشاحنة وصنعا لنفسيهما مأوى من بعض الأجولة. كان الولد سعيدا جدا لكونه محمولا ومندفعا خلال الهواء في ظلام الليل، والجبال والنجوم تدور فوق رأسه، وراحت الشاحنة تصدر ضوضاء قوية أثناء ارتحالتها عبر الطريق السريع الخالي.

«لازراج عثر علينا وحوّلنا إلى طيور»، بكى الصبي عندما لم يكن في مقدوره الاحتفاظ بسروره لفترة طويلة. «لا أحد على الإطلاق سوف يعرفنا ثانية». علا شخير عمّار وسرعان ما سقط في النوم. لكن الصبي راقب السماء والأشجار والمنحدرات الصخرية لفترة طويلة قبل أن يغلق عينيه لينام. في وقت ما قبل حلول الصباح توقفت الشاحنة للتزود بالماء. استيقظ الصبي في هدأة السكون. سمع صياح ديك في الخلاء، وعندئذ سمع السائق يصب الماء. صاح الديك ثانية، بصوت حزين بدأ منخفضا وارتفع ثم انخفض في الظلمة الممتدة. لم يطلع النهار بعد. دفن نفسه عميقا في كومة الأجولة والخرق البالية، وشعر بدفء عمّار عندما أخذ في النوم.

عندما طلع ضوء النهار كانا في شطر آخر من الأرض. لم يكن هناك ثلج. وبدلا من ذلك كانت هناك أشجار لوز مزهرة على جوانب التلال التي كانوا يعبرونها سريعا. صار الطريق مستقيما بينما كان ينحدر أسفل فأسفل، إلى أن صار فجأة

خارج التلال في مكان منخفض حيث يوجد تحته على نحو باهر خلاء بَرّاق شاسع. لاحظ عمّار والصبي هذا، وقال كل منهما للآخر إنه لابد وأن يكون هذا هو البحر، يتلأأ في ضوء الصباح.

دفعت رياح الربيع الزبد عن الأمواج على امتداد الشاطئ؛ وجعلت ملابس عمّار والصبي ترفرف نحو اليابسة بينما كانا يمشيان على حافة الماء. وجدا أخيرا مكانا آمنا بين الصخور، ونزعا ملابسهما، وتركوا الملابس على الرمال. كان الصبي خائفا من النزول إلى الماء، فاكتفى بالإثارة الناتجة عن الأمواج التي تتحطم عند قدميه، لكن عمّار حاول أن يسحبه إلى مسافة أبعد.

«كلا كلا»

«تعال»، استحثه عمّار.

نظر عمّار إلى أسفل. كان يقترب منه من الجنب سرطان بحر ضخّم حيث كان يزحف ببطء خارجا من مكان ما بين الصخور. وثب عمّار إلى الخلف في رعب، ففقد توازنه، وسقط سقطة شديدة، وارتطمت رأسه بجلمود صخري كبير. كان الصبي واقفا تماما مازال يراقب الحيوان وهو يتخذ طريقه الحذر تجاه عمّار عبر ألسنة الأمواج المتكسرة. كان عمّار يرقد بلا حركة، نُهيرات وحبيبات من الماء والرمال تصطدم في وجهه. عندما بلغ السرطان قدميه، قفز الصبي في الهواء، وبصوت جعله اليأس وفقدان الأمل أجش، صرخ «لازراج».

هرب السرطان بسرعة فجائية إلى خلف الصخور واختفى. صار وجه الصبي متوهجا. واندفع نحو عمّار، رافعا رأسه

لئلا يصيبها تكسر الأمواج المتجدد، ولطم خدي عمّار بنوع من الانفعال.

«عمّار! لقد جعلته يذهب بعيداً!» صاح. «لقد أنقذتك!»
إذا لم يتحرك، فإن الألم لا يصبح مبرحاً. لذا فقد بقي
عمّار راقدًا، وهو يشعر بأشعة الشمس الدافئة، والمياه الناعمة
تغمّره، والريح الباردة اللطيفة، التي كانت تأتي من البحر. وكان
في وسعه أن يشعر أيضاً بارتجاف الصبي من فرط المجهود
الذي بذله ليبقي رأسه مرفوعاً فوق الأمواج، وسمعه يقول ويكرر
مرات عديدة: «أنا أنقذتك، يا عمّار».
وبعد فترة طويلة أجابه قائلاً: «نعم».

حادثٌ قديم

في الأسبوع الذي كانت الشمس فيه أكثر حمرة وقت الغروب في شهر سبتمبر قرر الأستاذ زيارة قرية عين تادورت، التي تقع في الريف الدافئ. هبط من المنطقة العالية المنبسطة في المساء بوساطة الحافلة، حاملاً معه حقيبتين صغيرتين من حقائب الرحلات ممتلئتين بالخرائط، وكريمات الحماية من الشمس والأدوية. منذ عشر سنوات مضت كان قد قضى في القرية ثلاثة أيام، طويلة بالقدر الكافي لعقد صداقة وطيدة نوعاً ما مع صاحب المقهى، الذي راسله عدة مرات خلال السنة الأولى التي تلت زيارته، ولو أن رسائله انقطعت تماماً منذ ذلك الحين. «حسن رامي». قال الأستاذ مكرراً، بينما ترتج الحافلة نحو الأرض عبر طبقات من الهواء الدافئة. الآن في مواجهة السماء الملتهبة في الغرب، وفي مواجهة الجبال الحادة، تبعث السيارة الممر الترابي إلى أسفل الأودية الضيقة في الجو الذي بدأ يبعث برائحة الأشياء الأخرى إلى جانب هواء المرتفعات اللانهائي المنعش، روائح زهور البرتقال، والفلفل، والبراز الذي حمصته الشمس، وزيت الزيتون المحترق، والفاكهة الفاسدة. أغلق عينيه بسعادة وعاش للحظة في عالم من الروائح النقية. استعاد الماضي البعيد - أي جزء منه، لم يستطع أن يحدد. السائق، الذي يشاركه الأستاذ المقعد الأمامي، تحدث إليه من دون أن تحيد عيناه عن الطريق:

«هل أنت جيولوجي؟»^(٨) «سأل.
«جيولوجي؟ آه، لا! أنا عالم لغوي».
«لا توجد هنا أي لغات. لهجات فقط».
«بالضبط. أنا أقوم بمسح شامل لاختلافات اللهجة
المغربية».

كان السائق مستهزئاً بهذا. «استمر في الذهاب إلى الجنوب»،
قال. «سوف تجد بعض لغات لم تسمع عنها من قبل أبدا».
بمجرد عبورهم إلى داخل بوابة البلدة، ظهرت الأسراب المعتادة
من صغار المتشردين، برزوا فجأة للعيان من التراب وتعالص صيحاتهم
وهم يجرون إلى جانب الحافلة. طوى الأستاذ نظارته الشمسية،
ووضعها في جيبه، وبمجرد توقف الحافلة تماماً قفز خارجها،
وراح يشق طريق بين الأولاد الساخطين الذين تعلقوا بأمتعته من
غير جدوى، وسار مسرعاً إلى داخل فندق سهارين الكبير، الذي
كان من حجراته الثماني هناك اثنتان شاغرتان - واحدة تطل على
السوق والأخرى، الأصغر والأرخص، تطل على فناء صغير مليء
بالنفايات والبراميل، حيث كانت هناك غزالتان تتجولان. أخذ
الحجرة الأصغر، وصبّ إبريق الماء عن آخره في الطشت، بدأ غسل
حُبيبات الرمل عن وجهه وأذنه، كان الشفق تقريباً قد اختفى من
السماء، وحُمرة الأشياء كانت آخذة في الزوال، حسبما رأى. أنار
المصباح الكريبيدي (الذي يعمل بفحم الإضاءة) فجفل من رائحته.
بعد العشاء مشى الأستاذ ببطء عبر الشوارع إلى مقهى
حسان راماني، الذي تدلت حجراته الخلفية على نحو خطير

(٨) وردت بالفرنسية - المترجم.

إلى الخارج فوق النهر. كان المدخل منخفضا جدا، وكان عليه أن ينحني إلى أسفل قليلا لكي يدخل. كان هناك رجل يرمى النار، ومرتاد يرتشف الشاي. حاول القهوجي^(٩) أن يقنع الأستاذ بالجلوس إلى المنضدة الأخرى في الحجرة الأمامية، لكن الأستاذ مشى بحيوية مباشرة نحو الحجرة الخلفية وجلس، كان القمر يلمع عبر تعريشة البوص ولم يكن هناك صوت بالخارج بيد أن نباح كلب بعيد كان من الممكن سماعه بين الحين والآخر. قام الأستاذ بتبديل المنضدة حتى يتمكن من رؤية النهر. كان النهر جافا، لكن كانت هناك برك صغيرة متناثرة عكست ليل السماء المضيء. جاء القهوجي ومسح سطح المنضدة بعناية.

«ألا يزال هذا المقهى مملوكا لحسان راماني؟» سأله باللهجة المغربية التي قضى أربع سنوات في تعلمها.

أجاب الرجل بفرنسية ركيكة: «لقد مات».

«مات؟» وأخذ الأستاذ يكرر السؤال، من دون أن يلاحظ

سخف التكرار ولا معناه. «حقا؟ متى؟»

«أنا لا أعرف»، قال القهوجي. «واحد شاي؟»

«نعم. لكنني لا أفهم....».

كان الرجل قد خرج من الغرفة بالفعل وراح يهوي على النار، وجلس الأستاذ ساكنا، وهو يشعر بالوحدة، وكان يحدث نفسه ويجادلها بأن ما بدر منه كان مثيرا للسخرية. عاد القهوجي بعد فترة قصيرة بالشاي. حاسبه وأعطاه بقشيشا كبيرا، فأحنى له القهوجي رأسه باحترام وتوقير.

(٩) وردت بالعربية - المترجم.

«قل لي»، قال، وكان الآخر قد همَّ بالانصراف. «هل مازال بإمكان المرء الحصول على تلك العلب الصغيرة المصنوعة من ضروع الجمال؟».

بدا الرجل غاضبا. «في بعض الأحيان يجلب أفراد قبيلة الرقيبات مثل هذه الأشياء. نحن هنا لا نشترىها». ثم أردف بالعربية بوقاحة: «ولمَّ علب ضروع الجمال؟»

«لأنني أحبها»، أجاب الأستاذ على الفور. ولأنه كان يشعر وقتها بقليل من الافتخار، أضاف، «أنا أحبها كثيرا جدا وأريد اقتناء مجموعة منها، وسوف أدفع لك عشرة فرنكات لكل واحدة يمكنك إحضارها لي».

«خمسة عشر»^(١٠) قال القهوجي، فاتحا يده اليسرى ثلاث مرات على التوالي:
«أبدا، عشرة».

«غير ممكن. لكن انتظر حتى وقت لاحق وتعال معي. يمكنك أن تعطيني ما تريد. وسوف تحصل على علب ضروع الجمال إذا كان هناك أي منها».

خرج إلى الحجرة الأمامية، تاركا الأستاذ يحتسي كوب الشاي وهو يستمع إلى الكورس المتصاعد للكلاب التي راحت تنبح وتعوي بينما ارتفع القمر عاليا في السماء، وحضرت مجموعة من مرتادي المقهى إلى الحجرة الأمامية وجلست تتحدث لساعة أو نحو ذلك. عندما انصرفوا، أطفأ القهوجي النار ووقف عند المدخل مرتديا بُرنسه. وقال «تعال».

(١٠) وردت بالعربية (خمستاش) - المترجم.

في الخارج كانت الحركة في الشوارع قليلة. وكانت الأكشاك قد أغلقت وكان مصدر الضوء الوحيد هو ضوء القمر. مر عابر سبيل وهمهم بتحية موجزة للقهوجي. «الجميع يعرفونك»، قال الأستاذ، ليقطع حاجز الصمت بينهما.

«نعم».

«أتمنى أن يعرفني الجميع»، قال الأستاذ، قبل أن يدرك إلى أي حد كيف يبدو مثل هذا التعليق طفوليا. «لا أحد يعرفك». قال رفيقه بفضاظة.

كانا قد وصلا إلى الجانب الآخر من البلدة، أعلى قمة نتوء مرتفع فوق الصحراء، وعبر صدع كبير في سور المدينة رأى الأستاذ الامتداد الأبيض اللانهائي، وقد تخللته في المقدمة البقع الداكنة من الواحة. مشيا خلال الفتحة وتابعا في طريق متعرج بين الصخور، إلى أسفل باتجاه أقرب غابة من غابات النخيل الصغيرة القريبة. فكر الأستاذ: «ربما يذبحني. لكن مقهاه - سوف ينفذ أمره بالتأكيد».

«هل هو بعيد؟» سأل، على نحو عابر.

«هل تعبتي؟» واجهه القهوجي.

«إنهم ينتظرون عودتي في فندق سهارين»، قال كاذبا.

«ليس بإمكانك أن تكون هناك وهنا في نفس الوقت» قال القهوجي.

ضحك الأستاذ. تساءل إن كان حديثه قد جعله يبدو قلقا في نظر الآخر.

«هل امتلكت مقهى راماني منذ فترة طويلة؟»
«أنا أعمل هناك عند صديق»، الإجابة جعلت الأستاذ أقل
سعادة مما كان يتخيل.
«هل ستذهب للعمل غدا؟»
«من المستحيل قول هذا».
تعثر الأستاذ في حجر، فسقط، وكشطت يده. قال القهوجي:
«كن حذرا».
فجأة علقت في الهواء عبق رائحة نتنة للحم فاسد.
«أف! ما هذا؟» قال الأستاذ، وهو يشعر بالاختناق.
غطى القهوجي وجهه ببرنسه ولم يجب. بعد فترة قصيرة
تركوا وراءهما الرائحة الكريهة. كانا فوق أرض مُبسطة،
في الأمام كان الطريق محاطا من الجانبين بحائط عال من
الطين. لم يكن هناك نسيم والنخيل ساكن تماما، لكن إلى
جوار الحوائط كان هناك خرير ماء. أيضا، رائحة البراز
البشري كانت في أغلب الأحيان مصاحبة لهما في سيرهما
بين الحوائط.
انتظر الأستاذ حتى بدا له أنه من المنطقي السؤال بدرجة
معينة من الضيق: «لكن إلى أين نحن ذاهبان؟»
«نحن على وشك الوصول». قال المرشد، وتوقف لالتقاط
بعض الأحجار من المصرف.
«النتقط بعض الأحجار» قال ناصحا. «الكلاب سيئة هاهنا».
«أين؟» سأل الأستاذ، لكنه توقف والتقط ثلاثة أحجار كبيرة
ذات أطراف مدببة.

وإصلا السير بهدوء شديد . انتهت الحوائط وظهرت الصحراء اللامعة الممتدة قبالتها . في الجوار كان هناك مقام متهدم لأحد الأولياء، وكانت له قبة صغيرة جدا بقي نصفها فقط منتصبا، والحائط الأمامي مدمر بالكامل . وإلى الجوار منه حشد من النخيل العتيق غير ذي نفع، وقد توقف عن النمو . جاء كلب يجري نحوهما بجنون على ثلاثة أرجل، لم يسمع الأستاذ زمجرته الخفيضة الثابتة حتى صار قريبا جدا . أطلق القهوجي حجرا كبيرا نحوه، ضاربا هذا الحجر مباشرة وبالضبط في خطمه .

صدر عن الكلب صوت غريب هو صرير أسنانه التي ربما تهشمت وجرى الكلب في الاتجاه الآخر الجانبي مبتعدا عنهما، وسقط مرتطما بالصخور دون أن يبصرها ثم تسلقها بسرعة وبطريقة عشوائية مثل حشرة مصابة .

بعد أن انحرفا عن الطريق الرئيسي، وسارا عبر أرض مفروشة بالصخور حادة، مرا بخرائب صغيرة، ثم اجتازا مجموعة من الأشجار، إلى أن وصلا إلى مكان هبطت فيه الأرض أمامهما على نحو مفاجئ .

«يبدو كأنه محجر»، قال الأستاذ، وقد لجأ إلى الفرنسية لقول «محجر» حيث إن المقابل العربي لم يكن حاضرا في ذهنه هذه اللحظة . لم يُجب القهوجي . وبدلا من أن يجيب ظل واقفا وأدار رأسه، كما لو كان يسمع . وفي الواقع كان يستمع إلى شيء آخر، فمن مكان ما بعيد في الأسفل، لكنه بعيد جدا، أتى صوت منخفض غير واضح لناي . أومأ القهوجي برأسه ببطء عدة مرات في ثبات، ثم

قال «هنا يبدأ الطريق. يمكنك أن تراه جيدا على امتداده، فالصخر أبيض والقمر قوي. لذا بإمكانك أن تراه بصورة جيدة. سأرجع الآن لأنام، فالوقت متأخر. بإمكانك أن تعطيني ما تريد».

وهو واقف هناك على حافة الهاوية التي بدت في كل لحظة أكثر عمقا، ووجه القهوجي الداكن المؤطر في ضوء القمر ببرنسه القريب من وجهه، سأل الأستاذ نفسه ما هو شعوره بالضبط. سُخط، فضول، خوف، ربما، لكن كل ما أراحه وتمناه ألا تكون هذه خدعة وأن يفارقه القهوجي، ويعود من دونه.

تراجع قليلا عن الحافة، ثم تحسس داخل جيبه وهو يبحث عن عملة ورقية بمفردها، لأنه لم يرد إظهار محفظته، ولحسن الحظ كانت هناك ورقة نقدية من فئة خمسين فرنكا، حيث قام بإخراجها وإعطائها للرجل. كان يعرف أن القهوجي قد سره المبلغ، لذا لم يعره انتباها عندما سمعه يقول «إنها ليست كافية، وعليّ أن أمشي طريقا طويلا إلى بيتي وهناك كلاب...».

«شكرا وأتمنى لك ليلة سعيدة»، قال الأستاذ، وجلس وقدماه مثبتيان أسفل، وراح يشعل سيجارة. شعر بأنه سعيد إلى حد ما.

«أعطني سيجارة واحدة فقط»، ناشده الرجل.

«بالطبع»، قال، وبشيء من الاقتضاب ورفع إليه علبة سجائره.

جلس القهوجي القرفصاء بالقرب منه. لم يكن وجهه سارا للنظر. «ما هذا؟» فكر الأستاذ، وقد انتابه الرعب مرة ثانية، وهو يمد له يده بسيجارته المشتعلة.

كانت عينا الرجل مغلفتين تقريبا . وكانتا تعبران بوضوح عن مكر شديد لم يعهده الأستاذ من قبل . عندما كانت السيجارة الثانية تحترق، غامر أن يقول للعربي الذي لا يزال جالسا القرفصاء: «ما الذي تُفكر فيه؟»

جذب الآخر سيجارته نحو شفثيه في تؤدة، وبدأ أنه على وشك التكلم . ثم تبدل تعبيره إلى نوع من الرضا، لكنه لم يتحدث . هبت ريح باردة في الجو، فارتجف الأستاذ . كان صوت الناي يرتفع من أسفل الأعماق على فترات، مختلطا في بعض الأحيان بالحفيف القريب الناتج عن احتكاك سعف النخيل الواحدة بالأخرى . «هؤلاء الناس ليسوا بدائيين»، وجد الأستاذ نفسه يقول هذا في عقله .

«جيد»، قال القهوجي، نطقها وهو ينهض ببطء، ثم أردف، «احتفظ بمالك . خمسون فرنكا كافية . إنه شرف لي». ثم عاد إلى الفرنسية الركيكة قائلا: «ليس مطلوب منك سوى أن تنزل، إلى الأمام مباشرة» بصق، وضحك بينه وبين نفسه في خفوت (أم أن الأستاذ في حالة هستيرية؟)، وهرول بعيدا في سرعة . كان الأستاذ في حالة عصبية مضطربة . أشعل سيجارة أخرى، ووجد شفثاه تتحركان تلقائيا . كانتا تقولان: «هل هذا مجرد موقف عادي أم مأزق؟ هذا سخيف». جلس في ثبات شديد جدا لعدة دقائق، في انتظار أن يرتد إليه إحساسه بالواقع . تمدد فوق الأرض الصلبة الباردة وراح يمعن النظر في القمر: كان تقريبا أشبه بالنظر مباشرة إلى الشمس . وكان بوسعه إذا نقل اتجاه تحديقه قليلا في كل مرة على حدة، أن يصنع خيطا من

أقمار ضعيفة عبر صفحة السماء. «مذهل»، همس. ثم نهض بسرعة وتفقّد ما حوله. لم يكن هناك ما يضمن أن القهوجي قد عاد بالفعل إلى البلدة. نهض على قدميه ونظر من أعلى حافة المنحدر. بدا القاع في ضوء القمر عميقا لأميال. وليس هناك شيء يُقدّر به؛ لا شجرة، ولا بيت، ولا شخص... أنصت لصوت الناي، فلم يسمع سوى صوت الريح تمر بأذنه. انتابته رغبة فجائية عنيفة في الجري عائدا نحو الطريق واستولت عليه، فاستدار ونظر إلى الاتجاه الذي اتخذته القهوجي. وفي الوقت نفسه شعر بأمان لأن محفظته في جيب صدره. ثم بصق على حافة الجرف الصخري، وقام بالتبول عليه، وأصغى لفعله بقصد، مثل طفل. أعطاه هذا قوة دافعة لبدء هبوط الطريق نحو الهاوية. كان من الغريب أنه لم يصب بدوار، إلا أنه تحاشى بحذر إنعامه النظر إلى يمينه، فوق الحافة. كانت أرض المنحدر ثابتة راسخة وشديدة الانحدار باتجاه الأسفل، وقد جعلته رتابة الوضع في حالة مزاجية لا تختلف عن تلك التي كان عليها أثناء ركوبه الحافلة. كان يتمتم «حسن رامي» مرة ثانية، مرارا وتكرارا وعلى نحو إيقاعي. توقف، وهو يشعر بالغضب من نفسه للنغمات السيئة التي يوحى بها الاسم له. في تلك اللحظة قرر أنه كان مجهدا من الرحلة، و«المشي أيضا»، أضاف قائلا.

هو الآن في أسفل المنحدر الصخري العملاق تماما، لكن القمر، وقد أصبح فوق رأسه مباشرة، كان يبعث بالإضاءة نفسها التي كان يرسلها من قبل عندما كان في أعلى المنحدر. لم يترك وراءه إلا الريح، في الأعلى، حيث كانت تطوف بين الأشجار،

وتهب عبر الشوارع المتربة «لعين تادورت»، إلى داخل ردهة فندق سهارين الكبير، وتحت باب غرفته الصغيرة.

خطر له أنه كان يجب عليه أن يسأل نفسه لِمَ أقدم على فعل هذا الشيء اللاعقلاني، لكنه كان ذكيا بالقدر الكافي ليعرف أنه لكونه كان يقوم به بالفعل، فليس من المهم على الإطلاق البحث عن تفسيرات في تلك اللحظة.

فجأة صارت الأرض مستوية تحت قدميه، فقد وصل إلى القاع بأقرب مما كان يتوقع. ومع ذلك تقدم وهو يخطو إلى الأمام بقليل من الثقة، كما لو كان يتوقع هبوطا غادرا آخر. فقد كان من الصعب جدا التعرف على طبيعة الأرض في هذا الضعف المتماثل للنور. قبل أن يعرف ما حدث كان أحد الكلاب قد أصبح فوقه، كتلة ثقيلة من الفراء تحاول أن تدفعه إلى الورا، وبرثن حاد يخدش في صدره، واستنفار للعضلات بهدف غرس الأسنان الوحشية في رقبته. قال الأستاذ لنفسه: «أرفض أن أموت بهذه الطريقة». تراجع الكلب؛ وكان يبدو مثل كلاب «الإسكيمو». وبينما قفز الكلب ثانية، صاح الأستاذ، في صوت عال جدا، «نعم، أرفض أن أموت هكذا». هجم الكلب عليه، كانت هناك أحاسيس مختلطة وألم في مكان ما. كانت هناك أيضا أصوات قريبة جدا منه، ولم يكن يدري ما الذي يقولونه. شيء ما بارد ومعدني ارتطم بوحشية واستقر على عموده الفقري بينما الكلب ما يزال متشبثا لمدة ثانية بأسنانه في كتلة الملابس وربما اللحم أيضا. أدرك الأستاذ أنها كانت بندقية، فرفع يديه، صائحا باللهجة المغربية، «خذ الكلب بعيدا!» وما كان من البندقية إلا أن

دفعته إلى الأمام، ونظرا إلى أن الكلب منذ أن عاد إلى الأرض، لم يقفز ثانية، فقد تمكن الأستاذ من أن يتخذ خطوة إلى الأمام. واصلت البندقية دفعها له، فحافظ هو على خطواته المنتظمة. سمع الأصوات مرة ثانية، لكن الشخص الذي كان خلفه مباشرة لم يقل شيئا. بدا الناس وكأنهم تقريبا يركضون هنا وهناك، على الأقل، هكذا كانت دلالات أصواتهم. فتح الأستاذ عينيه، لأنه اكتشف أنهما لاتزالان محكمتي الإغلاق منذ هجوم الكلب، فوجد مجموعة من الرجال كانوا يرتدون الملابس السوداء الخاصة بقبيلة «الرقيبات» يتقدمون نحوه. «الرقيبى سحابة تعبر في وجه الشمس». «عندما يظهر الرقبي فإن الرجل الصالح ينصرف». كم من محال وأسواق سبق للأستاذ أن سمع فيها هذه الحكم والأمثال على سبيل المزاح بين الأصدقاء ولا يلفظ بها في وجه أحد منهم، من الرقيبات، فهؤلاء الرجال، بكل تأكيد، لا يترددون على المدن. يرسلون مبعوثا عنهم في الخفاء. ليُرتب مع العناصر المشبوهة هناك للتخلص من البضائع المنهوبة «إنها فرصة»، فكَرَّ سريعا، «لاختبار دقة هذه الأقوال». لم يشك للحظة أن المغامرة ستثبت أنها كانت نوعا من التحذير ضد مثل هذه الحماقة من جانبه - التحذير الذي سيكون تذكره مشؤوما، وهزليا إلى حد ما فيما بعد.

جاء كلبان مزمرجان يعدوان خلف الرجال القادمين واندفعوا إلى ساقى الأستاذ، الذي كان مستاء لملاحظته أن لا أحد التفت لخرق آداب السلوك هذا. وظلت البندقية تدفعه بقسوة شديدة كلما حاول أن يتجنب الهجوم المزعج لهذه الحيوانات. صاح

ثانية: «الكلاب! خذوهم بعيدا!» دفعته البندقية دفعا عنيفا وفي قسوة شديدة إلى الأمام فسقط، تقريبا على أقدام زمرة الرجال المواجهين له. كانت الكلاب تنهش وتعض في يديه وذراعيه، ثم شاهد حذاء يرفس الكلاب، وقد ألقى بها جانبا، فعوت، وعندئذ وبقوة متزايدة ضرب الحذاء الأستاذ في وركه. ثم جاءت عدة ركلات في آن واحد من مختلف الجوانب، فوجد نفسه يتدحرج على الأرض بعنف لفترة، وفي هذه الأثناء كان مدركا للأيدي التي تصل إلى جيوبه وتتزع منها كل شيء. حاول أن يقول: «لتأخذوا كل مالي، ولكن توقفوا عن ركلي!» إلا أن عضلات وجهه وكلها كدمات لم تمكنه من الكلام، فشعر بنفسه يمحط شفثيه، وهذا كل شيء. شخص ما سدّد إليه ضربة شنيعة أصابت رأسه، ففكر بينه وبين نفسه: «الآن على الأقل سأغيب عن الوعي، شكرا للسماء». لكنه مازال حتى الآن على وعي بأصوات الحناجر التي لم يستطع فهمها، وبكونه مقيدا بإحكام عند كاحليه وصدرة. ثم كان هناك السكوت المطبق الذي كان ينفث مثل جرح من وقت إلى آخر، ليسمح في سهولة وسلاسة للنغمات العميقة للناي أن تتساب في نعومة بنفس تعاقب النغمات مرة بعد الأخرى. فجأة شعر بألم مبرح في كل مكان، ألم وبرودة. «إذن فقد فقدت الوعي، برغم كل هذا»، فكّر. وعلى الرغم من هذا، بدا الحاضر بالنسبة إليه فقط مجرد استمرار مباشر لما حدث من قبل.

كان الضوء قد صار باهتا. كانت هناك بعض الإبل بالقرب من مكان رقادها؛ كان بإمكانه سماع قرقرتها وثقل تنفسها القوي. لم يكن من الممكن أن يجبر نفسه على محاولة فتح عينيه، خشية أن

يتضح له أن هذا مستحيل على أي حال. ومع ذلك، فإنه عندما سمع صوت شخص ما يقترب، فتح عينيه، ولم يجد أي صعوبة في الرؤية.

نظر إليه الرجل ببرود وجفاف في ضوء الصباح الرمادي، وبيد واحدة ضغط على فتحتي أنف الأستاذ معا، فلما فتح الأستاذ فمه ليتنفس، أمسك الرجل بلسانه في خفة وجذبه بكل قوته. كان الأستاذ يتقيأ ويلتقط أنفاسه من فمه بصعوبة، فلم ير ما كان يحدث، ولم يستطع أن يميز الألم الوحشي الناجم عن جذب لسانه من الألم الذي نتج عن ذلك السكين الحاد. ثم كان هناك اختناق بصورة لا نهائية وإفراز للبصاق باستمرار وبصورة آلية، كأنه لم يكن جزءا مما يحدث. استمرت كلمة «عملية» تمر عبر مخيلته؛ وهذا روعه نوعا ما بينما كان يغرق في الظلام مرة ثانية.

غادرت القافلة وقت الضحى تقريبا. لم يكن الأستاذ غائبا عن الوعي، لكنه كان في حالة خدر وذهول تام، حتى الآن لا يزال يتقيأ ويسيل منه اللعاب، ملقى بانحناء مطويا في جوال ومربوطا في أحد جانبي الجمل. كان الطرف الجنوبي للأرض المنبسطة الشاسعة التي كانت تحفها الكثبان من جميع الجهات يحتوي على بوابة طبيعية في الصخور. وكان قد تم تحميل الجمال سريعة الحركة، بأشياء خفيفة في هذه الرحلة. وكانت تمر عبر البوابة الطبيعية في صف واحد، وببطء بدأت تصعد المنحدر الناعم الذي أفضى إلى بداية الصحراء. في تلك الليلة، عندما توقفوا خلف بعض التلال المنخفضة، قام الرجال بإخراجه، وكان مازال

ففي وضع لا يسمح له بأي نوع من التفكير، من فوق الأسماك البالية المتربة التي بقيت من ملابسه أحاطوه بسلسلة من الأحزمة الغريبة المصنوعة من قيعان العلب الصفيح الصغيرة (الكنزات) المخططة معا. وكان الواحد بعد الآخر من هذه الأحزمة اللامعة مربوطا بسلك حول جذعه، ويديه وقدميه، بل وحتى عبر وجهه، حتى أنه صار بالكامل داخل بدلة مدرعة حيث غطته الصفائح المعدنية الدائرية. كان هناك العديد من مظاهر الفرحة عندهم عندما قاموا بعمل هذا الكساء الأنيق للأستاذ. ثم قام أحد الرجال بإخراج ناي وأدى آخر أصفر سنا رقصة مضحكة بالعصا وكان أكثر رشاقة من راقصات قبيلة «أولاد نايل». لم يعد الأستاذ واعيا، وإن شئنا الدقة، كان حاضرا في منتصف الحركات المؤداة بوساطة هؤلاء الرجال، وعندما انتهوا من إلباسه على الطريقة التي أرادوها، قاموا بحشر بعض الطعام تحت الأساور الصفيح المدلاة من فوق وجهه. على الرغم من أنه مضغ بطريقة آلية، فإن أغلب الطعام في النهاية وقع خارجه، على الأرض. أعادوه مرة ثانية إلى الجوال وتركوه هناك.

وصلوا بعد يومين إلى أحد مخيماتهم الخاصة. كان هناك نساء وأطفال في الخيام، وكان على الرجال أن يقودوا الكلاب المزمجرة بعيدا، تلك التي تركوها هناك لحراستهم. وعندما أخرجوا الأستاذ من جواله، كانت هناك صرخات خوف ورعب، واستغرق الأمر عدة ساعات حتى اقتتعت آخر امرأة في المكان أنه كان غير مؤذ، على الرغم من أنه لم يكن هناك شك منذ البداية أنه كان صيدا ثميناً. بعد أيام قليلة بدأوا في التحرك

مرة ثانية، أخذوا معهم كل شيء، وكانوا يسافرون في الليل فقط حيث تصبح الأرض أكثر أمنا ودفئا.

حتى عندما التأمت جروحه كلها ولم يعد يشعر بمزيد من الألم، لم يعد الأستاذ إلى التفكير مرة ثانية، كان يأكل ويتبرز ويرقص عندما يؤمر، يتقافز بحماقة إلى أعلى وإلى أسفل حيث يجلب السرور والبهجة إلى الأطفال، لأنه بصفة أساسية كانت تصدر عنه قعقة رائعة تحدث صخبا. وبوجه عام كان ينام أثناء حرارة اليوم، بين الجمال.

استمرت القافلة في طريقها الجنوبي الشرقي، وتجنب كل ما هو حضري مستقر، وفي غضون أسابيع قليلة وصلوا إلى هضبة جديدة، برية تماما وذات نباتات قليلة. هناك نصبوا المعسكر وبقوا، بينما انطلق قطيع حيواناتهم حرا ليرعى. كان الجميع سعداء في ذلك المكان، كان الطقس أكثر برودة ولكن بشكل معتدل وكانت هناك بئر تبعد عنهم ساعات قليلة فقط في طريق ترابية غير مطروقة تقريبا. وهنا داعبت أذهانهم فكرة أخذ الأستاذ إلى «فوجارا» وبيعه إلى «الطوارق».

مضت سنة كاملة قبل تنفيذ هذه المسألة. بمرور الوقت كان الأستاذ قد صار أكثر تدريبا بصورة جيدة. وكان بإمكانه أداء شقبة يدوية، والقيام بسلسلة من الضوضاء المزمجرة المربعة، التي كانت على الرغم من ذلك، عنصرا فكاهيا أكيدا، وعندما أزال أفراد قبيلة «الرقيبات» الصفيح عن وجهه اكتشفوا أنه بإمكانه أن يُكشَّر بطريقة تُعجب الآخرين أثناء رقصه. وقد علموه أيضا بعض الإشارات الأساسية الفاحشة التي لم تفشل

في انتزاع صرخات البهجة من النساء. وأصبحوا يحضرونه بعد ذلك فقط عقب الوجبات الوفيرة على وجه الخصوص، عندما يكون هناك عزف للموسيقى واحتفال مقام. وكان الأستاذ قد توافق بسهولة مع طقوسهم، وطوّر نوعاً بدائياً من «البرامج» ليقدمه عندما يتم استدعاؤه من أجل الرقص، والتدحرج على الأرض، وتقليد حركات حيوانات بعينها، وأخيراً الاندفاع نحو المجموعة بغضب مفتعل، لرؤية الارتباك والمرح الصاحب الناتجين عن الاندفاع.

عندما رحل معه ثلاثة رجال إلى «فوجارا»، أخذوا أربعة جمال معهم، وركب الأستاذ جملة إلى حد ما منفرج الساقين على نحو طبيعي تماماً. لم تؤخذ احتياطات لحراسته، سوى أنه بقي وسطهم، وكان دائماً يبقى رجل منهم في نهاية هذا الركب. لاحت في مرمى أبصارهم الأسوار في الفجر، فانتظروا بين الصخور طوال النهار. وعند الغسق رحل أصغرهم، ثم عاد بعد ثلاث ساعات مع صديق يحمل عصا غليظة. حاولوا أن يجعلوا الأستاذ يقدم فقرته في ذلك المكان، لكن الرجل القادم من «فوجارا» كان في عجلة من أمره للعودة إلى البلدة، لذا انطلقوا جميعاً على متن الجمال.

في البلدة ذهبوا مباشرة إلى بيت الرجل القروي، حيث تناولوا القهوة في الفناء وهم جالسون وسط الجمال. وفي ذلك المكان عاود الأستاذ القيام بعرضه مرة ثانية، وفي هذه المرة كان هناك مرح ممتد وكثير من اصطفاق اليدين معاً. تمت الاتفاقية، ودُفع مبلغ من المال، وانسحب رجال «الرقبيات»، تاركين الأستاذ في

بيت الرجل ذي العصا، الذي لم يتأخر في حبسه في حظيرة صغيرة مغلقة في أحد أطراف الفناء.

كان اليوم التالي هو الأكثر أهمية في حياة الأستاذ، حيث عادت الآلام لتعصف بكيانه. جاءت مجموعة من الرجال إلى البيت، وكان من بينهم رجل وقور مُبجل، ثيابه أفضل من الآخرين الذين أمضوا وقتهم في تملقه، وإحاطته بقبلات حماسية على يديه وعلى حواف ثيابه. حرص هذا الشخص على أن يتحدث باللغة العربية الفصحى من وقت إلى آخر، ليبهر الآخرين، الذين لم يتعلموا أي كلمة من القرآن الكريم. لذا جرى الحديث بينهم على النحو التالي تقريبا: «ربما في الطريق إلى (عين صلاح). الفرنسيون هناك أغبياء. الانتقام الإلهي وشيك. دعونا لا نتعجله. سَبِّح باسم ربك الأعلى وصب جام لعنتك على الأصنام. بهذا الطلاء الذي على وجهه. خصوصا إذا رغب البوليس في النظر إليه عن قرب». أنصت الآخرون ووافقوا، أخذوا يومئذ برؤوسهم ببطء وبجدية. والأستاذ يستمتع من مربطه بجوارهم، بدوره هو الآخر. حيث كان واعيا، بصوت الرجل العجوز في العربية، وبتلك الكلمات التي تسلكت إليه للمرة الأولى منذ أشهر عديدة. وتحدث ضوضاء، ثم: «الانتقام السماوي يقترب». وبعد ذلك: «إنه شرف لي. خمسون فرنكا كافية. احتفظ بمالك. جيد». والقهوجي الجالس القرفصاء بالقرب منه عند حافة المنحدر. ثم «اللغة على الأصنام» وتمتمة كثيرة. تحوّل الأستاذ عنهم وهو يلهث على الرمال ونسي أمرهم. لكن الألم كان قد بدأ. بدأ كنوع من الهذيان، لأنه كان قد بدأ

يسترد وعيه مرة ثانية. وعندما فتح الرجل الباب ووخزه بعصاه، صدرت عنه صرخة غضب، فضحك الجميع.

أنهضوه على قدميه، لكنه لم يرقص. وقف قبالته، وهو يحدق في الأرض، ويرفض التحرك في عناد. كان المالك غاضبا ومتضايقا جدا لضحكات الآخرين التي جعلته يشعر أنه مجبر على إقصائهم، قال إنه سينتظر الوقت الأكثر ملاءمة كي يعرض مملوكه، لأنه لم يجسر على إظهار غضبه أمام الرجل الكبير. ومع ذلك، عندما غادروا سدد للأستاذ ضربة عنيفة على كتفه بعصاه، ونعته بألفاظ فاحشة كثيرة، ثم خرج إلى الشارع، مغلقا البوابة وراءه في قوة. سار مباشرة نحو الشارع الذي توجد به نساء قبيلة «أولاد نايل»، لأنه كان متأكدا من أنه سيجد رجال قبيلة «الرقيبات» هناك وسط الفتيات، ينفقون المال. وهناك في إحدى الخيام وجد أحدهم مازال في السرير، بينما كانت امرأة من «أولاد نايل» تغسل أكواب الشاي. مضى إلى الداخل وتقريبا قطع رأس الرجل قبل أن يحاول الثاني حتى الاعتدال. ثم ألقى شفرة الحلاقة على السرير وفر هاربا. رأت امرأة من «أولاد نايل» الدم، فركضت صارخة من الخيمة في اتجاه الخيمة التالية، فظهرت منها أربع بنات أسرعن معا إلى المقهى وأخبرن القهوجي أن «الرقيب» قد قتل هذا الرجل. كانت المسألة فقط مسألة وقت ساعة زمن واحدة قبل أن تقبض عليه الشرطة العسكرية الفرنسية في بيت أحد أصدقائه، وجرتّه إلى الثكنة. في تلك الليلة لم يكن لدى الأستاذ أي شيء ليأكله، وبعد ظهر اليوم التالي، مع تأثير الوعي الحاد البطيء الذي سببه الجوع

المتزايد، مشى الأستاذ بطريقة عشوائية نحو الساحة والغرف المفضية إليها. لم يكن هناك أحد. كان هناك تقويم معلق في إحدى الغرف على الحائط، راح الأستاذ يشاهده في عصبية، مثل كلب يراقب ذبابة أمام أنفه. كان على الورق الأبيض أشياء سوداء مكتوبة أحدثت وقعا في رأسه. وقد سمع أصواتا داخل رأسه: «بقالة سابل الكبيرة. يونيو. الإثنين، الثلاثاء، الأربعاء...»^(١١).

علامات الحبر الأسود التي كونت سيمفونية ربما تكون قد رسمت منذ وقت طويل، لكن عند إنجازها كأصوات أصبحت مركزة وعظيمة. نوع الموسيقى الشعورية هذا هو الذي بدأ يشعر الأستاذ بعزفه في رأسه، وكانت شدة الأصوات تتزايد كلما نظر إلى الحائط الطيني، وكان لديه إحساس أنه كان يؤدي ما كان مكتوبا له منذ فترة طويلة. شعر داخله بما يشبه البكاء؛ شعر بما يشبه الهدير يخرج منه في أنحاء البيت الصغير، وبأنه كان يقلب ويحطم الأشياء القليلة الهشة القابلة للكسر. صارت عاطفته لا تزيد عن هذا الحد من الرغبة العارمة. لذا، جأر بصوت عميق عال قدر استطاعته، مهاجما البيت وملحقاته. ثم هاجم الباب المؤدي إلى الشارع، الذي قاوم لبرهة ثم تحطم في النهاية. طلع عبر الفتحة التي صنعتها الألواح التي مزقتها إربا، ولا يزال مستمرا في زئيره وهزه ذراعيه في الهواء ليحدث صوتا عالي الجلبة قدر الإمكان، بدأ يعدو بسرعة بطول الشارع الهادئ الممتد نحو مدخل البلدة. قليل من الناس نظروا إليه بفضول كبير. بينما كان يعبر الجراج، آخر مبنى قبل المدخل الطيني

(١١) وردت بالفرنسية - المترجم.

المقنطر العالي الذي تبدأ الصحراء من عنده وإلى بعيد، رآه جندي فرنسي. «غير معقول»^(١٢) قال لنفسه، «متدين مهووس». مرة ثانية كان وقت الغروب. جرى الأستاذ تحت البوابة المقنطرة، وقد رفع وجهه صوب السماء الحمراء، وبدأ الهرولة عبر درب «عين صلاح»، في خط مستقيم نحو الشمس التي كانت على وشك الغروب. من خلفه، من الجراج صوبَ الجندي طلقة نارية عشوائية، متمنيا له حظا سعيدا. مرّ صفيّر الرصاص بشكل خطير قرب رأس الأستاذ، الذي ارتفع صراخه الساخط النادب وراح يلوح بذراعيه، وهو يقفز إلى أعلى في الهواء كل بضعة خطوات، في نوبة من الرعب.

راقبه الجندي لفترة وهو يبتسم، فيما أخذ الشبح المتواثب في التضاؤل في ظلام المساء المقبل، وكانت قعقة الصفيح قد صارت بعد قليل جزءا من السكون العظيم هناك في الخارج فيما وراء البوابة. كان سور الجراج كلما مال عليه الجندي يجده ما يزال يبعث الحرارة، التي خلفتها الشمس فيه، لكن على الرغم من ذلك كانت البرودة القمرية تتزايد في الجو.

(١٢) وردت بالفرنسية - المترجم.

توقف قصير إلى كورازون

«لكن لماذا ترغب في أن يرافقنا قليل من الرعب مثل هذا؟ إن هذا غير منطقي. أنت تعرف ما هي عليه هذه المخلوقات». «أعرف ما هي عليه»، قال زوجها. «إنه لمن المسلي مراقبتها. أيا كان ما يحدث، لو كانت لديّ هذه الفرصة للنظر إليه والتمعن، فسأ تذكر إلى أي مدى كنت غيبا دائما عندما كنت أنزعج». مال بشدة فوق الدرابزين ونظر إلى أسفل في تركيز حيث مرسى السفينة. كانت هناك سلال معروضة للبيع، ودمى منحوتة بغير إتقان من المطاط الطبيعي الصلب، ومحافظ جلدية وأحزمة مصنوعة من جلود الزواحف، وقليل من جلود الثعابين غير المشغولة مفرودة عن آخرها. وضع بمعزل عن هذه البضائع، قرد ضئيل الحجم ذو فرو، كان يجلس في أحد الأقباص الواقية بعيدا عن حرارة الشمس. وكانت يداه مطبقتين، وجبهته مجمدة في قلق حزين.

«ألا يبدو رائعا؟»

«أعتقد أنك شخص لا يطاق، ومهين بعض الشيء»، أجابت هي.

استدار لينظر إليها «هل أنت جادة؟» وتبين أنها كانت كذلك.

أخذت تتأمل الصندوق الذي ترتديه في قدميها وجانب سطح السفينة الضيق من خلفه: «أنت تعرف أنني لا أبالى فعلا بكل هذا الهراء، أو بجنونك. فقط دعني أنتهي مما أريد قوله».

أوماً برأسه موافقا، عائداً ببصره مرة ثانية إلى الرصيف المصنوع من المعدن، والقرية ذات الأسطح المصنوعة من الصفيح الرديء من خلفه. «لقد تم الأمر من دون أن أقول إنني ليست لديّ رغبة أو أي شيء من هذا القبيل، أو أننا ليس من المفترض أن نكون هنا معا. وأنتك يجب أن تكون في هذا المكان بمفردك...».

«لا يمكنك أن تقضي شهر العسل بمفردك»، قال مقاطعا.

«ربما تستطيع أنت»، وضحكت ضحكة مقتضبة.

مد يده على امتداد الدرابزين محاولا الوصول إلى يدها، لكنها سحبت يدها بعيدا، قائلة، «أنا لم أفرغ بعد من حديثي معك. توقعت أن تكون مجنونا، وتوقعت الاستسلام لك بشكل مستمر منذ البداية. أنا مجنونة أيضا، أنا أعرف هذا. لكنني أتمنى أن تكون هناك طريقة ما ليتمكنني أن أشعر لمرة واحدة فقط بأن استسلامي كان يعني شيئا بالنسبة إليك. أتمنى أن تعرف كيف تكون رحيما ورؤوفا في ما يتعلق بهذا».

«هل تظنين أنك تسايرينني كثيرا جدا ؟ أنا لم ألحظ ذلك».

كان صوته حزينا.

«أنا لا أسايرك على الإطلاق. أنا فقط أحاول مواصلة العيش معك في رحلة طويلة مجهدة في عدد كبير من الكائنات الصغيرة الضيقة في سلسلة لا تنتهي من السفن النتة».

«ما الذي تقصدينه؟» صرخ باهتياج، «كنت تقولين دائما أنك

تحبين السفن، هل عدلت عن رأيك، أم تخليت عنه كلية؟»

استدارت ومضت نحو مقدمة المركب، «لا تتحدث إليّ»،

قالت.

«أذهب واشتر القرد الذي يروق لك».

كان يتبعها، على وجهه تعبير من الاضطراب أو الجزع الشديد.

«أنت تعرفين أنني لن أشتريه إذا كان شرائي له سيجعلك تعيسة».

«سأكون أكثر تعاسة إن لم تفعل، لذا من فضلك اذهب واشتره». توقفت واستدارت «أنا أرغب في امتلاكه، أنا حقا راغبة، أعتقد أنه لطيف».

«أنا لن أتمكن من فهمك على الإطلاق».

ابتسمت «أعرف. هل يضايك هذا كثيرا جدا؟»

بعد أن اشترى القرد وربطه في القوائم المعدني للسريير في الكابينة، قام بنزهة لاستكشاف الميناء. كانت البلدة مشيدة من الصفيح المجعد والأسلاك الشائكة، وكانت حرارة الشمس مؤلمة، حتى في وجود سحب الضباب المنخفضة التي كانت تحجب رؤية السماء. كان الوقت منتصف اليوم وقلة من الناس في الشوارع. بلغ طرف البلدة سريعا. وفي هذا المكان بينه وبين الغابة يمتد جدول ضيق بطيء الحركة، مياهه بلون القهوة السوداء. كانت هناك مجموعة صغيرة من النساء يغسلن الملابس، وأطفال صغار يغطسون. وكانت سرطانات رمادية ضخمة تخطو مسرعة بين الفتحات التي صنعتها في الطمي على امتداد الجدول. جلس فوق بعض الجذور الملتفة بشكل معقد أسفل إحدى الأشجار وأخرج المفكرة التي كان يحملها معه دائما. في اليوم السابق، في بار في «بدريناليس»، كان قد كتب: «وصفة لتبديد الانطباع

بالشناعة المنبثقة من أحد الأشياء، ركز الانتباه على الموضوع أو الموقف المعطى أو المطروح حتى تتمكن العناصر المتنوعة التي فيه، وجميعها مألوفة، من أن تعيد تجميع نفسها. البغض الشديد ليس بأكثر من نموذج غير مألوف».

أشعل سيجارة وأخذ يراقب المحاولات اليائسة للنسوة لغسل الملابس الرثة. ثم ألقى بالعقب المشتعل بالقرب من أحد السرطانات وكتب بتمهل: «تحتاج المرأة، أكثر من أي شيء آخر، إلى مراقبة شعائرية أو طقوسية كاملة لتقاليد السلوك الجنسي. هذا هو تعريفها للحب». فكر الزوج في السخرية التي ستتسبب حتما إذا نطق بمثل هذا التصريح إلى الفتاة عند عودته إلى ظهر السفينة. بعدما نظر إلى ساعته، كتب في سرعة: «المدنية، أي، التربية أو التعليم العقلاني، جرى استتباطها وتوريثها عن طريق وبين الذكور، لصالح الذكور، لذا فهي تحبط المرأة وتكبثها وتشوشها، إنها تتأثر...»

طفلان عاريان، تركا لعبهما على النهر، وجريا يصرخان فمرا به، ناثرين قطرات من المياه فوق الورق. ناداهما لكنهما واصلا مطاردهما دون أن يلتفتا إليه. وضع قلمه الرصاص ودفتره في جيبه، ثم ابتسم وراح يراقبهما وهما يعدوان سريعا أحدهما خلف الآخر فوق التراب.

عندما عاد إلى السفينة، كان الرعد ينطلق من الجبال المحيطة بالميناء، وكانت العاصفة قد بلغت أوج عنفوانها، بالضبط كما لو أن الأمر كان يقع في عرض البحر. كانت الزوجة جالسة في سريرها، تنظر عبر الكوة المفتوحة.

كان صدى الضجيج المدوي للرعْد من جانب الخليج إلى الآخر
كما لو كانت الأصْداء تنفث غضبها تجاه البحر المفتوح. رقد
منحنيا إلى أعلى فوق السرير المقابل، وراح يقرأ.
«لا تسندي رأسك على ذلك الحائط المعدني، إنه موصل جيد
جدا للصواعق»، قال ناصحا.

قفزت إلى الأسفل نحو الأرض وذهبت إلى حوض الغسيل.
«أين هذان الإناءان من «الوايت هورس» اللذان اشتريتهما
بالأمس؟»

أوماً إليهما «على الرف الموجود بجانبك. هل ستتناولين
شراباً؟»

«سأتناول الشراب، نعم».

«في هذا الحر؟ لماذا لا تنتظرين حتى يصفو الجو، وتتناولينه
على سطح السفينة؟»
«أنا أرغب في تناوله الآن، فعندما يصفو الجو لن أصبح في
حاجة إليه».

قامت بصب الشراب ثم أضافت إليه الماء من دورق كان
موضوعاً على الرف الحائطي الذي يعلو حوض الغسيل.
«أنت تدركين ما تفعلينه، بالطبع».

حملت إليه وسألته: «ما الذي أفعله؟»

هزّ كتفيه، ثم قال «لا شيء باستثناء أنك فقط تستسلمين
إلى حالة انفعالية عابرة. من الممكن أن تقرئي، أو تستلقي في
الفرش لتستريح فيغلبك النعاس». حملت كأسها في إحدى
يديها، وباليد الأخرى سحبت الباب تفتحه على الممر، وخرجت.

أصيب القرد بالفزع من جراء صوت غلق الباب بعنف، فقفز ووقف فوق حقيبة السفر. تردد لبرهة، ثم أسرع إلى أسفل سرير صاحبه، الذي أصدر عدة أصوات تشبه أصوات القبلات لإغرائه بالخروج، ثم عاد إلى كتابه. سرعان ما بدأ يتخيلها وحيدة وغير سعيدة فوق سطح المركب، فقطع عليه الفكر متعة القراءة. أجبر نفسه على أن يستلقي في هدوء وسكون لعدة دقائق، والكتاب مفتوح ووجهه مقلوب فوق صدره. كان المركب الآن يتحرك بكامل سرعته، وكانت أصوات الماكينات أكثر صخباً من العاصفة في السماء.

سرعان ما نهض وذهب إلى السطح. كانت اليابسة في الورااء محجوبة بالفعل بسبب المطر المنهمر، وكانت تضوح من الهواء رائحة مياه البحر. كانت الزوجة تقف بمفردها بقرب الدرازين، تنظر إلى أسفل حيث الأمواج، وهي تحمل الكأس فارغة في يدها. تملكه إحساس بالعطف والحنان عندما راقبها، لكنه لم يقو على السير نحوها والتعبير لها بكلمات موسمية عن الإحساس الذي كان يشعر به.

عند عودته إلى الكابينة وجد القرد في سريريه، يقلب في بلاء صفحات الكتاب الذي كان يقرأ فيه.

انقضى اليوم التالي في تجهيز هادئ للحقائب استعداداً للنزول من السفينة، فقد كان عليهما في «فياللتا» أن يستقلا سفينة أخرى أصغر لتقلهما إلى الضفة الأخرى للدلتا.

عندما دخلت بعد العشاء لتحزم أمتعتها، وقفت دقيقة تتفحص الكابينة. «لقد أفسدها وقلب كيائها، تماماً»، قال زوجها،

ثم أضاف «لكنني وجدت قلادتك خلف حقيبة سفري الكبيرة، وعلى أي حال فقد قرأنا جميع المجلات».

«أظن أن هذا يدل على سلبية الإنسان البدائي المحفزة للتدمير»، قالت، وهي تركل كرة مجمدة من الورق فوق الأرضية. «وفي المرة القادمة عندما يحاول أن يعضك، ستكون المسألة إشارة إلى عدم الأمان الأساسي للإنسان».

«أنت لا تدريين إلى أي حد تكونين مثيرة للضجر عندما تحاولين أن تكوني ساخرة. إذا أردت مني أن أتخلص منه، سأفعل. سيكون ذلك أمرا سهلا تماما».

انحنيت لتلمس الحيوان، لكنه تراجع في خوف واضطراب إلى أسفل السرير. نهضت. «أنا لا أبالي به. ما يقلقني هو أنت. إنه لن يستطيع التوقف عن أن يكون مصدرا للرعب والفرع بدرجة ما، لكنه سيظل يذكرني بأنك تستطيع أن تكون كذلك إذا أردت».

بدا على وجه زوجها التظاهر بالهدوء وعدم التأثر، وهو ما كان يتميز به عندما كان يعتزم ألا يفقد أعصابه. وكانت الزوجة تعرف أنه لن يملكه الغضب مادامت غير مستعدة لاستقبال الهجوم منه. لم يقل شيئا، وأخذ يدق بأظافره إيقاعا متكررا فوق غطاء إحدى حقائب الملابس.

«من الطبيعي أنني لا أقصد أنك مرعب حقا»، قالت مواصلة حديثها.

«لماذا لا تقصدين هذا؟»، قال، وهو يبتسم بلطف. «ما الخطأ في النقد؟ ربما أنا كذلك، بالنسبة إليك. أنا أحب القروء لأنني أراها مثل نموذج مصغر للإنسان. أنت تعتقدين أن البشر هم

شيء آخر مختلف، شيء روحاني، أو الله يعلم ما الذي تعتقدينه بشأنهم. أيا كان ما تعتقدينه، فقد لاحظت أنك الشخص الوحيد الذي يبدو متحررا دائما من الوهم ويمضي في التساؤل كيف يكون الجنس البشري شديد التوحش. أعتقد أن الجنس البشري بخير».

«أرجو ألا تتماذى في هذا»، قالت. «أنا أعرف نظرياتك. إنك لن تقنع نفسك بها أبدا».

عندما انتهيا من حزم أمتعتهما، أوى كل منهما إلى فراشه. وبينما كان يطفئ النور من مفتاح خلف وسادته، قال، «أخبريني بصراحة، هل تريدني مني أن أعطيه إلى خادم السفينة؟»
رفست ملاءتها في الظلام. كان بإمكانها أن ترى عبر الكوة، على مقربة من الأفق، النجوم والبحر الهادئ وهو ينساب أسفلها مباشرة. قالت من دون تفكير، «لماذا لا تسقطه من فوق السفينة في البحر؟»

في الصمت الذي تلا ردها أدركت أنها تحدثت بطيش، لكن النسيم العليل الذي كان يتحرك بترخ فوق جسدها جعل من الصعب عليها بشكل متزايد أن تفكر أو تتحدث، وبينما كانت تسقط في النوم بدا لها أنها سمعت زوجها يقول في بطن، «أنا واثق من رغبتك في ذلك. أنا واثق من رغبتك في ذلك».

في اليوم التالي ظلت نائمة حتى وقت متأخر، وعندما استيقظت لتناول الإفطار كان زوجها قد انتهى من إفطاره بالفعل وكان مستلقيا، يذخن».

«كيف حالك؟» سأل بابتهاج. «إن الخادم مبهج بالقرء جدا».

شعرت بدفقة من المتعة. «آه»، قالت، واعتدلت جالسة، «هل أعطيته له؟ لم يكن عليك أن تفعل هذا». ألقت بنظرة خاطفة على قائمة الطعام؛ فقد كانت هي نفسها المتكررة في جميع الأيام. «لكنني أظن فعلا أن هذا أفضل، فالقرد لا يتناسب وشهر العسل».

«أعتقد أنك على صواب»، قال موافقا.

كانت «فيلالتا» خانقة ومملوءة بالغبار. كانا قد اعتادا في السفينة الأخرى على وجود عدد قليل جدا من الركاب من حولهما، وكانت مفاجأة غير سارة حيث اكتشفا أن السفينة الجديدة كانت مكتظة بالمسافرين. كانت سفينتهما الجديدة عبارة عن معدية ذات سطحين مطلية باللون الأبيض، وكانت مزودة بعجلة كبيرة جدا ذات مجاديف في مؤخرتها. على السطح السفلي، الذي كان يستقر على مسافة لا تقل عن قدمين فوق صفحة النهر، وقف الركاب ووضعت الحمولة استعدادا للرحلة، وكان الركاب والحمولة، مجتمعين ومحشورين معا كيفما اتفق. كان السطح العلوي عبارة عن صالون وديزينة أو أكثر من الغرف الضيقة. وفي الصالون، كان ركاب الدرجة الأولى قد قاموا بحل صررهم القماشية وفتحوا أكياسهم الورقية الخاصة بالطعام. كان الضوء البرتقالي للشمس الغاربة يغمر الحجرة.

تفحصا العديد من الغرف.

«تبدو خاوية كلها»، قالت.

«بإمكانني أن أفهم لماذا. ومع ذلك، فسوف تكون العزلة منجاة

لنا».

«هذه الغرفة مزدوجة. وهي مزودة بستار سلكي في النافذة. هذه هي أفضل غرفة»، قالت.

«سأبحث عن الخادم أو شخص ما. ادخلي وتولي الأمر». أراح الحقائق بعيدا عن الممر حيث كان الحمال قد تركها، وغادر بحثا عن أحد الموظفين. بدا الناس منتشرين في جميع أرجاء السفينة كلها، وكان عددهم قد تضاعف عن العدد الذي كان موجودا قبل دقائق قليلة. وأصبح الصالون مملوءا عن آخره، وأرضيته احتلها فريق من الركاب مع أطفالهم الصغار وامرأة عجوز، تمددوا بالفعل فوق البطاطين وورق الجرائد.

«إنه يشبه مركز قيادة جيش الخلاص^(١٣) في الليلة التي تلت نكبة كبرى»، قال لنفسه بينما كان يقفل عائدا إلى الغرفة. «لم أتمكن من العثور على أي شخص. على أي حال، من الأفضل لنا البقاء هنا، فالغرف الأخرى الصغيرة بدأت تمتلئ عن آخرها». «لست متأكدة تماما إن كان وجودي على السطح هو الأفضل لي»، صرحت. «يوجد هنا مئات الصراصير».

«وربما ما هو أسوأ»، أضاف، وهو ينظر إلى السريرين. «الشيء الذي ينبغي علينا أن نفعله هو انتزاع هذه الملاءات القذرة بعيدا والاستلقاء على المراتب». راحت تحديق بعيدا في الممر، كان العرق يسير أسفل رقبتها. «هل تعتقد أن هذه السفينة تتمتع بالأمان؟»

«ما الذي تقصدينه؟»

«كل هؤلاء الناس. والحالة العتيقة التي عليها».

(١٣) جيش الخلاص: منظمة شبه عسكرية لنشر الدين ومساعدة الفقراء أنشأها في إنجلترا وليام بوث ١٨٦٥. [المترجم]

هزّ الزوج كتفيه.

«إنها ليلة واحدة فقط. غدا سنكون في سيناجا. وتقريبا صار الوقت ليلا الآن».

أغلقت الباب واستتدت عليه، وهي تبتسم في فتور قائلة:
«أعتقد أن الأمر سيكون مضحكا».

«السفينة تتحرك!» صاح. «دعينا نذهب إلى السطح. إذا استطعنا الخروج إلى هناك».

تحركت السفينة القديمة ببطء عبر الخليج باتجاه الشاطئ الشرقي المظلم. كان هناك أناس يغنون ويعزفون على الجيتار. وفي السطح السفلي من السفينة كانت هناك بقرة تخور بشكل متواصل، وكان صوت اندفاع المياه الصادر عن المجاديف الضخمة أعلى من جميع الأصوات.

جلسا على السطح في وسط الحشد الصاخب، مستتدين إلى الدرايزين، وراحا يراقبان طلوع القمر فوق أشجار المنجروف الكثيفة قبالتهما. بينما كانوا يدنون من الجانب الآخر للخليج، بدا كما لو أن السفينة قد تمكنت من شق طريقها مباشرة إلى الشاطئ، لكن فجأة ظهر مجرى مائي ضيق، وأخذت السفينة تتساقط فيه بحذر واحتراس. وعلى الفور انتقل الناس إلى الورااء مبتعدين عن الدرايزين، وراحوا يحتشدون عند السور المقابل. بدأت أفرع الأشجار الموجودة على الضفة في الاحتكاك بالسفينة، وهي تحتك وتكشط على امتداد الحوائط الجانبية للكبائن، ثم صدرت عنها أصوات عنيفة تشبه أصوات الضرب بالسياط فوق سطح السفينة.

شقا طريقهما وسط حشد الناس والبضائع ثم سارا عبر الصالون إلى السطح نحو الجانب الآخر للسفينة، وكان الشيء نفسه يحدث هناك.

«إنه جنون»، أعلنت. «إنه أمر أشبه بالكابوس. من الذي سمح بعبور قناة ليست أكثر اتساعا من السفينة! إن هذا يصيبني بالعصبية. سأدخل لأقرأ».

ترك زوجها ذراعها. «إنك لن تتمكني أبدا من الدخول إلى أو اقتحام روح الشيء، أليس كذلك؟»
«قل لي أنت ما هي الروح، وسأنظر في إمكان الدخول إليها»، قالت وهي تتجه بعيدا.

لحق بها الزوج، «ألا ترغبين في النزول إلى أسفل حيث السطح السفلي؟ يبدو لي أنهم قد تجاوزوا الأمر هناك في الأسفل، أنصتي». ومد إليها يده. كانت قهقهة ضحكات متكررة تتصاعد من السطح السفلي.

«لست راغبة بالتأكد!» قالت صارخة، من دون أن تنظر إلى ما حولها.

هبط إلى أسفل. كانت هناك مجموعة من الرجال يجلسون فوق أجولة منتفخة من الخيش وفوق صناديق خشبية، وهم ينقرون العملات المعدنية للتقامر، وكانت تقف خلفهم بعض النسوة، يدخن سجائر سوداء ويصرخن في إثارة واهتياج. راقبهم جميعا عن قرب، وهو يفكر مليا في أنهم بعدد أقل من الأسنان المفقودة كانوا سيصبحون أناسا وسماء. «نقص معدن عضوي في التربة»، قال لنفسه معلقا.

كان واقفا في الجانب الآخر من حلقة المقامرين، في مواجهته، شاب من أبناء البلد، مفتول العضلات، أوجت حافة قبعته ومظهره المتحفظ الفقير بأنه موظف رسمي من نوع رديء بعض الشيء على متن السفينة. شق المسافر طريقه إليه بصعوبة، وتحدث إليه بالإسبانية:

«هل أنت موظف هنا؟»

«نعم يا سيدي».

«أنا في كابينة رقم ثمانية. هل بإمكانني أن أدفع لك أجرة إضافية غير أجرة السفر؟»

«نعم يا سيدي».

«جيد».

بحث في جيبه عن محفظته، في الوقت نفسه تذكر بانزعاج أنه تركها بأعلى وقد أغلق عليها في إحدى الحقائب. بدا الموظف مترقبا. وكانت يده ممتدة.

«نقودي في حجرتي»، ثم أضاف، «إنها مع زوجتي. إذا صعدت إلى أعلى في غضون نصف ساعة فبإمكانني أن أدفع لك أجرتك».

«حاضر يا سيدي». أنزل يده ونظر إليه فقط. على الرغم من أنه أعطى انطبعا بالقدرة الحيوانية بكل معنى الكلمة، فإن وجهه العريض الذي يشبه نوعا ما وجه القرد بدا وسيما إلى حد ما، عندما تأمله الزوج. كانت مفاجأة له عندما، في اللحظة التالية، أسفر ذلك الوجه عن خجل طفولي عندما كان الرجل يقول، «سأذهب لأرش الكابينة للمدام».

«أشكرك. هل يوجد الكثير من الناموس؟»
أصدر الرجل صوت شخير وتذمر وهز أصابع إحدى يديه
كما لو أنها لسعت لتوها.

«سترى قريباً كم يبلغ عددها»، ومضى بعيداً.
في تلك اللحظة ارتجت السفينة وراحت تهتز في قوة وعنف،
وكانت هناك حالة من المرح الصاخب بين الركاب. شق الزوج
طريقه إلى مقدمة السفينة ورأى أن الريان قد اصطدم بالضفة.
كانت الأفرع والجذور المتشابكة على جانب الضفة على بعد أقدام
قليلة من وجهه، وكانت أشكالها المعقدة غير الواضحة مضاءة عن
طريق مصابيح السفينة. تقهقرت السفينة بجهد شديد فارتفعت
مياه القناة المضطربة إلى مستوى سطح السفينة وغطت الحافة
الخارجية. تقدموا إلى الأمام ببطء وحذر بمحاذاة الضفة إلى
أن اتجهت مقدمة السفينة مرة ثانية إلى منتصف النهر، ثم
استأنفوا السير. وفي الحال تقريباً انعطفت القناة بحدة شديدة
إلى درجة أن الأمر نفسه تكرر مرة ثانية، وفي هذه المرة ألقى
الارتطام بالقاع بالزوج جانبا تجاه جوال كان يحتوي على شيء
ما له رائحة كريهة وكان الجوال ناعماً ومبتلاً. صدر صوت رنين
أحد الأجراس أسفل السطح من داخل السفينة، وكان ضحك
الركاب أكثر صخباً منه.

أخيراً تحركوا إلى الأمام، لكن سرعة الحركة الآن أصبحت
أكثر بطئاً لأن المنعطفات الحادة في القناة قد تزايدت. وكانت
جذل الأشجار تحت الماء تصدر صوت صرير، بينما كانت جوانب
السفينة تكافح ضدها لتشق طريقها بقوة. وقد انكسرت بعض

الأفرع وتحطمت متساقطة فوق السطحين الأمامي والعلوي.
وكان مصباح مقدمة المركب يتعرض لاجتياح المياه له.
«هذه ليست قناة قانونية»، دمدم مقامر، عرضاً.
«ماذا؟» استفسر مجموعة من الركاب، معظمهم في نفس
واحد.

«هناك عدد كبير من الممرات ضمن هذه الأنحاء. ولكن
سفينتنا تتقل حمولة إلى كورازون».

انسحب اللاعبون إلى حلبة داخلية في أحد الأركان، كان
عدد آخر من اللاعبين قد أعدوها عن طريق تحريكهم لبعض
الصناديق، وقد تبعهم الزوج. وفي هذا المكان كانوا آمنين بعض
الشيء من تطفل الأغصان، كما أن السطح هنا كان أفضل إضاءة،
وقد أتاح له ذلك فرصة تدوين مادة في دفتره. وراح يكتب وهو
منحن فوق صندوق كرتوني يحمل ماركة (فيرميفيوجو سانتا
روسالي) ١٨ نوفمبر. نمر خلال وعاء دموي لأحد العمالقة.
ليلة شديدة الظلمة». ومن جديد حدث في هذا المكان تصادم
قوي مع الأرض جعله يتخبط بعنف ويسقط في قوة، هو وجميع
الركاب الذين لم يكونوا مستنديين أو مرتكبين إلى شيء ما، بين
الأشياء الصلبة الثابتة في السفينة.

قلة من الرضع كانوا يصرخون، لكن معظمهم لا يزال نائماً.
كان الزوج قد انزلق إلى أسفل نحو السطح السفلي. وجد أن
مكانه كان مريحاً هناك بعض الشيء، فسقط في حالة من
النعاس الخفيف الذي كان يقطعه بشكل غير منتظم صياح
الناس وارتجاج السفينة.

عندما استيقظ في ما بعد، كانت السفينة ساكنة تماما، اللعب توقف، والناس نائمون، وقلة من الرجال كانوا يواصلون أحاديثهم في مجموعات صغيرة. لا يزال راقدا، ينصت. كان الحديث كله يدور حول الأماكن، كانوا يقارنون الأشياء البغيضة الموجودة في أجزاء متنوعة من الجمهورية: الحشرات، الطقس، الزواحف، الأمراض، نقص الغذاء، الأسعار المرتفعة.

نظر إلى ساعته. كانت الواحدة والنصف. بصعوبة نهض على قدميه، وشق طريقه إلى السلالم. فوق، في الصالون، كانت مصابيح الكيروسين تلقي بضوئها على عدد ضخم من الأشخاص الممددين بلا نظام. دخل إلى الممر وطرق على الباب الذي يحمل الرقم ثمانية. من دون أن ينتظرها لتجيبه، فتح الباب. كان الظلام في الداخل. سمع صوت سعال مكتوم في الجوار، فقرر أنها كانت مستيقظة.

«كيف الحال مع الناموس؟ هل جاء الرجل ذو الوجه الشبيه بالقرود ورتّب لك الكابينة؟» سأل.

لم تجب، لذا أشعل عود ثقاب. لم تكن في السرير الموجود على اليسار. أحرق العود طرف إصبعه. في ضوء العود الثاني، نظر في السرير الموجود جهة اليمين. كانت علبة مبيد حشري ملقاة هناك على الفراش، وقد صنع ارتشاح المادة المتسربة منها دائرة كبيرة من النفط على كيس الفراش الخالي. تكرر السعال. كان لشخص ما في الكابينة المجاورة.

«ما العمل الآن؟» قال بصوت عال، وشعر بالضيق لأنه ألقى نفسه متضايقا إلى هذه الدرجة. تملكه الارتياح. من دون أن

يشعل المصباح المعلق، اندفع يفتح حقيبة سفرها، وفي الظلام تحسس بيده سريعا في ما بين قطع الملابس الرقيقة، وأدوات التجميل. لم تكن زجاجة الشراب بداخلها.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تستسلم فيها للشراب بمفردها، وسيكون من السهل العثور عليها بين الركاب. ولكن، لكونه غاضبا، فقد قرر ألا يبحث عنها. خلع قميصه وسرواله واستلقى فوق السرير الموجود في الجهة اليسرى. لامست يده زجاجة منتصبة على الأرض بجانب رأس السرير. رفع نفسه من رقدته بقدر كاف لتشممها، كانت زجاجة شراب مملوءة حتى منتصفها. كان الجو حارا داخل الكابينة، احتسى السائل الدافئ اللاذع المتبقي باستمتاع وتلذذ ثم دحرج الزجاجة على أرضية الغرفة.

لم تكن السفينة تتحرك، لكن ثمة أصواتا كانت تصيح هنا وهناك، وقد وقع ارتطام عرضي محسوس، لأن جوالا به شيء ما ثقيل ألقي عن ظهر السفينة إلى الخارج. نظر من النافذة الصغيرة المربعة ذات الساتر الواقي. في الأمام، كانت الإضاءة المنبعثة من مصابيح السفينة ضعيفة، قلة من الرجال السود، عراة تسترهم سراويل بالية، يقفون فوق أرض زلقة من الطمي ويحدقون ناحية السفينة. ورأى على امتداد الخلفية من بين التعقيدات والتشابكات اللانهاية للجذور والجذوع التي كانت خلفهم لهيب نار تضطرم في الهواء، لكنها كانت بعيدة في مؤخرة المستتقع. كان الهواء مشبعاً برائحة الماء الراكد والدخان.

انتهز فرصة هذا الصمت النسبي، فاستلقى وحاول أن ينام، لم يكن مندهشا، على أي حال، من الصعوبة التي وجدها كي يسترخي. فقد كان من الصعب عليه دائما أن ينام عندما لا تكون هي موجودة بالغرفة. كان يفتقد الراحة التي يحدثها وجودها، وكان هناك أيضا الخوف من الاستيقاظ عند عودتها. عندما كان يخلو إلى نفسه، كان يشرع على الفور في صياغة الأفكار وترجمتها إلى جمل، وكان رصدها الآن يبدو أكثر أهمية لأنه كان يستلقي في دعة في الظلام. كان يفكر فيها أحيانا، لكن فقط باعتبارها كائنا غير واضح تضيفي شخصيته نكهة على تتابع خلفيات الأحداث وتعاقبها. كثيرا ما كان يستعرض اليوم بالكامل تماما، قاصدا إقناع نفسه بأن ذلك اليوم قد نقله بعيدا قليلا إلى حد ما عن طفولته. وفي الغالب كانت غرابة أحلامه في كل مرة تقنعه، بعد انقضاء أشهر على كل حلم منها، بأنه في النهاية قد تجاوز المنعطف، وأنه أخيرا قد ترك وراءه المكان المظلم، وأنه صار خارج نطاق السمع. آنذاك، وبينما كان نائما ذات مساء، وقبل أن يتاح له الوقت الكافي لأن يرفض، وجد نفسه يحدق عن كثب في أشياء كان قد نسيها منذ فترة طويلة: طبق، كرسي، وسادة ذات دبابيس، وإحساس مألوف بالعبث اللانهائي واللاجدوى، ويعاوده الحزن.

دار المحرك، وبدأت من جديد ضوضاء الماء الصاخبة الناجمة عن مجاديف العجلة الضخمة. كانوا يرحلون عن كورازون. كان الزوج مسرورا. «الآن لن أتمكن من سماعها عندما تدخل وتثير جلبة هنا وهناك»، قال لنفسه، وسقط في نوم خفيف.

كان يهرش ذراعيه وساقيه. أصبح الانزعاج الطويل المتواصل المجهول المصدر في نهاية الأمر يحتل وعيه كله، فجلس منتصباً في فراشه غاضباً. كان بإمكانه سماع صوت آخر غطى على الأصوات الصادرة عن السفينة. كان الصوت يأتي عبر النافذة، مرتفع بشكل فظيع وفي نغمة بالغة الصغر، صغيرة جداً لكنها متواصلة في الطبقة والحدة. قفز عن سريريه واتجه نحو النافذة. كانت القناة في هذا المكان أكثر اتساعاً، ولم تعد النباتات المتدلية تلامس جوانب السفينة. في الهواء، وفي الجوار، وعلى مبعده، وفي كل مكان، كان صوت الطنين الرقيق لأجنحة الناموس. كان مشدوهاً، ومبتهجاً بشكل كلي بسبب جدة الظاهرة. وراح يراقب للحظة العدد الضخم الأسود المتشابك وهو ينزلق عابراً النافذة. عندئذ، وبسبب هرش جلده تذكر الناموس الموجود داخل الكابينة. كان الستار السلكي لا يصل إلى قمة النافذة تماماً، وكانت هناك مساحة وافرة متسعة للبعوض ليعبر منها. وعلى الرغم من أنه كان يحرك أصابعه في الظلام بطول الإطار للعثور على المقبض فإنه كان بإمكانه أن يلمس الكثير من البعوض، كان هناك الكثير منه وبدرجة كبيرة إلى هذا الحد.

لأنه كان مستيقظاً الآن بشكل كلي، فقد أشعل عود ثقاب واتجه إلى سريرها. بالطبع لم تكن موجودة هناك. رفع بخاخة الفليت وقام برجّها. كانت البخاخة فارغة، وبينما كان العود ينطفئ، تبين أن البقعة التي كانت فوق المرتبة قد انتشرت واتسعت إلى مسافة أبعد على نحو مطرد.

«يا ابن العاهرة!»، همس، وعاد إلى النافذة ليسحب السلك في قوة إلى أعلى ليتمكن من سد الفتحة. بينما كان يحرره من قبضته، سقط إلى الخارج في المياه، وفي الحال تقريبا أصبح واعيا بالتربيت الخفيف للأجنحة الصغيرة كلها وقد انتشرت حول رأسه. بقميصه التحتي وسرواله اندفع مسرعا إلى الممر. لم يطرأ أي تغيير في الصالون. الجميع نائمون تقريبا. كانت هناك أبواب ذات ستائر سلكية تفضي إلى السطح. فحصها، فبدت له أكثر ثباتا في تركيبها. مست قلة من البعوض وجهه مسا رفيقا، لكنها لم تكن تشكل حشدا. انحشر بين سيدتين كانتا نائمتين جالستين ومؤخرة كل منهما إلى الحائط، وظل بينهما في وضع غير مريح وخطير حتى غفا مرة ثانية. لم يمر وقت طويل قبل أن يفتح عينيه ليجد ضوء الفجر الباهت في السماء. ألمته رقبتة ألما خفيفا. نهض ومضى إلى السطح، الذي كان قد احتشد فوقه بالفعل معظم الناس الذين كانوا في الصالون.

كانت السفينة تتحرك عبر مصب نهر عريض محاطة بمجموعة النباتات والأشجار التي نمت خارجة من تحت المياه الضحلة. على امتداد جوانب الجزر الصغيرة وقفت طيور البلشون، وكانت شديدة البياض في الضوء الرمادي المبكر للصباح إلى درجة أن بريقها بدا نابعا من داخلها.

كانت الساعة الخامسة والنصف. في هذه اللحظة كان متوقعا وصول السفينة إلى «سيناجا»، حيث يكون التقاء السفينة في رحلتها الأسبوعية بالقطار الذي يمضي إلى الداخل. كان لسان رفيع من الأرض قد بدأ يتضح بالفعل في المقدمة للأشخاص

ذوي الأبصار الحادة المتلهفة إلى انتهاء الرحلة. كان النهار يشرق بسرعة، والسماء والمياه لهما اللون نفسه. كان سطح السفينة معبقا برائحة المانجو ذات الزيوت المتطايرة، حيث كان الناس يشرعون في تناول إفطارهم.

في تلك اللحظة على الأقل بدأ يشعر بوخزات مفاجئة من القلق المزعج والمؤلم في ما يتعلق بالمكان الذي من المحتمل أن تكون زوجته فيه، فقرر أن يقوم ببحث سريع وشامل في أرجاء السفينة. سوف يكون بالإمكان تمييزها على الفور وسط أي مجموعة. في البداية فحص الصالون وفق خطة منظمة، ثم استنفد احتمالات العثور عليها في السطحين العلويين. ثم نزل السلالم، حيث كان القمار قد بدأ بالفعل مرة ثانية. في جهة المؤخرة من السفينة، كانت البقرة تقف مربوطة إلى قضبان من الحديد الرقيق، من دون أن تخور منذ فترة، وفي الجوار من مكان وقوفها كان هناك امتداد ارتجالي لأماكن إقامة، وكان من المحتمل أن تكون هذه الأماكن هي القمرات الخاصة بطاقم السفينة. بينما كان يجتاز بابا صغيرا، أنعم النظر عبر النافذة الفوقية التي تعلوه، فرآها راقدة إلى جوار رجل على الأرض. دخل بشكل آلي، ثم استدار وقفل عائدا. كانا نائمين، وينصف ملابسهما. وفي الهواء الدافئ الذي كان يأتي عبر الستار السلكي لنافذة الباب الفوقية كانت هناك رائحة شراب جرى احتساؤه ورائحة شراب مسكوب على الأرض.

صعد الزوج السلالم، وكان قلبه يدق بعنف. في الكابينة، أغلق حقيبتَي سفرها، وحزم حقائبه ثم وضعها بعضها إلى جوار

بعض عند الباب، ثم وضع معطفي المطر فوقها. ارتدى قميصه، ومشط شعره بعناية، ثم ذهب إلى السطح. كانت سيناجا في الأمام مباشرة، في الظلال الصباحية للجبال: المرسى، وشريط من الأكواخ أمام الغابة الواقعة في الورا، ومحطة القطار عن اليمين وراء القرية.

عندما رسوا، لمح الزوج ولدين صغيرين كانا يلوحان له ليلفتا انتباهه وهما يصرخان، «أمتعة!»^(١٤)، وظلا يتعاركان في ما بينهما حتى تمكن من جعلهما يريان إصبعيه المرفوعين إلى أعلى. ولكي يؤكد لهما، أشار إلى كل منهما على التعاقب، وبدورهما ابتسما ابتسامة عريضة. كانا يقفان إلى جواره وهما لا يزالان مبتسمين حاملين الحقائق والمعطفين، وكان هو من بين أوائل ركاب السطح العلوي الذين نزلوا على اليابسة. وصلوا إلى نهاية الشارع حيث المحطة، وقد صاحبتهم أصوات البيغاوات التي كانت تصيح فيهم من فوق جميع الأسطح الجمالونية المصنوعة من القش على امتداد الطريق.

في القطار المنتظر (في المحطة) المزدحم بالركاب، وأخيرا وبعد وضع الأمتعة فوق الحامل، كان قلبه يدق بشكل أقوى من أي وقت مضى. أبقى على عينيه مثبتتين في ألم على الشارع الترابي الطويل المؤدي إلى المرسى في الخلف. وعلى مسافة بعيدة في نهاية الشارع، عندما انطلق صفير القطار، تراءى له شكل يرتدي الأبيض يجري بين الكلاب والأطفال باتجاه المحطة، لكن القطار بدأ يتحرك. وبينما كان يمعن النظر، راح الشارع

(١٤) وردت بالإسبانية. [المترجم]

يغيب عن النظر. أخرج دفتره، وجلس واضعاً إياه في حجره،
وهو يبتسم ويتطلع إلى منظر الخضرة الزاهية المتألق الذي كان
يتحرك بسرعة متزايدة عبر النافذة.

القس دوو في تاكيت

ألقى القس دوو موعظته الأولى في صباح يوم أحد مشرق بعد وقت قصير من بداية موسم المطر. حضر مائة هندي تقريبا، بعضهم جاء من جميع أنحاء بالاتش في الوادي. جلسوا بهدوء على الأرض بينما كان يتحدث إليهم لمدة ساعة أو نحو ذلك بلغتهم المحلية. حتى الأطفال لم يتمللوا، كان هناك صمت مطبق تماما أثناء مواصلته الكلام. لكن كان في وسعه أن يرى أن اهتمامهم كان مبعثه الاحترام وليس الاهتمام أو الاكتراث. ولكونه رجلا يقظ الضمير فقد صار مضطربا لاكتشافه ذلك. عندما أنهى الموعظة، التي كانت تحمل ملاحظاتها عنوان «معنى يسوع»، نهضوا ببطء بدأوا في الانتشار بعيدا، وهم يفكرون بوضوح تام في أشياء أخرى. كان القس دوو متحيرا. وقد أكد له الدكتور راموس الأستاذ الجامعي أن سيطرته على اللهجة المحلية كافية لتمكين أبناء الأبرشية المتوقع حضورهم من متابعة موعظه، ولم تكن لديه أي صعوبة في التحدث مع الهنود الذين رافقوه من سان جرينمو. وقف حزينا فوق المنصة الصغيرة المظلمة بالقش في الخلاء أمام بيته وراقب الرجال والنساء وهم يمشون ببطء في اتجاهات مختلفة. كان لديه شعور بأنه لم يتمكن من توصيل شيء إليهم بالمرّة.

أحس فجأة بأنه من الواجب عليه أن يمكث مع الناس طويلا لبعض الوقت، فنأدى عليهم ليتوقفوا. أداروا وجوههم بأدب تجاه السرادق حيث كان يقف، وظلوا يتطلعون إليه، دون أن يتحركوا، وانغمس كثير

من الأطفال الصغار في إحدى الألعاب، وكانوا ينطلقون في صمت تقريبا في الخلفية. نظر القس سريعا في ساعة يده وتحدث إلى نيكولاس الذي كان يشار إليه كأحد أكثر الرجال ذكاء ونفوذاً في القرية، طالبا منه أن يصعد ويقف إلى جواره.

بمجرد أن أصبح نيكولاس إلى جواره، قرر أن يختبره ببضعة أسئلة، «نيكولاس»، قال بصوته الجاف الخفيض، «ما الذي تحدثت أنا بشأنه اليوم؟».

سعل نيكولاس ونظر إلى ما وراء رؤوس الحشد إلى حيث زرعت في الطين أسفل شجرة المانجو كمية كبيرة من البذور ثم قال: «السيد المسيح».

«نعم»، وافقه القس دوو مشجعا. «نعم، وماذا عن السيد المسيح؟»

«كان إنسانا طيبا»، أجاب نيكولاس وقد بدت عليه علامات اللامبالاة.

«نعم، نعم، لكن ماذا أيضا؟» كان القس دوو قد نفد صبره؛ فارتفعت حدة نبرة صوته.

بقي نيكولاس صامتا. وفي النهاية قال، «سأذهب الآن»، ونزل من على المنصة ببطء. وبدأ الآخرون ثانية في جمع متعلقاتهم والمضي بعيدا. كان القس دوو غاضبا للحظة، ثم أخذ مفكرته وإنجيله ودخل إلى البيت.

على الغداء، كان خادمه ماتيو، الذي كان قد انتظر على المائدة، والذي كان قد أحضره معه من أوكوسنجو، واقفا وقد استند إلى الحائط مبتسما.

«سيدي»، قال، «يقول نيكولاس إنهم لن يأتوا ثانية لسماعك من دون موسيقى».

«موسيقى!» صرخ القس دوو، واضعاً شوكته على المائدة،
«سخف!» أي موسيقى؟ ليس عندنا موسيقى»

«يقول إن الأب في يالاكتين اعتاد أن يغني».

«سخف!» قال القس ثانية. «أولا، أنا لا أستطيع الغناء،
وعلى أي حال، هذا لم يسمع به من قبل! هذا غير مسبوق على الإطلاق!»^(١٥)

«نعم، حقاً؟»^(١٦) وافقه ماتيو.

كانت غرفة نوم القس حارة وخالية من النسمة حتى في الليل،
ومع ذلك، كانت الغرفة الوحيدة في البيت الصغير التي بها نافذة
تطل على الخارج؛ وكان في إمكانه إغلاق الباب على الساحة
المرعجة حيث يتجمع الخدم دائماً في النهار لأداء أعمالهم
ومحادثاتهم. استلقى أسفل ناموسيته المحكمة، وهو يستمع إلى
نباح الكلاب في القرية بأسفل. كان يفكر في نيكولاس. اختار
نيكولاس لنفسه في ما يبدو دور المتحدث بلسان القرية للعمل
في حقل التبشير. تحركت شفتا القس الرفيعتان. «إنه مشاغب»،
همس إلى نفسه «سأتحدث معه غدا».

وقف القس دوو في وقت مبكر من صباح اليوم التالي خارج
كوخ نيكولاس. كان لكل بيت في تاكيت هيكل صغير خاص به:
القليل من جذوع الأشجار الحاملة لبعض القش لتحمي الفاكهة

(١٥) وردت بالإسبانية - المترجم.

(١٦) وردت بالإسبانية - المترجم.

المعروضة والطعام المطبوع. راعى القس ألا يقترب من ذلك الهيكل الذي ينتصب على مقربة؛ شعر أنه بالفعل كالمنبوذ، وقد حذره الدكتور راموس من التدخل في أمور من هذا النوع. نادى القس على من بالداخل.

ظهرت في مدخل البيت فتاة صغيرة في السابعة من العمر تقريبا. نظرت إليه بانفعال للحظة بعينين كبيرتين مستديرتين قبل أن تصرخ صرخة طويلة حادة وتختفي في الظلام ثانية. انتظر القس ونادى ثانية. جاء الآن رجل من خلف الكوخ وأخبره أن نيكولاس سوف يعود عما قليل. جلس القس فوق جذع شجرة مقطوع. بعد فترة قصيرة وقفت الفتاة الصغيرة في المدخل مرة ثانية، وابتسمت بخجل هذه المرة. نظر إليها القس بقسوة. بدا له أنها كانت أكبر من أن تمضي هنا وهناك عارية. أشاح برأسه بعيدا وتفحص بتلات حمراء سميكة لزهرة موز متدلية بالجوار. عندما نظر ثانية كانت قد خرجت ووقفت على مقربة منه، وهي لا تزال تبتسم. نهض وسار نحو الطريق، ورأسه منكس، كما لو كان مستغرقا في التفكير. في تلك اللحظة دخل نيكولاس من البوابة، وصدده به واعتذر القس، عن هذا الصدام.

«حسنا»، ثم برطم نيكولاس، «ماذا؟»

لم يكن زائره متأكدا من الكيفية التي ينبغي عليه أن يبدأ منها. قرر أن يكون لطيفا.

«أنا رجل طيب» قال ذلك مبتسما.

«نعم»، قال نيكولاس. «السيد المسيح رجل طيب».

«لا. لا. لا.» صرخ القس دوو.

بدا نيكولاس متحيراً في أدب.
شعر القس أن تحكمه في اللهجة لم يكن مناسباً لموقف كهذا،
قرر القس بحكمة أن يبدأ مرة ثانية «هاشاكيوم خلق العالم. هل
هذا صحيح؟»
أوماً نيكولاس موافقاً، وجثا على الأرض عند قدمي القس،
ناظرًا إليه، وضافت عيناه في الشمس.
«هاشاكيوم خلق السماء». بدأ القس في الإشارة وهو يكمل
قائلًا، والجبال، والأشجار، وهؤلاء الناس. «هل هذا صحيح؟»
صدّق نيكولاس على كلامه مرة ثانية.
«هاشاكيوم جيد، هاشاكيوم خلقك. أليس كذلك؟» جلس
القس دوو ثانية فوق الجذع المقطوع.
تحدث نيكولاس أخيرًا، «كل هذا الذي قلته صحيح».
سمح القس لنفسه بابتسامة رضا وواصل.
«هاشاكيوم خلق كل شيء وكل فرد لأنه عظيم وخير».
تجهّم نيكولاس. «لا!» صاح. «هذا ليس صحيحاً! هاشاكيوم
لم يخلق الجميع. إنه لم يخلقك. لم يخلق الأسلحة أو السيد
المسيح، أشياء كثيرة لم يخلقها!»
أغلق القس عينيه للحظة، ملتصقاً بالقوة. «جيد»، قالها في
النهاية في صوت صبور. «من الذي خلق الأشياء الأخرى؟ من
خلقني؟ أخبرني من فضلك».
لم يتردد نيكولاس، وقال «ميتزابوك».
«لكن من هو ميتزابوك هذا؟» صرخ القس، جاعلاً ملاحظة
غاضبة تظهر في صوته.

لم يكن هناك مرادف للكلمة التي تعني الإله والتي عرفها
القس دائماً سوى كلمة هاشاكيوم.
«يخلق ميتزابوك كل الأشياء التي لا تنتمي إلينا هنا»، قال
نيكولاس.

نهض القس، أخرج منديله ومسح جبينه.
«أنت تكرهني»، قال، ناظراً إلى أسفل نحو الهندي. كانت
الكلمة قوية جداً، لكنه لم يعرف كيف يقولها بطريقة أخرى
مغايرة.

نهض نيكولاس بسرعة ولمس ذراع القس بيده.
«لا. هذا ليس صحيحاً، أنت رجل جيد، الجميع يحبونك».
تراجع القس دوو مرغماً. كانت لمسة اليد السمراء منفرة
له بشكل مبهم. نظر بتوسل إلى وجه الهندي وقال، «لكن ألم
يخلقني هاشاكيوم؟»
«لا».

كانت هناك وقفة طويلة.
«هل ستحضر في المرة القادمة إلى بيتي وتستمع إليّ وأنا
أحدث؟»

بدا نيكولاس متضيقاً.
«لدى الجميع عمل ينبغي عليهم القيام به»، قال.
«قال ماتيو إنك تريد سماع الموسيقى»، بدأ القس.
هزّ نيكولاس كتفيه، «إنها غير مهمة بالنسبة إليّ. لكن الآخرين
سيأتون إذا كان عندك موسيقى. نعم هذا صحيح إنهم يحبون
الموسيقى».

«لكن أي موسيقى؟» صرخ القس في يأس.

«يقولون إن عندك بيترولا».

نظر القس بعيدا، وراح يفكر: «ليس هناك سبيل إلى إخفاء أي شيء عن هؤلاء الناس» ضمن أدواته المنزلية الأخرى والأشياء التي تركتها زوجته عندما توفيت، كان قد أحضر فونوغرافا صغيرا محمولا كان في مكان ما في حجرة الخزين مكمّوا مع حقائب السفر الفارغة والملابس الخاصة بالطقس البارد.

«أخبرهم أنني سأشغل البترولا»، قال، مجتازا البوابة.

جرت الفتاة الصغيرة في أثره ووقفت تشاهده بينما كان يتقدم في الطريق.

في طريق عودته عبر القرية كان القس مضطربا لفكرة أنه كان وحيدا تماما في هذا المكان البعيد، وحيدا في كفاحه لتوصيل الحقيقة لأتباعه. لكنه عزى نفسه بتذكر أنه في الوعي الخاص بكل إنسان توجد العزلة؛ وعلى نحو موضوعي فإن الإنسان دائما جزء من شيء ما.

عندما وصل إلى البيت أرسل ماتييو إلى المخزن للبحث عن الفونوغراف المحمول. أحضره الولد بعد فترة، ونفض الغبار عنه ووقف بينما كان القس يفتح الصندوق. كان ذراع إبرة التدوير في الداخل.

أخرج ذراع التدوير وملاً الزنبرك، وكان هناك عدد قليل من الأسطوانات في الحجرة الصغيرة بالطابق العلوي. كانت أول أسطوانة تم اختبارها تحمل عنوان «دعنا نقوم بها»، ثم تلتها أسطوانة «الإيقاع المجنون»، و«افتتاحية الفرقة»، ولم يجد القس

دوو من بينها ما اعتبره من الأشياء المناسبة لمواعظه. كانت هناك تسجيلات لأغاني آل جونسون^(١٧)، منها «ولد صغير» ونسخة مشروخة من «إنها مضحكة بهذه الطريقة» وبينما كان ينظر إلى البطاقات تذكر الموسيقى التي كانت تحتوي عليها كل اسطوانة، وأن السيدة دوو كانت تكره للأسف موسيقى الترتيلة؛ وكانت تطلق عليها «موسيقى الحداد».

«هأنح إذن من دون موسيقى»، قال متتهدا.

كان ماتيو مندهشا، «ألن يعمل؟»

«لن أستطيع تشغيلها، فهذه الموسيقى مخصصة للرقص،

يا ماتيو».

«لَمْ لا، يا سيدي!» سيحبونها كثيرا جدا».

«لا، يا ماتيو!» قال القس بقوة، ثم أدار اسطوانة «إيقاع

مجنون» ليوضح له وجهة نظره. عندما صدرت النغمات الرفيعة

من الآلة، تغير تعبير ماتيو إلى تقدير يقارب الغبطة. «يا لروعته

وجمالها!»^(١٩) قال بإجلال، رفع القس دوو ذراع الإيقاع فتوقف

النمط المتواكب للإيقاع.

«لا يمكن أن يحدث هذا»، قال بشكل حاسم ونهائي، وهو يغلق

الغطاء.

مع ذلك تذكر عندما جاء يوم السبت أنه قد وعد نيكولاس

بأنه ستكون هناك موسيقى في القداس، فقرر إخبار ماتيو بأن

يحمل الفونوغراف إلى الخارج حيث السرادق لاستخدامه هناك

(١٧) آل جونسون: ممثل ومغن أمريكي (١٨٨٦ - ١٩٥٠)، ولد في روسيا - المترجم.

(١٨) وردت بالإسبانية - المترجم.

(١٩) وردت بالإسبانية - المترجم.

في حالة ما إذا استدعى الأمر وكانت الحاجة إليه ملحة. كان هذا احتياطا ذكيا، لأنه في صباح اليوم التالي عندما وصل القرويون لم يكونوا يتحدثون عن شيء خلا الموسيقى التي كانوا سيستمعون إليها.

كان موضوع موعظته «قوة الإيمان»، وبعد أن تحدث لمدة عشر دقائق تقريبا وقف نيكولاس، الذي كان مقرصا أمامه مباشرة، ورفع يده بهدوء. تجهّم القس دوو وتوقف عن الكلام.

تكلم نيكولاس: «الآن موسيقى، ثم بعد ذلك الحديث. ثم موسيقى، فحديث. ثم موسيقى». ثم استدار وواجه الآخرين. «هذه طريقة جيدة»، أضاف. كانت هناك تمتات موافقة، ومال الجميع بالجذع إلى الأمام قليلا لسماع أي أصوات موسيقية قد تصدر عن السرادق.

تنهد القس ورفع الآلة إلى المنضدة، مبعدا الإنجيل الذي كان موضوعا على الحافة. «بالطبع»، قال لنفسه بقسوة غير ملحوظة. كانت الأسطوانة الأولى التي دارت «إيقاع مجنون». عندما بدأت تدور، كان طفل بالجوار، يردد سلسلة من الأغاني غير ذات معنى، توقف الطفل عن إصدار الضوضاء التي كانت تشبه صوت الببغاء، وظل صامتا ومتحجرا بينما كان يحدّق نحو المنصة جلس الجميع هادئين تماما حتى انتهت القطعة، ثم كانت هناك جلبة تتم عن استحسان. «الآن مزيد من الكلام»، قال نيكولاس، وقد بدا مسرورا جدا.

واصل القس. تحدث الآن بتلغثم بعض الشيء، لأن الموسيقى قطعت حبل أفكاره، وحتى عندما نظر إلى ملاحظاته

لم يستطع التأكد بالضبط من النقطة التي توقف عندها قبل مقاطعته، بينما أخذ يواصل، كان ينظر إلى الناس الجالسين تحت على مقربة منه. لاحظ أنه بجانب نيكولاس كانت الفتاة الصغيرة التي كانت تراقبه من المداخل جالسة، وقد سُرَّ لرؤيتها مرتدية ثوبا صغيرا كان كافيا لأجل تغطيتها. كانت الفتاة تحديق فيه بتعبير ترجمه على أنه تقدير إعجابي.

في ذلك الوقت، عندما شعر أن جمهوره كان على وشك أن يصيبهم الملل على الرغم من أنه كان عليه الاعتراف بأنهم لم يعملوا أبدا على إظهار هذا بشكل واضح، أدار في أسماهم «ولد صغير»، لم يكن من الصعب التخمين من خلال رد الفعل أن اختياره هذا كان يجد استحسانا أقل لدى مستمعيه. التعبير العام للتوقع المتوتر في بداية الأسطوانة تراخى بعد فترة وجيزة إلى مجرد استمتاع روتيني بدرجة أقل حدة. وعندما انتهت القطعة، نهض نيكولاس على قدميه ثانية ورفع يده بجديّة، قائلا: «جيدة. لكن الموسيقى الأخرى أكثر جمالا».

قام القس بعمل تلخيص سريع، وبعد تشغيل أسطوانة «إيقاع مجنون» مرة ثانية، أعلن أن القداس قد انتهى.

بهذه الطريقة أصبحت أسطوانة «إيقاع مجنون» جزءا مكملًا لصلاة القس دوو الأسبوعية. بعد أشهر قليلة تهالكت الأسطوانة على نحو سيئ لدرجة أنه قرر تشغيلها مرة واحدة أثناء كل تجمع، أذعن رعاياه لهذا العرض الترشيدي على مضض وإن اشتكوا، عن طريق نيكولاس كمبعوث عنهم.

«لكن الأسطوانة الموسيقية قديمة، لن يكون هناك المزيد منها
إذا استخدمتها بشكل دائم»، شرح القس.
ابتسم نيكولاس غير مصدق: «أنت تقول هذا لكنك لا تريدنا
أن نستمع إليها!»

في اليوم التالي، بينما كان القس دوو جالسا يقرأ في تعريشة
الفناء، أعلن ماتيو عن حضور نيكولاس للمرة الثانية، الذي
كان قد دخل عبر المطبخ، ويبدو أنه، كان قد شرع في التحدث
مع الخدم هناك، من الآن تعلم القس بوضوح تماما كيف يقرأ
التعبيرات المرتسمة على وجه نيكولاس، وكان التعبير الذي رآه
على وجهه الآن قد أنبأه بأن ثمة ابتزازات جديدة كانت في
الطريق.

نظر نيكولاس باحترام. «سيدي»، قال، «نحن نحبك لأنك
أسمعتنا الموسيقى عندما سألناك إياها. الآن نحن جميعا
أصدقاء. نريدك أن تعطينا «ملحا».

«ملح؟» صرخ القس دوو، متشككا: «لأي غرض؟»
ضحك نيكولاس بمزاج جيد، جاعلا الضحكة واضحة لدرجة
أنه اعتقد أن القس كان يمازحه. ثم أتى بإشارة تعني مقدارا
ضئيلا.

«لأجل الأكل»، قال.

«آه، نعم»، تمتم القس، متذكرا أنه الملح الصخري بين الهنود
تترف ورفاهية غير متوافرة.

«لكننا ليس لدينا ملح»، قال بسرعة.

«آه، نعم، سيدي. هناك». أشار نيكولاس إلى المطبخ.

نهض القس وكان قد اعتزم وضع حد لهذه المساومة، التي اعتبرها عنصرا مسببا للفوضى في علاقته الرسمية بالقرية. مشيرا إلى نيكولاس ليتبعه، مضى القس إلى المطبخ، وصاح مناديا عندما دخل، «كوينتينا، أريني الملح الخاص بنا».

كان كثير من الخدم، من بينهم ماتيو، يقفون في الحجرة. كان ماتيو هو الذي فتح دولابا واطئا وأعلن عن كومة كبيرة من قوالب الملح الضارب إلى اللون الرمادي مكدسة على الأرض. كان القس مندهشا «الكثير من كيلوات الملح!» صرخ. «منذ متى وهذا الملح هنا؟»^(٢٠)

أخبره ماتيو بهدوء أنهما كانا قد أحضراه معهما منذ فترة بعيدة من أوكوسينجو. «لأجل استخدامنا»، أضاف، مجيلا بصره في الآخرين.

فهم القس دوو هذا، متمنيا أن تكون هذه إشارة وأنه استطاع استيعابها. «بالطبع»، قال لنيكولاس. «إنه لييتي».

بدا نيكولاس غير متأثر. «لديك ما يكفي لكل فرد في القرية»، قال معلقا، ثم أضاف، «بإمكانك في غضون أسبوعين الحصول على المزيد من أوكوسينجو. سيكون الجميع دائما سعيدا جدا بهذه الطريقة، سيأتي الجميع في كل مرة تتحدث فيها. أنت تعطيهم الملح وتشغل الموسيقى».

أحس القس دوو بأنه قد بدأ يرتجف قليلا. كان يعرف أنه مستثار ولذا كان يحاول ببطء أن يجعل صوته يبدو طبيعيا. «سأقرر في ما بعد، يا نيكولاس»، قال. «مع السلامة».

(٢٠) ورد السؤال بالإسبانية - المترجم.

كان واضحا أن نيكولاس من المستحيل أن يعتبر هذه الكلمات علامة تدل على أنه قد طرد فأجاب: «مع السلامة»، ومال إلى الوراء في مقابل الحائط، «مارتا!» صاح مناديا على الفتاة الصغيرة، التي أصبح وجودها الآن في غرفة القس ملحوظا، حيث انتقلت إلى خارج الظلال وكانت الفتاة تحمل ما بدا له أنه دمىة كبيرة، وكانت مهتمة بها جدا، عندما خرج القس إلى الساحة المضيئة، صدمته الصورة كشيء غير حقيقي، فاستدار عائدا ونظر في المطبخ ثانية في تدهم. ظل وقفا في المدخل في مظهر الفعل المرجأ للحظة، وهو يحدق قليلا في مارتا. الدمىة، المحمولة بحب على ذراع الطفلة، والملفوفة في خرقة بالية، كانت تصدر عنها حركات متقطعة.

كانت فضاظة القس تهيمن عليه؛ ربما كان عليه أن يظهر هذا بغض النظر عما كانت عليه الظروف، «ما هذا؟» سأل بسخط. كما لو أنها كانت تجيبه، تلوت الدمىة مرة ثانية، نازعة عنها طرف من الخرقة التي كانت تغطيها، فرأى القس ما بدا له كشريط كاريكاتير مضحك «لذئب القلنسوة الحمراء» وهو يبرز إلى الخارج من تحت طاقيية نوم الجدة. صرخ القس دوو ثانية، «ما هذا؟»

تحول نيكولاس عن محادثته، مداعبا مارتا قائلا لها أن ترفعه وتعريه حتى يمكن للسيد أن يراه، وهذا هو ما فعلته، نزعته عنه اللفة وعرضت للعيان تمساحا صغيرا مملوءا بالحويوة، ونظرا إلى كونه كان محمولا أو ممسوكا من ظهره تقريبا، فقد كان يعترض بطريقة روتينية على هذه المعاملة بتجديف إيقاعي في

الهواء بأقدامه الصغيرة السوداء. وقد بدا على وجهه الطويل نوعا ما، رغم ذلك، أنه يبتسم.

«يا إلهي!» صرخ القس بالإنجليزية. صدمه المشهد كفضيحة غريبة. كان هناك فحش خفي في نظرة الزاحف الصغير المهتاج قليلا برأسه الملفوف في الخرقة، لكن مارتا كانت لا تزال ممسكة به كي يستطيع معاينته. لمس القس قشور جروح بطنه الملساء بأصابعه، وسحب يده، قائلاً، «يجب تكبيل فكيه. سوف يعض الطفلة».

ضحك ماثيو. «إنها سريعة جدا»، ثم قالها باللهجة الدارجة إلى نيكولاس، الذي وافقه، وضحك أيضا. ربت القس على رأس مارتا بينما كانت تعيد الحيوان إلى صدرها وواصلت احتضانها له في رقة ولطف.

كانت عينا نيكولاس مسلطتين عليه. «أنت تحب مارتا؟» سأل بجدية.

كان القس يفكر في الملح. «نعم، نعم»، قال ذلك بحماس زائف لإنسان منشغل البال. وذهب إلى غرفة نومه وأغلق الباب. كان الاستلقاء على السرير الضيق بعد الظهر مماثلاً للاستلقاء في الليل، فقد كانت هناك نفس أصوات الكلاب التي تتبع في القرية. اليوم أيضا كان هناك صوت للريح التي تمر من خلال النافذة حتى قبة الناموسية كانت تهتز قليلا من وقت إلى آخر بينما كان الهواء يدخل الغرفة. كان القس يحاول أن يقرر إن كان سوف يذعن لنيكولاس أم لا عندما أصبح نعسان جدا، فكر: «ومع ذلك، أي مبدأ سوف أقوم بإرساله أو مناصرتة بمنع الملح

عنهم ؟ إنهم يريدون الموسيقى إنهم يريدون الملح وسوف يتعلمون أن يريدوا الرب». هذه الفكرة بدت له مريحة، وعرف النوم وسط نباح الكلاب والريح الصاخبة المارة خلال النافذة.

كانت السحب أثناء الليل تهبّط من أعالي الجبال إلى حيث الوادي، وعندما طلع الفجر ظلت هناك، كتيجان فوق رؤوس الأشجار العالية. الطيور القليلة التي تمكنت من أن تطلق أصواتها ليتم سماعها بدت كما لو كانت تغني تحت سقف الغرفة الكبير. كان الهواء المندى معبقا بدخان الخشب، لكن لم تكن هناك ضوضاء قادمة من القرية، حائط من السحب انسدل بينها وبين بيت الإرسالية.

سمع القس من سريره، بدلا من صوت الريح التي تمر بالنافذة، قطرات بطيئة تتساقط فوق الشجيرات من الإفريز، لا يزال مستلقيا حتى الآن للحظة متراخيا أو نصف نائم أثناء الثرثرة الخافتة لأصوات الخدم في المطبخ. ثم ذهب إلى النافذة وتطلع إلى الخارج حيث الوجود الرمادي حتى الأشجار القرية كانت غير مرئية؛ كانت هناك رائحة ثقيلة للأتربة. ارتدى ملابسه، وشعر برجفة عندما لامست الملابس الرطبة جلده فوق المنضدة وضعت صحيفة كان عنوانها الرئيسي:

«برشلونة بومبارديادو مع دوسينتوس أفيونيز»

خطر له بينما كان يحلق لحيته، ويحاول إحداث رغوة صابونية بالماء الفاتر الذي كانت كوينتينا قد أحضرته له، والمملوء برماد الفحم النباتي، أنه يريد الفرار من أهل تاكيت ومن الشعور الخانق الذي تركوه لديه بأنهم تائهون ضائعون في العصور

القديمة المظلمة. من الأفضل التخلص من هذا الحزن الهائل
اللانهاثي حتى ولو لساعات قليلة.

تناول إفطاراً أكثر من المعتاد ومضى إلى الخارج إلى الرصيف
المسقوف، حيث جلس في الرطوبة وبدأ في قراءة المزمور الثامن
والسبعين، الذي كان يفكر في استخدامه كأساس للموعظة،
بينما كان يقرأ نظر بعيداً إلى الفراغ أمامه. حيث كان يعرف أن
شجرة المانجو منتصبه لكنه لم يكن في وسعه سوى رؤية الفراغ
الأبيض، كما لو أن الأرض قد هبطت عند حافة الرصيف إلى
ألف قدم أو أكثر.

«شق صخوراً في البرية، وسقاها من لجج عظيمة»^(٢١).
من البيت جاء صوت قهقهة كونيتينا. «ربما كان ماتيو يطاردها
هنا وهناك في أرجاء الساحة»، فكَرَّ القس؛ الذي أُلْقِعَ بحكمة
منذ فترة طويلة عن أن يتوقع من أي هندي أن يتصرف كما
يجب عليه كشخص بالغ. على الجانب الآخر من السرادق كان
ديكا روميا يصدر الصوت الكركري الهستيري المميز له كل عدة
ثوان، بسط القس إنجيله على المنضدة، وضع يديه على أذنيه،
وواصل القراءة: «أهاج ريحا شرقية في السماء، وساق بقوته
ريحا جنوبية».

«مقاطع كهذه ستبدو وثنية بكل ما في الكلمة من معان في
اللهجة المحلية»، أمسك بنفسه وهو يفكر في هذه الطريقة. نزع
يديه عن أذنيه وراح يقول لنفسه: «لكن بالنسبة إلى آذانهم لا بد
أن كل شيء سيبدو وثنياً، كل شيء أقوله يتحول في الطريق إليهم

(٢١) المزمور الثامن والسبعون: قصيدة لأساف - المترجم.

إلى شيء آخر مغاير»، كانت طبيعة تفكير القس دوو تستخدم دائما أسلوب المحادثة لتجنب الألم. ثبتت عينيه على النص بعزم، وتابع القراءة. كانت القهقهات عالية في البيت، وفي إمكانه الآن سماع ماتيو كذلك. «أرسل عليهم بعوضا فأكلهم، وضافدع فأفسدتهم» وكان الباب المفضي إلى الساحة مفتوحا وسمع القس سعال ماتيو بينما كان واقفا ينظر بعيدا. «إنه بالتأكيد مصاب بالسل»، قال القس لنفسه، بينما كان الهندي يبصق بشكل متكرر. أغلق إنجيله وخلص نظارته، متحسسا المنضدة بحثا عن علبتها. ليس من دون قصد، نهض، وأخذ خطوة إلى الأمام، ساحقا إياها تحت كعبه. بعطف، انحنى إلى أسفل والتقط العلبة. كانت المفصلات تطلق والجوانب المعدنية محنية إلى الخارج تحت غطاء الجلد الصناعي للعبة، كان في وسع ماتيو تقويمها وإعادةتها إلى ما كانت عليه، لكن القس دوو فضل أن يفكر على النحو التالي: «لكل شيء أجل». كانت هذه اللعبة قد جاءت قبل إحدى عشرة سنة. وكان ملخص حياتها بشكل مختصر كالآتي: بعد ظهر يوم مشمس كان قد اشتراها من شارع جانبي ضيق في هافانا؛ وسنوات الانشغال في تلال البرازيل الجنوبية؛ وقتما أسقطت اللعبة عندما كان في شيلي، وبها النظارة الشمسية، خارج نافذة الحافلة، وكيف خرج جميع من بالحافلة لمساعدته في البحث عنها، وسنوات الإحباط في شيكاغو عندما كان يتركها لسبب ما في درج منضدة الكتابة معظم الوقت ويحمل نظارته في جيب معطفه دونها وتذكر بعض قصاصات الصحف التي كان يحتفظ بها في اللعبة، والعديد من شرائح الورق التي دوّن فيها على

عجل أفكارا مختصرة. نظر إلى أسفل تجاهها بعطف، وراح يفكر: «والآن هذا هو المكان والزمان، وتلك هي ظروف انقضاء أجلها». لسبب ما كان سعيدا لمشاهدته لهذا الموت؛ كان من المريح له أن يعرف بالضبط كيف أنهت اللعبة وجودها. لا يزال ينظر إليها بحزن للحظة. ثم قذف بها بقوة في الهواء المشبع بالضباب الأبيض كما لو كانت الكارثة بالفعل في داخلها، مضى إلى الباب بخطى واسعة وإنجيله تحت ذراعه ومر بماتيو سريعا من دون أن ينبس بكلمة. لكن بينما كان يمضي إلى غرفته بدا له أن ماتيو قد نظر إليه بطريقة غريبة، كما لو كان يعرف شيئا ما و بانتظار أن يرى متى سيكتشفه القس، أيضا.

شعر القس عند عودته إلى حجرته الصغيرة الخائفة بمزيد من الحاجة الملحة إلى أن يكون وحيدا في الصقيع. فقام بتبديل حذائه، ثم أخذ عكازه وخرج في الضباب. في هذا الطقس كان هناك طريق وحيد سالك استخدمه، وكان هذا الطريق يفضي إلى الأسفل خلال القرية. خطى إلى الأمام فوق الأحجار بحذر شديد، وكان بإمكانه في كل مرة أن يتبين الأرض أسفل قدميه والمكان حيث يضع طرف عكازه، أما في ما عدا ذلك فقد كان البياض فقط في جميع الجهات. أثناء سيره، راح يتأمل، كان كمحاولة قراءة نص فيه حرف واحد فقط مرئي في كل مرة. كانت رائحة دخان الخشب حادة في الهواء الساكن.

واصل القس دوو طريقه ربما لمدة نصف ساعة، وكان يضع بعناية إحدى قدميه قبل الأخرى. الفراغ من حوله، وعدم القدرة على رؤية كل التفاصيل المرئية، بدلا من أن يعمل على تشييط

تفكيره، أصابت قدرته على الفهم بالتبلد، كان تقدمه فوق الأحجار شاقا لكنه مريح بشكل غريب من بين الأفكار القليلة التي خطرت في باله بينما كان يتقدم في سيره أنه سيكون من المريح له المرور خلال القرية من دون أن يلاحظه أحد، وبدا له أنه ربما ينجح في ذلك، لكي يكون مرثيا حتى من مسافة عشرة أقدام، في إمكانه السير بين الأكواخ وسماع بكاء الأطفال، وعندما يصل إلى الجانب الآخر لن يعرف أحد أنه كان هناك. لم يكن متأكدا إلى أين سيمضي بعد ذلك، أصبح الطريق فجأة أكثر وعورة ومضى في هبوط متعرج بطول الوادي المنحدر بشدة، وصل إلى النهاية قبل أن يرفع رأسه ولو لمرة واحدة. «آه» قال، ووقف ساكنا. كان الضباب الآن فوق رأسه، لون رمادي كبير وعريض مُبطن بسحاب، رأى الأشجار التي تقف من حوله وسمعها تقطر ببطء في كورس مهيب، غير منتظم فوق أوراق الكوكا العريضة أسفلها.

«ليس هناك مكان مثل هذا في الطريق المفضي إلى القرية»، فكر القس. كان متضايقا بدرجة أقل، لكنه كان مذهولا بدرجة أكبر، لأن يجد نفسه واقفا بجانب هذه الأشجار التي بدت مثل الأفيال وكانت أكبر من أي أشجار أخرى رآها في المنطقة. استدار بشكل تلقائي في الطريق وبدأ صعود المنحدر إلى جانب المشهد الحزين الذي كان يبعث على الحزن الشديد، الذي أصبح الآن مرثيا له، كان الضباب هناك في الأعلى يبعث على الراحة والحماية. توقف للحظة ليحدق إلى الوراء حيث جذوع الأشجار البدينة الشائكة وكتلة النباتات المختلطة من تحتها. وقد جعله صوت خفيض قادم من الوراء يدير رأسه.

كان هناك هنديان يهرولان إلى أسفل الطريق نحوه، وعندما اقتريا منه توقفا ونظرا إليه بنوع من الرجاء على وجهيهما الصغيرين الداكنين لدرجة أن القس دوو اعتقد أنهما كانا سيشرعان في التحدث إليه. بدلا من ذلك تقدم أحدهما مصدرا صوت متممة ثم أشار إلى الآخر أن يتبعه. لم يكن هناك طريق للالتفاف من حول القس، لذا لامساه بشدة بينما كانا يمران به. ومن دون أن ينظر أحدهما إلى الوراء أسرعوا إلى أسفل واختفيا بين أوراق الكوكا الخضراء.

أثار هذا السلوك المستهجن من جانب الهنديين فضول القس بشكل غير واضح؛ وقرر في اندفاع أن يجد تفسيراً لهذا. فمضى في أثرهما.

وسرعان ما وصل إلى ما وراء البقعة التي كان قد عاد منها منذ لحظة. كان في الغابة، وكانت رائحة النبات غير محتملة بالمرة - رائحة النباتات الحية والميتة في عالم يتزامن فيه النمو البطيء، والموت البطيء، ويتلازمان. توقف لمرة وأصاخ السمع لوقع الأقدام. كان من الواضح أن الهنديان قد جريا أمامه؛ ومع ذلك استمر في طريقه. ونظرا إلى أن الطريق كان وعرا إلى حد كبير وبشكل طاع، فقد كان يحتك بين الحين والآخر بجزء لولبي لنبات متدل أو بفرع بارز.

كانت الأشجار المنتصبة والكرمات المفترشة تعطي انطبعا بالوقوع في أسر آلة جبارة غاضبة شكلت تتابعا مملا من لوحات حية معذبة. بدا الأمر كما لو كان في تلك اللحظة، بينما كان يراقب، أن المعركة اليائسة للهواء قد تم إيقافها وأنها سوف

تستأنف فقط عندما يدير رأسه. عندما نظر، قرر أنها كانت بالضبط هذه الخاصية المشكوك فيها للسرية هي التي جعلت المكان مثيرا للقلق. من حين إلى آخر، عاليا فوق رأسه، كانت تحوم فراشة حمراء قانية في الظلمة من جذع شجرة إلى آخر. كانت كلها متشابهة؛ فبدا له أنها لا بد وأنها كانت دائما من صنع الحشرة نفسها، فقد مر مرار عديدة بعمل نسجي أبيض متصالب لشبكات عنكبوتية ضخمة منبسطة بين النباتات مثل بوابات على حائط داكن في الخلفية. لكن جميع الشبكات بدت غير مأهولة. لا تزال قطرات المياه الكبيرة، البطيئة تواصل سقوطها من أعلى، وحتى لو كانت تمطر بغزارة، فلن تبتل الأرض.

كان القس يعاني من «اللابؤرية»، ونظرا إلى أنه قد بدأ يصاب بالدوار من جراء مراقبته للعديد من التفاصيل، فقد أبقى عينيه مثبتتين مباشرة إلى الأمام بينما كان يسير، وكان يحيد بتحديقته فقط عندما كان يتحتم عليه تجنب النباتات الحية التي تنمو في عرض الطريق. استمرت أرضية الغابة في انبساطها. أدرك فجأة أن الهواء من حوله كان يردد وقع أصوات واهنة، وقف ساكنا وتعرف على ذلك الخريز المتقطع الذي يصنعه جدول عميق من وقت إلى آخر كلما تحرك الماء بين ضفتيه. في التو تقريبا كانت المياه أمامه مباشرة، سوداء وعريضة، ومع أخذ قربه في الاعتبار، فقد كان ينساب في هدوء معقول. قبل الجدول بخطوات قليلة كانت شجرة كبيرة ميتة، مغطاة بفطريات برتقالية، ملقاة في عرض الطريق. تتبعت النظرة السريعة للقس الجذع إلى جهة اليسار، على الطرف الصغير، المواجه له، كان

الهنديان يجلسان. وكانا ينظران إليه باهتمام، فأدرك أنهما كانا بانتظاره. مضى إليهما، وقام بتحيتهما. رداً بوقار، ولم يديرا عيونهما اللامعة عن وجهه.

كما لو كانا قد تدربا على ذلك، نهض الاثنان في نفس اللحظة وسارا إلى حافة الماء، حيث وقفا ينظران إلى أسفل، ثم ألقى أحدهما بنظرة على القس في الخلف وقال ببساطة، «تعال» بينما كان القس يشق طريقه بين جذوع الأشجار المقطوعة رأى أنهما كانا يقفان بجانب طوف (رمث) طويل من الخيزران كان مسحوبا إلى الضفة الطينية. قام الهنديان برفع الطوف وإسقاط مؤخرته في الجدول.

«إلى أين تذهبان؟» سأل القس. لكي يجيباه رفعا كل منهما ذراعه الأسمر القصير معا وأشارا بهما ببطء في اتجاه التيار. مرة ثانية قال الشخص الذي تكلم من قبل، «تعال». القس، الذي استثير فضوله، نظر بارتياح إلى الطوف الهش، وعاد ببصره مرة ثانية إلى الرجلين وفي الوقت نفسه شعر بأنه سيكون من اللطيف أن يركب معهما بدلا من العودة خلال الغابة.

سأل ثانية بصبر نافذ، «إلى أين تذهبان؟ إلى تاكيت؟» «إلى تاكيت»، رد الشخص الذي لم يتكلم حتى هذه اللحظة.

«هل الطوف قوي؟» تساءل القس، وهو ينحني ليضغط قليلا على قطعة الخيزران، كان هذا فقط مجرد فعل شكلي من جانبه؛ فقد كان عنده إيمان قوي بقدرة ومهارة الهنود البارعة في استخدام خامات الغابة وإتقانها.

«قوي»، قال الأول. «تعال»، أضاف.

ألقى القس بلمحة على الغابة في الخلف، تسلق إلى داخل الطوف، وجلس عاقدا ساقيه على قاع وفي مؤخرة الطوف قفز الاثنان على متن الطوف الصغير الضعيف ودفعاه بعيدا من الضفة بوساطة قصبية طويلة.

ثم بدأت الرحلة التي تأسف القس دوو - في التو تقريبا - على شروعه فيها، حتى عندما انطلق ثلاثتهم إلى الأمام في سرعة شديدة، تمنى عند أول انعطافة في الجدول، لو كان قد بقي حيث كان، وحيث يمكنه أن يسرع في طريق عودته، وأن يكون في هذه اللحظة في طريقه إلى أعلى جانب الوادي. وبينما أسرعوا إلى أسفل في الممر المائي واصل القس لوم نفسه على تسرعها وإقدامها من دون أن يعرف السبب. عند تعاقب كل منحى في مسلك يشبه النفق، كان يشعر بأنه أكثر بعدا من العالم. وجد نفسه يقاوم - في جهد مضحك سخيف - كبح جماح الطوف: الذي كان ينزلق بعيدا في سهولة شديدة على طول صفحة المياه السوداء. بعيدا من العالم، أم أنه كان يقصد بعيدا من الرب؟ منطقة مثل هذه بدت خارج نطاق سلطة الرب. عندما وصل إلى تلك الفكرة أغلق عينيه. كانت سخافة أو عبثية مستحيلة بشكل جلي - في جميع الأحوال، غير مقبولة - رغم ذلك فقد خطرت له وبقيت في عقله. «الرب معي دائما»، قال لنفسه في صمت، لكن العبارة لم يكن لها تأثير. فتح عينيه بسرعة ونظر إلى الرجلين. كانا في مواجهته، لكن كان عنده انطباع بأنه غير مرئي لهما؛ يمكنهما فقط رؤية الموجات السريعة التي كان

الطوف يصنعها وراءه على صفحة المياه، والسقف المقوس غير المنتظم للنباتات التي مروا تحتها.

أخذ القس عصاه من المكان الذي كانت ملقاة فيه، وأوماً بها كما لو كان يسأل: «إلى أين نمضي؟» أشار كلاهما مرة ثانية بشكل غامض في الهواء، من فوق كتفيهما، كما لو أن السؤال لا أهمية له، ولم يتغير التعبير الذي ارتسم على وجهيهما وكان يشمئز من كل شجرة أخرى تتجاوزهم، غمر القس عصاه بطريقة آلية في المياه، كما لو كان يعتقد أن ذلك سيوقف الاندفاع الأمامي الثابت للطوف، سحبها على الفور ووضعها وهي تقطر في قاع الزورق حتى ذلك الاتصال المتكرر بالجدول الداكن كان غير سار له، حاول أن يقول لنفسه إنه لم يكن ثمة سبب لانتهياره الروحي المفاجئ، بيد أنه في الوقت نفسه كان في إمكانه الشعور بالنسيج الغائر الموغل لأعماق وعيه في عملية مريحة، كانت الرحلة المنطلقة في اتجاه التيار شيئاً بشعا بغيضا مطلق سراحه، وناضل القس ضد التيار بكل قوته. «سامحني، يا إلهي، لأنني أتركك هكذا ورائي سامحني لتركك وراء ظهري». كانت أظفاره تضغط في بطن راحة يده وتكاد تنغرس بينما كان يصلي. وهكذا جلس في صمت يتعذب عذابا شديدا بينما كانوا ينزلقون إلى الأمام خلال الغابة بعيدا إلى داخل بحيرة عريضة حيث أصبحت السماء الرمادية مرئية مرة ثانية. مضى الطوف في ذلك المكان ببطء أكثر بكثير، وبأيديهما دفعه الهنديان برفق نحو الشاطئ حيث المياه الضحلة. ثم دفعه أحدهما إلى الأمام بقصبة الخيزران. لم يلحظ القس المساحات الهائلة التي كانت تغطيها زهرة الياقوتية

التي مروا خلالها، أو الصوت الناعم الذي تصنعه عند احتكاكها بالطوف. هنا في الخارج أسفل السحاب المنخفض المعلق كان هناك صراخ عرضي لطائر أو حفيف مفاجئ في العشب العالي عند حافة المياه لا يزال القس غارقا في ذاته، يشعر، عوضا عن أن يفكر، «حدث الآن وانتهى. لقد عبرت إلى أرض أخرى». وظل مشغولا جدا في عمق بهذا الإحساس العاطفي الحقيقي لدرجة أنه لم ينتبه عندما بلغوا جرفا عاليا ينتصب بشكل عمودي من البحيرة، ولا عندما وقفوا في رمال خليج صغير على أحد جوانب المنحدر، عندما نظر إلى أعلى وجد الهنديين واقفين في الرمل، كان أحدهما يقول، «تعال» لم يساعدها للنزول إلى الشاطئ، فعل هذا ببعض الصعوبة، رغم أنه لم يكن واعيا بشيء.

بمجرد أن وطئ اليابسة قاداه على امتداد الطريق المنحدر الذي ينحني بعيدا من المياه. متتبعين طريقا متعرجا مطروقا خلال شجيرات من تحت أشجار خرجوا جميعا في نفس الوقت وفجأة تحت سفح الحائط الصخري.

كان هـاك كهفان - كهف صغير مفتوح جهة اليسار، وآخر أوسع وأعلى جهة اليمين. توقفوا خارج الكهف الصغير. «ادخل»، قالوا للقس. لم يكن الكهف مضيئا بشكل جيد في الداخل، وكان مستوى الرؤية قليلا جدا. ظل الاثنان عند المدخل. «إلهك يعيش هنا»، قال أحدهما «تحدث إليه».

كان القس على ركبتيه. «يا إلهي، اسمع صوتي. دع صوتي يصلك. أسألك باسم يسوع... كان الهندي يصرخ فيه، «تحدث بلغتنا». بذل القس جهدا، وبدأ يردد التضرع باللهجة المحلية.

كانت هناك مهممات استحسان في الخارج. كان التركيز مطلوباً كي يترجم أفكاره إلى اللغة التي لا تزال غريبة مما تطلب تصفية ذهنه بعض الشيء. وكان اجتماع هذه الصلاة وتلك قد أتاح له مساعدة وعونا لاحتشاده من الداخل كي يستعيد هدوءه. وبينما واصل التحدث، دائماً من دون اهتزاز أو تردد يذكر، شعر باندفاع عظيم من القوة يجتاحه ويغمره. رفع رأسه بثقة واستمر في الصلاة، كانت عيناه مثبتتين على الحائط أمامه. في نفس اللحظة سمع الصراخ. «ميتزابوك يسمعك الآن. قل له المزيد». توقفت شفتا القس عن الحركة، ورأت عيناه للمرة الأولى اليد الحمراء المرسومة أمامه على الصخرة، والفحم، والرماد، وبتلات الزهور والملاعق الخشبية هنا وهناك. لكن الإحساس بالرعب لم يملكه، كان ذلك الإحساس قد تبدد. كان الشيء المهم الآن أنه بدا شاعراً بالقوة والسعادة. كانت حالته الروحية الحقيقية مادية أيضاً. قيامه بالصلاة لميتزابوك كان حقيقة أيضاً، بالطبع، لكن استهجانه لهذا كان بشروط عقلية تماماً ومن دون أعمال للفكر، قرر أن العفو سيأتي عندما يطلبه من الله.

ولإرضاء المراقبين خارج الكهف أضاف بضع عبارات اصطلاحية إلى صلاته، ثم نهض، وخرج إلى الضوء. لاحظ لأول مرة حيوية معينة على سمات الرجلين الصغيرين. قال أحدهما، «ميتزابوك سعيد جداً». ثم قال الآخر، «انتظر». وعندئذ أسرع كلاهما إلى أكبر مدخل في الفتحتين واختفيا بداخله وجلس القس فوق صخرة، وأراح ذقنه على يده المسكة برأس عصاه. كان لا يزال مغموراً بإحساس انتصار غريب لاستعادته لنفسه.

سمعهما يتمتزمان لمدة ربع ساعة أو نحو ذلك داخل الكهف، الآن خرجا، لا يزالان يبدوان شديدي الجدية. حرّكه الفضول، فخطر القس بسؤال، قال وهو يشير إلى الكهف الكبير بإصبعه، «هل هاشاكيوم يعيش هناك؟» فأكد كلاهما ذلك، أراد أن يمضي إلى ما هو أبعد ويسأل إن كان هاشاكيوم قد أبدى استحسانا لتحدثه مع ميتزابوك، لكنه شعر أن السؤال سيكون وقحا، إلى جانب، أنه كان موقنا أن الجواب سيأتي بالإيجاب.

عادوا إلى القرية في المساء، بعد أن ساروا طول الطريق. كانت خطوة الهنديين أسرع إلى حد كبير عن خطوة القس دوو، وقد توقفوا لمرة واحدة فقط لتناول بعض السبوتات^(٢٢) التي وجدوها أسفل الأشجار، طلب القس منهما أن يصحباه إلى بيت نيكولاس، كانت تمطر قليلا عندما وصلوا إلى الكوخ. جلس القس في المدخل تحت إفريز متدل من الخيزران. شعر بإنهاك شديد، كان يوما من أكثر الأيام المتعبة في حياته، ولم يكن بعد في البيت.

فر رفيقاه عندما ظهر نيكولاس، من الواضح أنه كان يعرف بالفعل بزيارة الكهف، بدا للقس أنه لم يسبق له رؤية وجهه المملوء بالتعبير أو السرور الشديد. «أهلا، أهلا»، قال نيكولاس بالإسبانية. «جيد، جيد. يجب أن تأكل وتنام».

بعد وجبة الفاكهة وكعك الذرة الصفراء، شعر القس بالتحسن. كان الكوخ مملوءا بدخان الخشب من نار كانت موقدة في أحد الأركان واستلقى في الأرجوحة الواطئة التي كانت مارتا الصغيرة،

(٢٢) زعرور أمريكي - المترجم.

تجذب منها خيطا بشكل عرضي من حين إلى آخر، وبقي محافظا على الأرجحة اللطيفة وكان يغالب رغبة في النوم، لكن يبدو أن مضيفه كان في حالة مزاجية منفتحة وغير متحفظة، رآها القس فرصة وأراد أن ينتهزها. وبينما كان على وشك التحدث، اقترب نيكولاس، حاملا صندوق بسكويت صفيحي صدئ. ثم قال في صوت خفيض وهو مقرص بجانب الأرجوحة: «سوف أطلعك على أشياء»، كان القس مبتهجا، هذه البداية تعرب عن درجة عالية من الود. فتح نيكولاس الصندوق وأخرج مربعات من القماش المطبوع بمقاس عينات، وقارورة قديمة لأقراص الكينين^(٢٣)، وقصاصة بالية من صحيفة، وأربع عملات معدنية نحاسية. أعطى القس وقتا ليفحص كلا منها بعناية. في قاع الصندوق كان هناك عدد لا بأس به من الريش البرتقالي والأزرق لم يهتم نيكولاس بإخراجه. أدرك القس أنه كان يطلعه على كنوز العائلة. نظرا إلى أن هذه الأشياء كانت نماذج نادرة من الفن. نظر القس إلى كل شيء بجدية وتوقير وهو يعيد كل شيء إلى مكانه مع تعبير لفظي يعبر من جانبه عن الإعجاب والتقدير. وفي النهاية قال: «أشكرك»، واستلقى ثانية في الأرجوحة الشبكية، أعاد نيكولاس الصندوق إلى امرأة كانت تجلس في الركن. وعندما رجع إلى القس قال: «سوف ننام الآن».

«نيكولاس، هل ميتزابوك سيئ؟» سأل القس.

«نعم، يا سيدي. هو في بعض الأحيان سيئ جدا. مثل طفل صغير. عندما لا يحصل على ما يريد على الفور، يشعل النار،

(٢٣) الكينين: مادة قلووية شديدة المرارة وتعالج بها الملاريا - المترجم.

ويرسل الحمى، ويشعل الحروب. بوسعه أن يكون جيدا جدا، كذلك، عندما يكون سعيدا. يجب أن تتكلم معه كل يوم. وعندئذ ستعرفه». «لكنكم لا تتحدثون معه أبدا».

«بلى، تحدثنا. كثيرون فعلوا، عندما كانوا مرضى أو تعساء، سألوهم أن يصرف عنهم المشكلة. لم يسبق لي التحدث معه»، بدا نيكولاس مسرورا، «لأن هاشاكيوم صديقي الحميم وأنا لست في حاجة إلى ميتزابوك. بالإضافة إلى أن، بيت أو معبد ميتزابوك يبعد ثلاث ساعات سيرا على الأقدام. في إمكاني التحدث مع هاشاكيوم هنا». عرف القس أنه كان يقصد المذبح الصغير في الخارج. فأومأ له القس ثم راح في سبات عميق.

كانت القرية في الصباح الباكر عبارة عن فوضى من الأصوات الصاخبة: كلاب، وبيغاوات، وككتوهات^(٢٤)، وأطفال رضع، وديوك رومية. كان القس لا يزال راقدا في أرجوحته منصتا لفترة قصيرة قبل أن يتم إيقاظه فعلا من جانب نيكولاس قائلا له:

«يجب علينا الذهاب الآن، يا سيدي، فالجميع في انتظارك».

نهض القس جالسا. منزعجا بعض الشيء وصاح متسائلا: «إلى أين؟».

«إنك سوف تتحدث وتدير الموسيقى اليوم».

«نعم، نعم». كان قد نسي تماما أنه كان يوم الأحد.

كان القس صامتا، وهو يسير إلى جوار نيكولاس إلى أعلى الطريق حيث الإرسالية. تبدل الطقس، وكانت شمس البكورة

(٢٤) بيغاوات ذات عرف - المترجم.

شديدة اللمعان، «لقد تحصنت بتجربتي»، كان يفكر. كان رأسه صافيا، شعر بصحة وعافية بشكل مدهش. أعطاه الإحساس غير المعتاد بالحماسة حينما غريبا لأيام شبابه «لأبد أنني شعرت بمثل هذا وقتها. أنني أتذكر هذا الشعور»، فكر.

كان الحشد عظيما عند دار الإرسالية - المزيد من الناس، أكثر من هؤلاء الذين رأهم حاضرين موعظته من قبل في تاكيت. كانوا يتحدثون في هدوء، لكن عندما ظهر هوونيكولاس كان هناك صمت فوري. كان ماتيو يقف في السرادق في انتظاره، والفونوغراف مفتوحا. أدرك القس في ألم أنه لم يجهز الخطبة لحاضريه. دخل إلى البيت للحظة، وعاد وجلس إلى المنضدة في السرادق، حيث التقط إنجيله. كان قد ترك ورقة ملاحظاته القليلة في داخل الكتاب، لذلك انفتح على المزمور الثامن والسبعين. «سأقرأ عليهم هذا»، قرر. استدار إلى ماتيو. «شغل الأسطوانة^(٢٥)»، قال: وضع ماتيو أسطوانة «إيقاع مجنون». قام القس بإجراء بضعة تعديلات سريعة بالقلم الرصاص في نص المزمور، فاستبدل أسماء لآلهة محلية صغيرة، مثل سوكان وسيبانا، بأسماء مثل يعقوب وإفرايم، وأسماء أماكن محلية بإسرائيل ومصر، وكتب كلمة هاشاكيوم في كل مرة ظهرت كلمة الرب أو الإله. لم يكن قد انتهى عندما توقفت الاسطوانة. «أدريها ثانية»، قال آمرا. كان الجمهور مبتهجا، على الرغم من أن الصوت كان خشنا وله صرير بشكل سيئ. عندما انتهت الموسيقى للمرة الثانية، وقف وبدأ التلاوة بإعادة صياغة المزمور في صوت واضح. «بنو سيبانا، النازعون

(٢٥) وردت بالإسبانية - المترجم.

في القوس، الرامون، انقلبوا في يوم الحرب. لم يحفظوا عهد هاشاكيوم، وأبوا السلوك في شريعته». تكهرب الجمهور. بينما تحدث، كان ينظر إلى أسفل فرأى الطفلة مارتا تحديق فيه. وقد تركت تمساحها الصغير يمضي، كان يزحف بسرعة مدهشة نحو المنضدة حيث جلس. كوينتين، وماتيو، والجاريتان كانتا ترصان بلاطيات الملح على الأرض في أحد الجوانب. ثم تواصلان العودة إلى المنزل لجلب المزيد. أدرك أن ما كان يقوله بلا شك لم يكن له أي معنى من ناحية دين مستمعيه، لكنها كانت قصة إطلاق عنان الاستياء الإلهي من الشعب غير المقدس، وكانوا مستمعين بها بشكل بالغ. التمساح، وهو يجر أسماله، كان قد زحف بوصات قليلة إلى ما بين قدمي القس، حيث بقي ساكنا، قانعا بكونه بعيدا عن ذراعي مارتا.

في ذلك الوقت، بينما كان لا يزال يتحدث، بدأ ماتيو يوزع الملح، وسرعان ما كانوا جميعا يديرون ألسنتهم بطريقة إيقاعية على القوالب الكبيرة الخشنة، لكنهم واصلوا إعارة انتباههم الصارم لكلماته. عندما كان على وشك الانتهاء، أشار إلى ماتيو ليكون على استعداد لبدء تشغيل الاسطوانة في اللحظة التي سينتهي فيها، وعند الكلمة الأخيرة خفض ذراعا كإشارة، وبدأت اسطوانة «إيقاع مجنون» في الدوران مرة ثانية. بدأ التمساح يزحف بسرعة تجاه النهاية البعيدة للمنصة. انحنى القس دوو إلى أسفل والتقطه عندما سار إلى الأمام ليعطيه إلى ماتيو، نهض نيكولاس عن الأرض، وأخذ يد مارتا، ومضى بها إلى المنصة.

«سيدي»، قال، «ستعيش مارتا معك. سأعطيك إياها».

«ما الذي تقصده؟» صاح القس في صوت حاد بعض الشيء، وكان التمساح يتلوى في يده.

«إنها زوجتك. سوف تعيش هنا».

اتسعت عينا القس دوو اتساعا كبيرا، إذ لم يقو للحظة على قول شيء. ضرب بيده في الهواء وأخيرا قال «لا»، عدة مرات.

بدا وجه نيكولاس غير مسرور «ألا تحب مارتا؟»

«كثيرا جدا. إنها جميلة». جلس القس ببطء فوق كرسيه.

«لكنها لا تزال طفلة صغيرة».

تجهم وجه نيكولاس بصبر نافذ «إنها كبيرة بالفعل».

«لا، يا نيكولاس. لا. لا»

دفع نيكولاس ابنته إلى الأمام وتراجع خطوات عديدة، تاركا إياها عند المنضدة. «لقد انتهى الأمر»، قال بصرامة: «إنها زوجتك. لقد أعطيتها لك».

نظر القس دوو بعيدا إلى التجمع ورأى موافقة خفية على وجوههم. توقفت «إيقاع مجنون» عن الدوران. كان هناك صمت. رأى امرأة أسفل شجرة المانجو تلعب بشيء صغير، لامع. تعرف فجأة على علبة نظارته؛ كانت المرأة تنزع النسيج الجلدي عنها. التمع الألومنيوم العاري بانبعاجاته في الشمس. لسبب ما حتى في وسط موقف كهذا وجد نفسه يفكر: «إذن أنا على خطأ. هذه العلبة لم ينته دورها بعد. سوف تحتفظ بها، بالطريقة نفسها التي احتفظ بها نيكولاس بأقراص الكينين».

نظر إلى مارتا في الأسفل كانت الطفلة تحقق فيه تماما من دون تعبير «مثل قطة»، قالها وهو يفكر.

بدأ يحتج ويعترض ثانية: «نيكولاس»، صرخ، صوته عال جدا، «هذا مستحيل!»

أحس بيد تمسك بذراعه، واستدار ليتلقى لمحة تحذيرية من ماتيو.

تقدم نيكولاس بالفعل نحو المنصة، وجهه مثل السحاب المرعد. وبينما كان على وشك التحدث، قاطعه القس بسرعة، كان قد قرر المماثلة، «ربما تبقى في بيت الإرسالية اليوم»، قال في وهن. «إنها زوجتك»، قال نيكولاس بإحساس عظيم: «لا تستطيع إرسالها بعيدا. يجب أن تبقئها».

«قل له ما يفيد الموافقة»^(٢٦)، كان ماتيو يهمس: «قل نعم، يا سيدي».

«نعم»، سمع القس نفسه يقولها، «نعم حسن» نهض وسار ببطء إلى البيت، حاملا التمساح بيد واحدة ودافعا مارتا أمامه باليد الأخرى. تبعه ماتيو وأغلق الباب وراءه. «خذها إلى المطبخ، يا ماتيو»، قال القس بتبرم، معطيا الزاحف الصغير إلى مارتا، بينما كان ماتيو يمضي عبر الساحة ساحبا الطفلة من يدها، نادى القس عليه:

«اتركها مع كوينتينا وتعال إلى غرفتي».

جلس على حافة سريره، يحدق أمامه مباشرة بعينين غافلتين. بدا له مأزقه في كل لحظة أكثر صعوبة وفضاعة. بارتياح سمع

(٢٦) وردت بالإسبانية - المترجم.

طريقة ماتيو، كان الناس في الخارج يرحلون في بطاء. تطلب الأمر مجهودا ليصيح بالإسبانية قائلا، «تعال». وعندما دخل ماتيو، قال له القس، «أغلق الباب».

«ماتيو، هل كنت تعرف أنهم في سبيلهم لعمل هذا؟ أنهم كانوا سيحضرون تلك الفتاة إلى هنا؟»

«نعم، يا سيدي».

«كنت تعرف هذا! لكن لم تقل أي شيء لي؟ لماذا لم تخبرني؟»

هزّ ماتيو كتفيه، ناظرا إلى الأرض. «لم أكن أعرف أن الأمر مهم بالنسبة إليك»، قال. «على أي حال، كان من الممكن ألا تكون له أهمية»، أضاف.

«لا أهمية له؟ كيف؟ كان عليك أن توقف نيكولاس»، قال القس، رغم أنه لم يكن مصدقا نفسه في ما كان يقوله.

ضحك ماتيو ضحكة قصيرة، «هل تعتقد هذا؟»

«ماتيو يجب عليك أن تساعدني، يجب أن تجبر نيكولاس على استعادتها».

هزّ ماتيو رأسه ثم قال، «لا يمكن أن يحدث ذلك. هؤلاء الناس صارمون ومتزمتون جدا. إنهم لا يغيرون قوانينهم».

«ربما رسالة إلى مدير الإرسالية في أوكوسينجو...»

«كلا، يا سيدي. سيجعل هذه المشكلة قائمة أكثر. أنت لست كاثوليكية». أراح ماتيو إحدى قدميه ووقف على الأخرى ثم ابتسم فجأة بشكل رقيق قائلا، «لَمْ لا تدعها؟ إنها لا تأكل كثيرا. في إمكانها أن تعمل في المطبخ. ستصبح جميلة جدا في غضون عامين».

قفز القس، وصدرت عنه إشارة واسعة وعنيفة من يديه،
لدرجة أن الناموسية، انعقدت فوق رأسه، وسقطت تقريبا فوق
وجهه وساعده ماتيو في تخليص نفسه. كان الهواء به رائحة
غبار من الناموسية.

«إنك لا تفهم شيئا!» صاح القس دوو، وقد خرج عن طوره.
«أنا لا أرغب في التحدث معك! اخرج واتركني بمفردي» وبطاعة
ترك ماتيو الغرفة.

وهو يضرب راحة يده اليسرى بقبضته اليمنى، مرارا وتكرارا،
وقف القس في نافذته أمام المنظر الطبيعي الذي كان مشرقا في
الشمس الساطعة. لا تزال قلة من النسوة أسفل شجرة المانجو،
والباقيات عدن إلى أسفل التل.

ظل مهدا في سريره طوال فترة ما بعد الظهر. عندما
حل الشفق كان قد اتخذ قراره. أغلق بابه، وشرع في حزم
الاحتياجات الشخصية الضرورية التي في إمكانه تعبئتها في
أصغر حقيبة سفر عنده. إنجيله ودفتره وضعهما في المقدمة
مع فرشاته وأقراص الأبترين^(٢٧)، وعندما جاءت كوينتينا لتخبره
بحلول موعد العشاء طلب منها أن تجلبه إلى سريره، ومن باب
الحذر دسّ الحقيبة المجهزة في الدولاب قبل أن يفتح لها الباب
لتدخل. انتظر حتى توقف الكلام في جميع أنحاء البيت، إلى أن
عرف أن الجميع قد ناموا. وبحقيبة صغيرة ليست ثقيلة جدا
في يد واحدة مضى على رؤوس أصابعه إلى الساحة، إلى الخارج
عبر الباب في أريج الليل، عبر الساحة المفتوحة أمام السرادق،

(٢٧) نوع من الكينين - المترجم.

تحت شجرة المانجو وإلى عمق الطريق المؤدي إلى تاكيت. ثم أخذ يمشي بسرعة، لأنه أراد اجتياز القرية قبل أن يبيغ ضوء القمر.

كانت جوقة من الكلاب تنبح بينما دخل في شارع من شوارع القرية. فبدأ يركض، مباشرة صوب الطرف الآخر من الشارع. بل واصل الركض بعد ذلك، إلى أن وصل مكانا حيث أصبح الطريق، أوسع فيه، ومنخفضا إلى أسفل التل ومنحنيا نحو الغابة. كان قلبه يدق بسرعة من الإجهاد ولكي يرتاح، ويحاول التأكد من أنه لم يكن متبوعا بالمرّة، جلس فوق حقيبته الصغيرة في منتصف الطريق. بقي هناك وقتا طويلا، لا يفكر في شيء، في حين واصل الليل تقدمه وارتفع القمر. لم يسمع سوى صوت الريح الخفيفة بين الأوراق والتعريشات. فوقه مباشرة كانت قلة من الخفافيش تدور وتحوم، ذهابا وإيابا من دون صوت. في النهاية أخذ نفسا عميقا، ثم نهض، وواصل طريقه.

الصدى

وضعت إلين مرآتها جانبا؛ فاهتزاز الطائرة يرجها بسرعة شديدة لدرجة أنها لم تكن قادرة على أن ترى ما إن كان أنفها بحاجة إلى مسحوق أم لا. كان هناك راكبان آخران فقط وكانا نائمين. كان الوقت ظهرا؛ والشمس الاستوائية تلمع بشدة أسفل الجناحين الفضييين العريضين وتلقي بانعكاساتها الحادة على السقف. ومن النافذة كان منظر الأرض عبارة عن بساط من الخضرة المنتظمة يمر ببطء. كانت تشعر بالنعاس، لكنها كانت مستثارة جدا لكونها ذاهبة إلى البيت الجديد. أخرجت من حقيبة يدها الخطاب المطوي الذي راحت تقرأه للمرة الثانية عن قصد، كما لو كانت تحاول فك الشفرة التي لم تكن مضمنة في الكلمات المتتابة. كان الخطاب بخط والدتها:

إلين - حبيبتي..

يجب عليّ أن أبدأ هذا «وأنهيه» قبل العشاء. خرجت بروو لتأخذ حمامها، وذلك يعني أنها في تلك الأثناء ستجعل لوز (الطاهية) تقوم بتسخين المياه وسوف تعثر على جوزيه (البستاني) كي يحملها إلى السطح حيث الخزان، وسوف يستغرق هذا الأمر حوالي الساعة. هذا بخلاف الوقت الذي سيستغرقه الانتهاء من حمامها بالفعل وارتداؤها لملابسها، وهكذا ترين أنني سيكون عندي متسع من الوقت لمحادثة لطيفة.

ربما ينبغي عليّ أن أبدأ بقولي إنني وبروو هنا في قمة سعادتنا. إنها الجنة بالتأكيد مقارنة بواشنطن، بقدر ما يسعك أن تتخيلي

جيدا . بالطبع، بروو، لم تستطع أبدا البقاء في الولايات المتحدة، وقد شعرت أنا، عقب المشكلة التي نشبت مع والدك، بأنني لن أقدر على مواجهة أي شخص لفترة من الوقت. أنت تعرفين، إلى أي حد أنا مولعة بالراحة دائما. وهذا هو المكان المثالي لذلك. بالطبع شعرت بالذنب قليلا بسبب فراري إلى هنا من دون أن أراك. لكنني أظن أن الرحلة إلى نورثامبتون كانت من الممكن أن تقرر مصيري بشكل نهائي لا أعتقد بأمانة أنه كان بوسعي أن أجعل مصيري معلقا. كانت بروو عصبية بسبب إصدار الولاية لبعض القوانين الجديدة التي كانت ستمنع المواطنين من مغادرة الولايات المتحدة بسبب الأوضاع والظروف المضطربة، وغيرها من الأمور. وقد شعرت أنا أيضا أننا كلما أسرعنا بالمجيء إلى هنا في جامونوكال أمكننا تجهيز البيت القديم لأجلك كي تستطيعي قضاء إجازتك فيه. وأن هذا سيكون جميلا. أنا لن أسهب في سرد الأسباب الخاصة بي التي لم تجعلك على دراية مسبقة، وإلا ستبدو ذات نبرة تبريرية، وأنا أعرف أنني لست مضطرة أبدا للاعتذار لك عن أي شيء. لذلك سأترك هذا وأواصل خطابي. أنا واثقة على أي حال من أن الأشهر الثمانية الفائتة قد مرت سريعة جدا عليك هناك.

كانت عندنا حشود كبيرة من الرجال العاملين في البيت منذ أكتوبر الماضي. تصادف أن كان السيد فوربس موجودا في بررانكيليا^(٢٨) من أجل تنفيذ مشروع أمريكي جديد في الداخل، وقد أردت أن أتأكد من إشرافه على تشييد الدعامات

(٢٨) ميناء في شمال كولومبيا على نهر مكدينا - المترجم.

أو الكوابيل الحاملة للأساس. إن هذا الرجل أمير فعلا. فلم تكن الدعامات على درجة عالية من الجودة. وكان ينهض على قدميه مرة بعد الأخرى، ليصدر أوامر خاصة بأدق التفاصيل. لقد شعرت بالذنب لكوني قد جعلته يعمل بجهد شديد، لكنني أظن بأمانة أنه كان يشعر بالاستمتاع معنا نحن الفتيات. على أي حال فقد كان الأمر سيبدو من الحماسة، عندما يكون واحد من أفضل المهندسين المعماريين في الولايات المتحدة موجودا هنا في كولومبيا وأن يكون صديقا قديما، ولا أستعين به عندما أكون في حاجة إليه. على أي حال، البيت القديم أصبح الآن عبارة عن جناح قديم وجزء جديد، وذلك الجزء الجديد مثير جدا، لدرجة أنني لا أقوى على انتظاري لك كي تريه، فقد تم تشييده فوق الوادي العميق مباشرة. أعتقد أنه ليس من المرجح أن يكون هناك بيت في العالم مثل هذا البيت، إذا جاز لي أن أقول هذا بنفسى. إن التراس يجعلني أفكر في الرسم الكاريكاتيري الذي ظهر في «النيويورك» وكان فيه رجلان ينظران من فوق حافة الأخدود العظيم «الجراند كانيون»، ويقول أحدهما للآخر: «هل سبقت لك الرغبة في البصق لمسافة ميل، يا بيل؟ إنها فرصتك جرب حظك الآن».

لقد تمتعنا بالاستقرار جميعا. كان الطقس رائعا، فقط لو أمكن للوز أن تتعلم أكثر قليلا ما يحب الناس ذوو البشرة البيضاء أن يأكلوه وكيفية القيام على خدمتهم، فسيكون الوضع ممتازا فعلا. أعرف أنك سوف تستمتعين بوجودك هنا مع بروو، فلديكن أشياء كثيرة مشتركة، حتى لو زعمت أنك «لا تتذكرين كثيرا حبك لبروو».

كان هذا في واشنطن وكنت أنت، لنقولها بلطف واعتدال، في مرحلة سنية صعبة. الآن، كبالغة «لأنك بالفعل بالغة»، ستكونين أكثر قدرة على الاستيعاب، أنا واثقة من هذا. إنها تحب الكتب، خصوصا المتعلقة بالفلسفة وعلم النفس وموضوعات أخرى لا تحاول أمك المسكينة مجاراتها فيها قط. لقد قامت بتجهيز فرن واستوديو في الاستراحة القديمة التي ربما لا تتذكرينها. إنها تعمل هناك في صناعة وتشكيل الخزف الخاص بها طوال اليوم، وكل ما يسعني القيام به هو الإشراف على ترتيب البيت والتأكد من أن المشتريات قد تم إحضارها. لدينا نظام تقوم لوزوز بمقتضاه بأخذ القائمة إلى أخيها بعد كل ظهيرة، ليقوم بإحضار المشتريات من البلدة في اليوم التالي. هذا فقط لجعله مشغولا بشكل تام بصعود الجبل وهبوطه بحصانه، فالفرس عجوز وكسول لدرجة أنه لم يقيم طوال حياته بشيء سوى التهادي جيئة وذهابا بين البيت والوادي، ولذلك فإنه لا يعرف معنى كلمة سرعة. ومع ذلك، لماذا العجلة، هنا في هذه المنطقة الهادئة.

أعتقد أنك ستجدين كل شيء وفق هواك، أنا واثقة من أنك لن تستغرق أكثر من خمس دقائق كي تكتشفي أن بروو محبة ووديدة، وليست «غريبة الأطوار» على الإطلاق، مثلما كتبت أنت في رسالتك. أرسل لي برقية بمجرد أن تتسلمي هذه، ودعيني أعرف في أي أسبوع بالضبط سوف تنتهين من دروسك. سوف نقابلك أنا وبروو في بررانكيليا. لدي قائمة بأشياء أريدك أن تأتي لي بها من نيويورك. سوف أبرق لك بها بمجرد وصول ردك. انتهى حمام بروو، يجب أن أنهى الخطاب.

مع حبي، أمك وضعت إلين الخطاب جانبا، ثم ابتسمت قليلا، وأخذت تشاهد أجنحة الطائرة وهي تغوص في داخل وخارج السحب الكثيفة الممتدة في مسار الطائرة. كانت تحدث هزة خفيفة في كل مرة كانت تصطدم فيها بإحدى السحب، وقد أصبح العالم في الخارج شديد البياض. انتابتها رغبة في أن تقفز إلى الخارج وتسير فوق هذه الصلابة الناعمة، مثل شخصية في كرتون متحرك.

ذكرها خطاب أمها بفترة مبكرة جدا في حياتها، الشتاء الذي تم اصطحابها فيه لزيارة جامونوكال. كل ما كان بإمكانها تذكره فيما يتعلق بالأحداث أن أحد السكان المحليين قد وضعها فوق ظهر البغل، وأنها شعرت برعب مؤلم من أن يسير الحيوان في الاتجاه الخطأ، بعيدا عن البيت باتجاه حافة الوادي. لم تكن عندها أي ذكرى متعلقة بالوادي. ربما لم تره أبدا، على الرغم من أنه كان على بعد خطوات قليلة من البيت، عبر طريق قصير من أعواد الخيزران. مع ذلك، فقد كانت لديها ذكرى واضحة فيما يتعلق بوجوده، وكذلك الإحساس الكبير بالفراغ فيما وراء وأسفل ذلك الجانب من البيت. وتذكرت الصوت البعيد العميق المكتوم للمياه التي تسقط من ارتفاع كبير، وخلفية صوت المياه الثابتة الناعمة التي كانت تنزل في كل لحظة على مدار اليوم - خلال المناقشات التي كانت تتم أثناء تناول الطعام، وأثناء فترات اللعب في الحديقة، وفي الليل خلال الأحلام. تعجبت إن كان من الممكن فعلا أن تتذكر كل هذا منذ الفترة التي كان عمرها فيها لا يتجاوز الخامسة.

في بنما كان هناك تغيير لا بد منه في رحلة الطائرة. كان الشفق أخضر صافيا، قامت بنزهة قصيرة فيما وراء نطاق المطار. كانت بيفاوات الباراكيت تتعارك فوق الأفرع العلوية للأشجار، ثم هدأت فجأة. استدارت هي فجأة عائدة ومضت إلى الداخل، حيث جلست تقرأ حتى حان وقت المغادرة.

لم يكن هناك أحد في استقبالها عندما وصلت إلى بررانكيليا في الساعات المبكرة من الصباح. قررت الذهاب إلى البلدة وحجز غرفة في الفندق. مضت إلى الخارج بحقيبتى سفرها وبحث هنا وهناك عن سيارة أجرة. كانت سيارات الأجرة قد ذهبت جميعها إلى البلدة تحمل ركابا، لكن رجلا كان يجلس فوق أحد صناديق تعبئة البضائع أخبرها بأن سيارات الأجرة سوف تعود عما قريب. ثم قال فجأة: «هل تبحثين عن السيدتين؟»

«ماذا؟ لا، ما الذي تعنيه؟»

«هل تريدين السيدتين اللتين كانتا تبحثان عنك هذه الليلة؟»

«أين هما؟» قالت إلين وقد تفهمت.

«ذهبتا لتناول الشراب»، أجاب بابتسامة عريضة.

«أين؟ في بررانكيليا؟»

«لا. هنا». أشار إلى نهاية طريق مظلم.

«أين؟ هل بإمكانى الذهاب سيرا؟»

«بالتأكيد. سأذهب معك».

«لا شكرا. ابق هنا. شكرا لك. يمكننى المضي في سلام. أين

هذا المكان؟ وكم يبعد؟»

«أوكي».

«ما هذا ؟ هل هو بار ؟ ما اسمه ؟»

«إنهما تستمعان إلى الموسيقى في بار لا جلوريا هذا هو اسمه.
بإمكانك الذهاب، لكي تستمعي إلى الموسيقى. إنك تبحثين عن
سيدتين. إنهما تتناولان الشراب».

ذهبت إلى الداخل مرة ثانية وتركت الحقيبتين مع موظف
شركة الطيران الذي أصرّ على اصطحابها. هرولا في صمت
على امتداد الطريق الخلفي. كانت أسوار النباتات على كلا
الجانبين تؤوي حشرات كانت تصدر ضجة عرضية عنيفة ومملة
مثل ترس خشبي يدور. بعد فترة قصيرة كانت هناك أصوات
طبول وأبواق تعزف موسيقى رقص الكوبية.

«لا جلوريا»، قال مرافقها بابتهاج.

كان لا جلوريا عبارة عن كوخ طيني يلمع في تألق وله
شرفة مسقوفة بالقش تطل على الطريق. كان صندوق تشغيل
الأسطوانات (الجووك بوكس)^(٢٩) قد تم وضعه في الخارج، حيث
انتشرت قلة من الزنوج المخمورين.

«هل هما هناك ؟» قالت بصوت عال، لكن لنفسها.

«لا جلوريا»، أجاب، وهو يشير.

عندما أصبحتا قبالة واجهة المبنى، لمحت امرأة مرتدية الجينز
الأزرق، وعلى الرغم من أنها تعرفت عليها من فورها حيث كانت
بروو، فإن عقلها فشل لسبب ما في تقبل هذه الحقيقة، واستمرت
تسأل نفسها، «هل هما هنا أم لا ؟»

(٢٩) خزانة تختار منها أسطوانة أغان لتذيعها لك مقابل عملة معدنية توضع فيها - المترجم.

استدارت لتذهب نحو الشرفة. كانت الاسطوانة قد توقفت عن الدوران. كان هناك مصرف ممتد في الظلام بين الطريق والمدخل، وإذ بها تسقط فيه على الفور ثم سمعت نفسها وهي تصرخ. كان الرجل من خلفها قد صاح بالإسبانية قائلاً: «انتبهي!»، إلا أنها تمددت هناك بالفعل وهي تلهث في غضب وألم، وتصيح قائلة «آه! كاحلي!» كان هناك تعجب واندھاش داخل البار. ثم صاح صوت أمها قائلة: «آه، إنها إلين». وبعد ذلك بدأ صندوق الجووك في الصرير والصخب مرة ثانية. ظل الزنوج ساكنين تماماً. ساعدها شخص ما كي تنهض. كانت تجلس الآن داخل البار في وهج أضواء الكهرباء الحاد.

«أنا بخير»، قالت، عندما استراحت في الكرسي.
«لكن يا حبيبتي، أين كنت؟ كنا ننتظرك منذ الثامنة، وكنا على وشك أن نفقد الأمل. إن بروو المسكينة مريضة».
«هراء، سوف أتعافى»، قالت بروو، وهي لا تزال جالسة إلى البار. «بمجرد أن تتاح لي فرصة لالتقاط أنفاسي، هذا كل شيء».
«لكن هل أنت على ما يرام يا حبيبتي؟ إن وصولك إلى هنا بهذه الطريقة شيء سخييف وغير معقول»، ونظرت إلى كاحل إلين وسألتها:

«هل هناك مشكلة في الكاحل؟»

جاءت بروو من عند البار لتصافحها قائلة:

«ظهور درامي، يا فتاة».

كانت إلين جالسة هناك وهي تبتسم. كانت لها عادات عقلية غريبة. أقتعت نفسها عندما كانت طفلة أن ذهنها كان يتميز

بالشفافية والوضوح، لدرجة أن الأفكار الموجودة بداخله كان بإمكان الآخرين إدراكها على الفور. وبناء على ذلك، عندما كانت تجد نفسها في أوضاع غير مريحة، بدلا من المجازفة بخطر الارتياح في إضمارها لأفكار ازدرائية أو متمردة، قامت بتطوير نظام جديد للامتناع عن التفكير كلية لفترة ما. أثناء طفولتها امتد هذا الخوف من عدم قدرتها على امتلاك أي خصوصية ذهنية ليشمل جميع الأشخاص؛ وبصفة خاصة الأشخاص المتواجدين في نطاق قد يسمح لهم بالتدخل في رأيها. كانت تشعر الآن بالانفتاح على هؤلاء الموجودين فقط. لذلك عندما وجدت نفسها وجها لوجه مع بروو، كانت مدركة لعدم وجود عاطفة بعينها باستثناء الإحساس الغامض المألوف بالملل. لم تكن هناك فكرة في ذهنها، وكان وجهها خير معبر عن هذه الحقيقة الجلية.

كان الصباح في كل يوم يكرر نفسه بشكل يصعب تصديقه، التجدد الأزلي للبرودة المنسكبة إلى أسفل من الغابة فوق البيت، كان يجثم على مقربة من الأرض بفعل الضباب الخفيف. في الداخل والخارج، كان الجو رطباً وله رائحة تشبه أريج محال الزهور، ولكن الرطوبة كانت تنقشع كل يوم عندما تشتعل الشمس اللافتة عبر دثار الضباب الرقيق الذي يغلف ظهر الجبل. وكان العيش في هذا المكان أشبه بالعيش إلى اليمين أو اليسار، بسبب الأرض المترامية إلى أعلى على أحد الجانبين وإلى أسفل على الجانب الآخر بنفس الزاوية. كان الوادي العميق وحده الذي يعطي شعورا بالتعامدية أو الارتفاع وكانت الحوائط الصخرية

التي انتصبت في الجانب المقابل لهذا المدرج الواسع، كانت تذكر بأن اتجاه مركز الأرض إلى أسفل وليس مائلا بشكل ما إلى أحد الأجناب. كان البخار يتصاعد من بحيرة غير المرئية في عمق القاع بشكل مستمر، وكان صوت الماء الغامض القادم من بعيد مثل صوت خرير أو شخير النوم نفسه.

لبضعة أيام كانت إلين تستلقي في السرير وهي تستمع إلى صوت الماء والطيور، وإلى الأصوات السابحة في هذه البيئة الغريبة والقريبة. كانت بروو وأمها تتناولان الإفطار في السرير معها، وتظهران بصفة عامة قبل وجبة منتصف النهار مباشرة لعدة دقائق، وتتحدثان معها حتى تقوم كونتشا بإحضار صينية الغداء الخاصة بالعجزة والمقعدين من أجل إلين. في فترات بعد الظهر كانت إلين تقلب صفحات المجلات القديمة وتقرأ حوادث القتل. كانت الدنيا تمطر عادة حوالي الساعة الثالثة، وكان الصوت في البداية يأتي مثل تدفق متزايد لشلال عظيم على مسافة بعيدة، ثم يزداد عنف انهمار المطر حتى يصبح الصوت جليا وأكثر وضوحا وقريبا - وكان الهدير الصاخب حول البيت بأكمله يغطي على أي صوت آخر. كانت السحب الداكنة تخيم على المكان وتطوق الجبل بإحكام، إلى درجة أنه كان يبدو أن الليل سوف يحل في غضون وقت قصير. فتدق إلين جرسا صغيرا لتأتي كونتشا وتشعل المصباح الزيتي الذي فوق المنضدة المجاورة للسرير. وتظل مستلقية وهي تنظر إلى أوراق أشجار الموز المبتلة خارج النافذة، ولأن جلبة الأمطار كانت في كل مكان، فقد كانت تشعر بالراحة تماما عوضا عن

لحظة الخطر. لم تكن هناك ضرورة لاختبار الشعور، وليس ثمة حاجة للتفكير، فقط تراجع المطر، والظهور المبهج للشمس هي أبخرة الشفق، والعشاء المبكر هو ما كانت تتشوق إليه. كل مساء بعد العشاء كانت أمها تأتي للثرثرة لفترة طويلة، عادة بخصوص الخدم. في الليالي الثلاث الأولى كانت بروو تحضر هي الأخرى، وهي تحمل شراب الهاي بول^(٣٠)، لكن بعد ذلك كانت الأم تأتي وحدها.

طلبت إلين أن يتم نقلها إلى الجزء القديم من البيت، بدلا من وضعها في هذه الحجرة غير المريحة إلى حد بعيد في الجناح الجديد، حيث كانت نافذة حجرتها الأصلية تطل على الحديقة، والتي كانت عبارة عن مربع صغير من النجيل يحتوي على أشجار موز صغيرة في كل جانب منه. في الطرف البعيد كانت هناك نافورة؛ وخلفها كانت التضاريس غير المنتظمة لجانب الجبل بشجيراته المقطوعة حديثا والبقايا التي تم حرقها، وفي الخلف كانت الغابة العالية لا تزال هناك في البعيد وكان طرفها قد تم قطعه في شرائح مستقيمة بطول المنحدرات منذ سنوات بعيدة لإقامة المزرعة. على الأقل كانت تشعر هنا في حجرتها بأن الأرض موجودة تحتها في مكان ما.

عندما توقف كاحلها عن إيلاها، بدأت تنزل إلى الطابق الأسفل لتناول الغداء، الذي كان يقدم في التراس فوق مائدة مزودة بمظلة بحر مغروزة في منتصفها. كانت بروو تأتي متأخرة بشكل دائم من الاستديو الخاص بها، مرتدية الجينز الأزرق، الذي كان مغطى

(٣٠) شراب يخلط بالصودا أو الماء ويقدم مع الثلج في كأس طويلة - المترجم.

بالطين، وبلطخات قذرة على وجهها. ولأن إلين لم يكن بمقدورها أن تطاوع نفسها على التفكير فيما كانت تشعر به فعلا نحوها، وهو أن بروو كانت غير مهذبة، قبيحة ومتطفلة بعض الشيء، فقد ظلت غير واعية بشكل انفعالي بوجود بروو، بمعنى أنها كانت مهذبة لكن برمة وكان جودها نادرا أثناء محادثات الطعام. ثم إن إلين، أيضا، كانت تشعر بعدم الراحة تحديدا نحو التراس. فقد كان الفراغ قريبا جدا وبدا الدرايزين منخفضا جدا بمعنى الكلمة فيما يتعلق بالأمان. وقد فضلت أن يكون تناولها للوجبات بشكل مختصر قدر الإمكان، من دون إضاعة وقت لا لزوم له في ارتشاف القهوة بعد الطعام، لكن لم يخطر لها على الإطلاق أن تبوح بأسبابها. أما في ما يتعلق ببروو فقد كانت مكرهة على التصرف بأقصى ما أمكنها في حدود اللياقة والذوق. من حسن الحظ أن أتاح لها كاحلها عذرا مقنعا لتعود إلى غرفتها.

اكتشفت بعد وقت قصير فناء صغير مجاورا للمطبخ حيث كانت هناك أصص كبيرة تحوي على أزهار ذات رائحة جميلة نمت فوق تعريشة كانت موضوعة في أحد الأركان. كان الجو ممتلئا بطنين المئات من النحل الذي كان ملتصقا بكثافة إلى البتلات ويتحرك في الهواء ببطء هنا وهناك. بعد الغداء كانت تسحب كرسيها قابلا للطي إلى ظل التعريشة وتقرأ إلى أن يبدأ المطر في التساقط. كان مكانا خانقا لا هواء فيه، لكن طنين النحل كان يغطي على صوت الشلال. في عصر أحد الأيام تبعثها بروو إلى هناك ووقفت واضعة يديها في جيبيها الخلفيين وهي تنتظر إليها.

«كيف يمكنك تحمل هذا الحر؟» قالت إلين.
«آه، إنني أحب هذا المكان».
«حقاً؟» توقفت. ثم سألت «أخبريني، هل تحبين المكان هنا
فعلاً، أم أنك تعتقدين أنه ممل جداً؟»
«لَمْ، أعتقد أنه رائع بمعنى الكلمة».
«همهم. إنه كذلك».
«ألا تحبينه؟»
تساءلت بروو. «آه، أنني مولعة به. لكنني مشغولة طوال الوقت.
أي مكان يمكنني العمل فيه، أبقى فيه، كما تعرفين».
«نعم، أظن ذلك»، قالت إلين. ثم أضافت. «هل تخططين
للبقاء لفترة طويلة؟»
«عجبالاً ما الذي تعنيه؟» قالت بروو، وهي تميل إلى الوراء
نحو المنزل، ولا تزال يداها خلفها. «إنني أعيش هنا».
ضحكت إلين باقتضاب. بالنسبة إلى أي شخص باستثناء
بروو كان سيبدو الأمر عبارة عن ضحكة مرح صاخبة، لكن بروو
ضيقت عينها ومدت شفرتها إلى الأمام قليلاً متسائلة:
«ما الذي يبعث على الاستغراب الشديد؟»
«أعتقد أنك غريبة، ومُحيرة جداً. إنك تنزعجين وتضطربين
بسهولة شديدة. ربما تعملين أيضاً بجِد زائد هناك في الخارج
في حظيرتك الصغيرة».
كانت بروو تنتظر إليها باندهاش.
«سبحان الله»، قالت أخيراً، «إن نسبة ذكائك مرتفعة جداً،
يا فتاة».

«أشكرك»، قالت إلين بجدية شديدة. «على أي حال، أعتقد أن الأمر على ما يرام لدرجة أنك سعيدة هنا، وأنا أتمنى لك الاستمرار في سعادتك».

«هذا هو ما جعلني أحضر لأخبرك به».

«كل شيء على ما يرام إذن».

«أنا لا أستطيع فهمك»، قالت بروو بتجهم.

«أنا لا أعرف ماذا تقصدين»، أجابت إلين، وهي تلمس بأصابعها صفحات كتابها بضيق صدر. «إنها أكثر محادثة تافهة سبق لي دخولها».

«أنا لا أعتقد ذلك»، قالت بروو، وهي تدخل المطبخ. وفي المساء نفسه، عندما حضرت أمها لتثرثر معها بعد العشاء كالعادة، بدت حزينة قليلا.

«لا يبدو أنك تتسجمين بشكل جيد جدا مع بروو»، قالت بتأنيب، بينما كانت تجلس في نهاية السرير. «لماذا، إننا منسجمتان بشكل جيد تماما. آه. أنت تتحدثين عما حدث بعد الظهر، ربما».

«نعم، أنا أقصد ذلك، ربما. فعلا، يا إلين، إنك ببساطة لا تستطيعين أن تكوني وقحة مع امرأة في مثل سنها. إنها ضيفتي، وأنت كذلك، ويجب أن تكونا لطيفتين إحدكما مع الأخرى. إنها لطيفة دائما وأنا أشعر بأنك لست كذلك».

أمسكت إلين أنفاسها وقالت، «أنا ضيفتك...»

«دعوتك إلى هنا لقضاء عطلتك وأنا أريد أن تحدث أشياء لطيفة، ولا أرى سببا ولو بسيطا لعدم سير الأمور بهذه الطريقة».

صرخت إلين فجأة، «إنها معتوهة».
نهضت أمها وغادرت الحجرة بسرعة.
في الأيام الهادئة التي تلت، لم تأت أي منهما على ذكر
الحادثة. وظلت إلين تواصل التردد على الساحة الصغيرة بعد
تناولها وجبة الغداء.

أقبل صباح أكثر جمالا من كل صباح سبقه، عندما تعلق ضباب
الصباح المبكر داخل حجرة نومها، وأتت الصيحات المختلطة
للطيور الصاخبة بمنتهى الوضوح من الغابة غير المقطوعة.
قامت إلين بارتداء ملابسها ومضت بسرعة إلى الخارج. كان
هناك ألق أبيض في الجو لم تر مثله من قبل. مشت على طول
طريق أفضى إلى أكواخ الأهالي. كانت هناك حياة تمر وتدور
في داخل تلك الأكواخ؛ أطفال رضع يبكون وببغاوات وطيور
مفردة تضحك وتغني في أقفاصها. انحنى الطريق نحو امتداد
من الأشجار الواطئة التي زرعت لحماية شجيرات البن التي
مازالت في الغالب تتفتح هنا في الليل. كان الهواء موشى بتيارات
البرودة، وروائح الخضراوات تتساب مثل أشرطة زينة غير مرئية
تتدلى من الأفرع الخضراء، كلما تقدمت هي في سيرها.

عنكبوت ضخم فاتح اللون كان يتمشى ببطء ليعبر الطريق عند
قدميها. وقفت ساكنة وراقبته حتى اختفى في الأوراق الخضراء
في أحد الجوانب. وضعت يدها على قلبها لتشعر كيف كان يخفق
بشكل متكرر بطريقة لافتة. ثم استمعت إلى صوته في رأسها
للحظة، ولم ترد كسر الإيقاع باستئناف السير مرة ثانية. ثم بدأت
تواصل سيرها إلى الأمام في سرعة، وهي تتبع الطريق الصاعد

نحو الجزء الأكثر إشراقا ولعانا في السماء. وعندما أصبحت فجأة فوق ربوة تعلو المزرعة مباشرة، كان بإمكانها بصعوبة أن تميز مجموعة من الأسطح خلال الضباب. ولكن في هذا المكان كان صوت الشلال أكثر قوة، فافتضت أنها قريبة من الوادي، على الرغم من أنه ليست ثمة علامة دالة عليه. كان الطريق ينعطف في هذا المكان ثم يواصل امتداده بطول أرض وعرة مفتوحة متجهة إلى أعلى. راحت إلين تصعد في هذا الطريق بثبات مطرد، وهي تتنفس ببطء وبعمق، ربما لنصف ساعة، وكانت مندهشة لأنها وجدت أن الغابة قد تم اجتثاثها تماما من كل الجوانب في هذا الجزء من حرف الجبل. اعتقدت لبعض الوقت أن السماء كانت آخذة في أن تصبح أكثر صفاء، وأن الشمس البازغة كانت على وشك اختراقها، لكن لأن الطريق صار منبسطا وأصبحت قادرة على أن ترى من مسافة بعيدة أمامها مباشرة، فقد رأت أن الضباب هنا كان أكثر كثافة منه في الأسفل.

في بقع أو أماكن بعينها كانت هناك انحدارات شديدة على كل جانب من جانبي الطريق. وكان من المستحيل عليها أن تتبين مقدار العمق الذي تنحدر إليه الأرض. كان هناك في الجوار القليل من النباتات والصخور، وفي الورا قليلا ارتفعت أوراق عالية جدا لأشجار سرخس، وخلف هذا كان الفراغ الأبيض، كان هذا مثل اعتلاء قمة حائط أو جدار عال في الهواء. ثم انعطفت الطريق انعطافة واسعة وامتد إلى أعلى بشكل شديد الحدة أو شبه عمودي وكان بإمكانها أن ترى أشجارا بمفردها فوقها على أحد الجانبين.

فجأة وجدت نفسها في مواجهة صف من الأكواخ. كانت أقل جودة في الصنع وأصغر من تلك التي سبق أن رأتها في المزرعة. كان الضباب ممثلاً برائحة دخان الخشب، وكانت هناك رائحة خنازير. وقفت إلين ساكنة. كان هناك رجل يغني، وطفلان صغيران عاريان خرجا من باب أحد الأكواخ، نظرا إليها للحظة في رعب، ثم جريا بسرعة عائدين إلى الداخل. تابعت سيرها إلى الأمام. كان الغناء آتيا من وراء الكوخ الأخير. عندما صارت في مواجهة الكوخ، رأت أنه محاط بسور متشابك ومتين من السلك الشائك، وقد ترك معبر بعرض حوالي ست أقدام حول جوانب الكوخ. ظهر شاب من الجانب البعيد في تلك المساحة المسيجة. كان قميصه وبنطاله باليين، وله نفس البشرة السمراء المعهودة في أماكن عديدة. كان يغني وهو يتقدم مقتريا في اتجاهها، وظل مستمرا في الغناء، وهو ينظر مباشرة إلى وجهها بعيون تلمع بالتساؤلات. ابتسمت قائلة له بلغته، «يوم جميل». صدرت عنه إيماءة ترحيب، بطريقة مسرحية مفاجئة ومثيرة إلى حد ما. توقفت إلين عن التقدم وثبتت في مكانها، ونظرت بنوع من التردد إلى الوراء نحو الأكواخ الأخرى. أشار الشاب مرحبا بها مرة ثانية ثم مضى إلى داخل الكوخ، ثم ظهر بعد لحظة، ووقف يحدق إليها بافتتان، ثم قام بعمل إشارات دعوة أخرى. وقفت إلين في هدوء تام، لا تحيد بعينيها عن وجهه. مشى الشاب ببطء نحو السور وأمسك بالسلك بكلتا قبضتيه، كانت عيناها تتسعان، بينما كان يضغط السلك الشائك في راحتيه، ثم أحنى جذعه عبر السور، ومد رأسه نحوها، وعيناها مثبتتان في عينيها بتركيز

شديد وقوة غير معقولة. لعدة ثوان أخذ يرقب كل منهما الآخر؛ ثم تقدمت تخطو نحوه قليلا، وهي تحديق في وجهه وجبينها مقطب. في هذه اللحظة صرخ وأفرغ فمه من الماء الذي كان مخزونا فيه، موجها هذا الماء بقوة إلى وجهه إلين، فطال بعض منه جزءا من وجنتها، والباقي كان من نصيب الجزء العلوي من ثوبها. انفجرت أصابعه عن السلك، ثم اعتدل قائما، وتراجع في ببطء نحو الكوخ، وهو يراقب وجهها عن قرب طوال الوقت. ظلت جامدة لبرهة ويدها على خدها. ثم انحنت إلى أسفل، والتقطت حجرا كبيرا من الطريق قذفته بكل قوتها نحو الباب. جاءت صرخة مخيفة من الداخل؛ لم تكن الصرخة كصوت أي صراخ سمعته من قبل. الأمر محير، نعم، هكذا اعتقدت عندما بدأت تركض عائدة إلى ما وراء الأكواخ الأخرى، كانت صرخة وإهانة ساذجة لطفل صغير، لكنها كانت أيضا بكاء رجل ناضج. لم يظهر أحد بينما كانت تعبر الأكواخ. عادت بعد فترة قصيرة إلى صمت الجانب الجبلي الفارغ، لكنها واصلت عدوها، وهي مندهشة لاكتشافها أنها كانت تبكي أيضا. جلست فوق صخرة وهذأت من روعها بمشاهدة بعض النمل الذي يأتي على إحدى الشجيرات حيث كان يقوم بتقطيع أوراقها إلى مربعات صغيرة ثم تحمل كل نملة منها مربعا في فمها إلى البعيد. كانت السماء قد صارت مشرقة في ذلك الوقت؛ وكانت الشمس عما قليل ستصبح كذلك في المنتصف منها. استأنفت سيرها مرة ثانية، وعندما عادت إلى البقعة العالية فوق المزرعة، صار الضباب سحبا كبيرة راحت تتهادى في

زحفها بعيدا لتهبط نحو سفح الجبل نحو الشعاب والوهاد .
كانت مرتعبة لرؤيتها إلى أي مدى كانت على مسافة قريبة
حين وقفت عند الحافة المعتمدة القبيحة للممر الجبلي الضيق .
وكيف بدا البيت كأنه منزل مخبول هناك في الأسفل، وقد
بدا مائلا إلى الخارج كما لو كان يحاول أن يرى القاع . بعيدا
إلى أسفل البيت كانت الأبخرة تتصاعد من البحيرة . تابعت
بعينها الجوانب شديدة الانحدار للجرف الصخري المقابل
الذي كان يعلو مكان وقوفها . وقد جعلها هذا تشعر بأنها قد
أصابها المرض، وسارت وهي تترنح في اضطراب عائدة إلى
البيت وقد وضعت يدها على جبهتها، لا تعير انتباها إلى
الأهالي الذين كانوا يحيونها من على عتبات منازلهم .
بينما كانت تجري مجتازة الحديقة ناداها صوت ما . التفتت
إلى الخلف فرأت بروو تغسل يديها في حوض النافورة . فوقفت
ساکنة .

«لقد نهضت مبكرا . لابد أنك تشعرين بتحسن»، قالت بروو،
مجففة يدها في شعرها . «أمك أصابتها نوبة . ادخلي لتريها» .
حدقت إلين في بروو للحظة قبل أن تقول، «كنت سأدخل .
ليس عليك أن تخبريني» .
«آه، أظن أنني أخبرتك» .

«لست مضطرة لأن تخبريني بأي شيء . أعتقد أنني أستطيع
تدبير أمري بشكل جيد جدا بدون مساعدتك» .
«ليست المساعدة بالضبط هي ما أرغب في أن أعطيك
إياه»، قالت بروو، وهي تضع يدها في جيبها . «ستكون ضربة

سريعة في الأسنان أكثر تفضيلاً. هل تعتقدين أنني أحب أن أرى أمك وهي قلقة عليك؟ في البداية كنت مريضة في السرير، ثم تخنفتين تماماً في الغابة الملعونة. هل تعتقدين أنني أرغب في مواصلة التحدث معها عنك، وطمأنيتها كل عشر دقائق؟ بحق الجحيم ما الذي تعتقدينه في ما يتعلق بالحياة، حفلة خروج طويل المدة؟»

حدقت إلين بشكل أكثر قوة، وبكراهية شديدة. «أعتقد ذلك»، قالتها ببطء، مضيفة «إن الحياة سيئة جداً. خصوصاً في هذا المكان. وأعتقد أنه يجب عليك أن تتظري مرة في المرأة ثم تقفزين بعد ذلك من الشرفة. وأنا أعتقد أن عقل امرأة كبيرة في السن مثلك يجب أن يتم فحصه».

«فهمت»، قالتها بروو بصوت تغير من الألم والكآبة. أشعلت سيجارة ومشيت إلى الاستديو الخاص بها. مضت إلين مسرعة إلى داخل البيت وصعدت إلى حجرتها.

بعد أقل من ساعة، طرقت أمها باب حجرتها. عندما كانت تدخل الحجرة، لم تستطع إلين أن ترى أنها كانت تبكي قبل لحظة فقط.

«عزيزتي إلين، لدي شيء ينبغي أن أقوله لك»، بدأت كلامها على هيئة اعتذار مضيفة، «وسيتحطم قلبي تماماً من جراء الإفشاء به. لكن أنا مضطرة إلى قوله».

توقفت، كما لو كانت تنتظر أن تواتيها الشجاعة.

«أمي، ما الأمر؟»

«أظن أنك تعرفين».

«بشأن بروو، على ما أعتقد. أليس كذلك؟»
«إنه بشأنها بالتأكيد. أنا لا أعرف كيف يمكنني أن أصلح الأمر على الإطلاق. لقد أخبرتني هي بما قلته أنت لها، ويجب أن أقول أنني وجدته صعب التصديق. كيف استطعت التفوه به؟»
«هل تقصدين الآن مباشرة في الحديقة؟»
«أنا لا أعرف أين قلته، لكنني أعرف أن ذلك لا يمكن أن يستمر. لذلك أنا مجبرة على أن أخبرك بهذا ... يجب عليك الرحيل. أنا لا أقدر على الاستثارة وتعكير الصفو بهذه الطريقة، ويمكنني أن أقول بالضبط ما الذي سيكون عليه الأمر إذا بقيت هنا.»

«أنا لست مندهشة لهذا على الإطلاق»، قالت إلين، متظاهرة بالهدوء. «متى تريدني أن أغادر؟»
«هذا مؤلم للغاية ...»
«آه، كفى! لا بأس. لقد أخذت الإجازة ويمكنني الحصول على الكثير من العمل لأقوم به قبل أن يبدأ الفصل الدراسي. اليوم؟ أم في الغد؟»

«أعتقد أول الأسبوع. سوف أذهب معك إلى بررانكيليا.»
«هل تعتقدين أنني سأكون سخيفة إذا تناولت وجباتي كلها هنا فوق؟»

«أعتقد أنها فكرة مثالية، يا عزيزتي، ويمكننا أن نحظى معا بزيارات قصيرة، أنت وأنا، بين الوجبات.»
«الآن، ورغم أن التوتر يجب أن يكون قد انتهى، فإنه لم ينته من ناحية أو أخرى. أثناء الليالي الأربع التي سبقت رحيلها، كانت

تنتاب إلين أحلام مروعة بشكل لا نهائي. كانت تستيقظ في الظلام أكثر مما ينبغي وهي تتعذب بشدة حتى لو حركت يدها. لم يكن هذا بسبب الخوف؛ فلم يكن باستطاعتها تذكر الأحلام. بدا الأمر إلى حد ما كما لو كان جزءاً من أعماق أعماق وجودها قد تم اكتشافه حديثاً وأنه يعاني من حدة الألم. كانت تتنفس بسرعة وهي مستلقية في تيبس تام لفترات طويلة، تستمع إلى الصوت اللانهائي للشرال، الذي يقطعه على فترات كبيرة بعض الضوضاء الليلية الخافتة في مكان قريب بين الأشجار. وفي النهاية، عندما كانت تستجمع الطاقة الكافية للتحرك، كانت تبدل من وضعها في السرير، وتتهد بعرق شديد، ثم تسترخي بقدر يكفي لأن تسقط مجدداً في عالم النوم المنذر بسوء العاقبة. عندما جاء اليوم الأخير، كان هناك صوت نقر خفيف على بابها بعد الفجر مباشرة. نهضت وفتحت الباب. كانت أمها هناك، تبسم بشكل رقيق قائلة:

«هل تسمحين لي بالدخول؟»

«آه. صباح الخير. بالطبع. إن الوقت مبكر، أليس كذلك؟»
مشّت أمها نحو النافذة ووقفت تنظر إلى الأسفل في الحديقة المشبعة بالضباب.

«أنا لست على ما يرام اليوم»، قالت. «أخشى ألا أقدر على اصطحابك إلى بررانكيليا. أنا لست مهيئة لركوب حصاني اليوم. إنها طويلة جداً، رحلة الساعات الثلاثة تلك إلى جومونوكال، ثم بعد ذلك القطار ثم المركب طوال الليل. ليس عليك سوى أن تسامحينني. فليس بإمكانني تحمل كل تلك الوسائل في الانتقال.

إنها ليست بالأمر الكبير، أليس كذلك؟» واصلت، وهي ترفع
بصرها أخيرا نحو إلين. «ستودع إحدانا الأخرى هنا».

«لكن، يا أمي، كيف أذهب بمفردي؟»

«آه، سيذهب معك جوزيه طوال الطريق إلى بررانكيليا وسيعود
مساء الأربعاء. هل كنت تظنين أنني سأدعك ترحلين بمفردك؟»
بدأت تضحك بشدة، ثم توقفت فجأة وبدت غارقة في التفكير
والتأمل.

«إنني على العكس أكره أن أكون هنا لليلتين من دون جوزيه،
لكنني لا أرى أي طريقة أخرى لإرسالك إلى هناك بحلول الغد.
بإمكانك الذهاب على متن أحد المراكب المتوجهة إلى بنما. دائما
ما يكون هناك مقعد في مكان ما. والآن، هيا إلى الإفطار، هيا
إلى الإفطار...»

ربتت على خد إلين، وهي تسرع إلى الخارج ثم نزلت إلى
الطابق الأسفل حيث المطبخ. كان غناء طيور الصباح يصل
من الغابة؛ وكان الضباب جاثما بكثافة فوق قمم الأشجار
هناك في الأعلى. نقلت إلين تحديقها إلى نهاية الحديقة.
فجأة شعرت بعدم قدرتها على الرحيل؛ أي كما لو أنها كانت
تترك حبا خلفها. جلست على السرير. «لكن ما هو؟» سألت
نفسها بشدة. «ليس تجاه أمي. ولا نحو البيت. ولا الغابة».
ارتدت ملابسها بطريقة آلية وحزمت أدوات التزيين المتبقية
في الحقيبة الخاصة بالرحلات القصيرة. وعلى الرغم من
ذلك، ظل ذلك الإحساس موجودا هناك، يصعب تجاهله وهو
مغلّف في تمامه.

نزلت إلى الطابق السفلي، كانت هناك مجموعة من الأصوات وقعقة الآنية الصيني في المطبخ. كانت كونتشا ولووز تعدان صينية إفطارها. توقفت وراحت تشاهدهما حتى أتما كل شيء. «لماذا لا تبقي معنا فترة أطول، يا سنيورا (٢١)؟»، سألتها كونتشا بحزن.

لم تجبها، لكنها أخذت منها الصينية وحملتها عبر المنزل إلى الخارج حيث الشرفة، ووضعتها فوق المائدة. كان كل شيء في الشرفة مبلاا بندي ورطوبة الوادي. قلبت وسادة الكرسي إلى الجهة الأخرى ثم جلست لتأكل. كان صوت الشلال قد بدد شهيتها، لكنها فكرت، «هذه هي المرة الأخيرة». قالت وهي مشحونة بالعواطف، لكن هذه العواطف كانت متباينة ومشوشة جدا بالنسبة إليها بحيث لم تستطع تحديد أي منها كعاطفة واضحة بارزة لا لبس فيها. بينما كانت جالسة هناك تأكل بعزم وتصميم، أدركت فجأة أن شخصا ما كان يراقبها. تحركت فرأت بروو واقفة في المدخل. كانت ترتدي منامتها وروب الحمام، وتمسك في يدها بكوب ماء، وبدت ناعسة جدا. «كيف حالك؟» قالت، وهي ترتشف الماء.

نهضت إلين.

«إننا جميعا مستيقظون مبكرا هذا الصباح»، واصلت بروو بابتهاج.

«إنني راحلة، ينبغي عليّ الذهاب. بعد إذنك، فالوقت قد أزف»، غمغمت إلين وهي تتلفت ملقية بنظرة مختلصة في ما حولها.

(٢١) جاء السؤال بالإسبانية - المترجم.

«آه، على رسلك، يا فتاة. إنك لم تودعي أمك حتى الآن. وجوزيه لا يزال يسرج الخيول. يجب عليك أن تأخذي معك الكثير من الحقائب».

«بعد إذنك»، قالت إلين محاولة المرور متجاوزة إياها عبر المدخل.

«جيد، لنتصافح»، قالت بروو، وهي تمد يدها إلى إلين. «أغربي عن وجهي!» صرخت إلين، وهي تكافح من أجل الاستمرار في الابتعاد عن بروو، «لا تلمسيني!» لكن بروو نجحت في أن تقبض على إحدى ذراعيها المهتاجين بشدة، وأمسكت به بسرعة.

«يكفي هذا الدخول المسرحي. لسنا مضطرتين للقيام بنفس نوع الخروج. قل لي مع السلامة مثل الآدميين». ثم قامت بلي الذراع قليلا، رغما عنها أمالت إلين نفسها ضد الباب وصارت بشرتها شديدة الشحوب.

«هل تشعرين بالضعف؟» قالت بروو، ثم تركت ذراعها يتدلى، ورفعت كوب المياه المسككة به، وقذفت ببعض الماء في وجه إلين بأصابعها.

كان رد الفعل فوريا. قفزت إلين عليها بشراسة مفاجئة، وهي ترفسها وتدفعها وتضربها ضربا عنيفا في آن واحد. سقط الكوب على الأرض الحجرية؛ بعد أن كانت بروو ممسكة به في حذر. بشكل آلي، وفي سرعة شديدة، وخفة كخفة الطائر ضربت الفتاة وجه ورأس المرأة في عنف وقسوة، بينما كانت تدفعها ببطء بعيدا عن المدخل وإلى الجانب الآخر من الشرفة.

صدرت من بين شفتي بروو عدة مرات كلمة «يا إلهي». في البداية بذلت القليل جدا لتدافع عن نفسها. فقد بدت نصف نائمة عندما تحركت نحو الحافة الخارجية تحت الهجوم الضاري. ثم ألقت بنفسها فجأة على الأرض. واصلت إلين رفضها بينما كانت تتلوى هناك على الأرض، وهي تحاول حماية وجهها.

«لا أحدا! لا أحدا! لا أحدا! لا أحد يستطيع أن يفعل بي هذا!»، كانت تصرخ بطريقة إيقاعية بينما كانت ترفض بروو.

ارتفعت طبقة وحجم صوتها؛ توقفت للحظة، وعندئذ، رفعت رأسها، ثم أطلقت أعظم صيحة في حياتها. ارتدت الصيحة على الفور من الجدار الصخري الأسود في الطرف الآخر من الوادي بشكل مباشر خلال ضوضاء المياه. أنهى الصوت الخاص بها الحادثة بالنسبة إليها، وبدأت تعود إلى الطرف الآخر من الشرفة.

كانت كونتشا وأمها واقفتين في المدخل وقد تملكهما الرعب؛ بدتا كما لو أنهما قد جاءتا لمشاهدة عاصفة فظيعة تمر عبر الريف. تحتنا جانبا بينما كانت إلين تتجاوزهما.

خارج الإسطبل، كان جوزيه يصفر، وقد انتهى من إسراج الخيول، وكانت الحقائق قد حزمت بالفعل فوق البغل.

وهي لا تزال في منتصف حلمها العميق، أدارت إلين رأسها نحو البيت بينما ركبا ماضيين. فرأت لوهلة قصيرة، بين أوراق الأشجار، شكلين كانا لأمها وبروو وهما واقفتان جنبا إلى جنب في الشرفة، وحائط الوادي الجبلي العميق يلوح في الخلف. ثم استدارت الخيول وبدأت تهبط الطريق.

صفحات من النقطة الباردة

حضارتنا محكوم عليها بأن تكون قصيرة: فالأجزاء المكونة لعناصرها مختلفة جدا وغير متوافقة. أنا شخصا عندي استعداد لأن أنظر إلى كل شيء على أنه يمضي في عملية تفسخ وانحلال. وكلما زاد حجم القنابل، أجهزنا أسرع على الحياة. والحياة من الناحية الظاهرية بشعة جدا بالنسبة إلى المرء حين يقوم بمحاولة المحافظة عليها. دعها تمض في سبيلها. فربما سيبرز في يوم ما شكل آخر من الحياة. في أي من الحالتين، فإن الحياة لا أهمية لها. في نفس الوقت، ما زلت أنا جزءا من هذه الحياة، وأنا مقيد بذلك لحماية نفسي بكل جهد يكون في مستطاعي القيام به. ولذلك أنا هنا. لا تزال الحياة النباتية هنا في الجزيرة هي صاحبة اليد العليا، وعلى الإنسان أن يقاتل حتى يجعل من وجوده شيئا مرثيا بأي درجة. المكان هنا جميل، الرياح التجارية^(٢٢) تهب على مدار السنة، وأنا أشك في أنه من المستبعد جدا إهدار القنابل على هذا الجانب المهجور من الجزيرة، أو بالتأكيد على أي جزء منها. كنت كارها للتخلي عن البيت خصوصا بعد أن توفيت «هوب». لكن التهيو لمغادرة المكان كان واضحا. كانت وظيفتي الجامعية باستمرار مهزلة تامة (لأنني أؤمن بأنه ليس ثمة سبب لحث إنسان على التدريس، ويكون هذا السبب صائبا)، وكنت مبتهجا بفكرة الاستقالة، وبمجرد تسوية أمورها واستثمار المال بشكل جيد، لم أكن لأضيع وقتا.

(٢٢) الرياح التجارية: ريح تهب باطراد نحو خط الاستواء - المترجم.

أعتقد أن هذا الأسبوع كان أول فرصة لي منذ أن كنت طفلاً، لاسترجاع إحساسي بكوني ضمن الوجود. لقد تنقلت من مجلس لطيف إلى الذي يليه، وأنا ألقى بتهية الوداع على الدجالين الإنجليز، ودراويش الفلسفة، وهكذا دواليك، حتى على هؤلاء الزملاء الذين كانت تجمعني بهم صلة ضعيفة تسمح لنا بمجرد التحدث فقط. وقد شاهدت الحسد على وجوههم عندما أعلنت عن مغادرتي على متن طائرة «البان أمريكان» في صباح يوم السبت، وكانت أكبر متعة شعرت بها بين كل هذا هي كوني قادراً على الرد عليهم بـ «لا شيء، أبدا»، عندما سألونني، مثلما كان يتم سؤالي دائماً، عما أعزم القيام به.

عندما كنت صبياً اعتاد الناس على الإشارة إلى أخي تشارلز بـ «الأخ الكبير سي»، على الرغم من أنه يكبرني بما لا يزيد عن السنة فقط. إنه الآن بالنسبة إلي «الأخ البدين سي» فحسب، مجرد محام ناجح. يداه الحمران السمينتان ووجهه اللحيم الأحمر، واحتشامه الكاذب المبالغ فيه والذي لا يسبر غوره، تلك هي السمات التي تجعله بالفعل بغيضاً بالنسبة إلي. هناك أيضاً حقيقة أنه بدا في إحدى المرات غير راض عن الطريقة التي عليها الآن خصال وسلوك ابني راكي. وبرغم كل شيء، فإنه لا يزال أخي الكبير، ويرفض بشكل علني كل شيء أقوم به. الاشمئزاز الذي أشعر به نحوه قوي جداً، لدرجة أنني كنت لسنوات غير قادر على ابتلاع كسرة طعام أو قطرة من شراب في وجوده بدون القيام بمجهود غير عادي. ولا أحد يعرف هذا سواي - بالطبع تشارلز لا يعرفه، فهو آخر شخص يمكن أن أخبره به. لقد وصل

في القطار الأخير قبل ليلتين من مغادرتي. ودخل معي مباشرة في الموضوع، بعد أن تم تجهيز الشراب المخفف له. «إذن أنت ستتجه إلى البراري»، قال، وهو يجلس على طرف كرسيه مثل أحد الباعة.

«إن كان بإمكانك تسميتها بالبراري» أجبت. «بالتأكيد إنها ليست مقفرة مثل ميتيتشي». (لديه منزل في شمال كويبيك). «إنني أعتبر المكان متحضرا بالفعل». شرب وتلمظ بشدة، وهو يخفض نظارته بصعوبة إلى أسفل على ركبته.

«وراعي هل ستأخذه معك؟»
«بالطبع».

«يترك المدرسة. إلى مكان بعيد. إلى حيث لا يرى أحدا سواك. أتعتقد أن هذا جيدا». «نعم أعتقد ذلك»، قلت.

«قسما بالله، لو بإمكانني إيقافك قانونيا، فسوف أفعل!» صاح، ثم نهض ووضع كأسه على رف المدفأة. كنت أرتعد في داخلي من فرط الإثارة، لكنني لم أفعل شيئا خلا الجلوس ومشاهدته. واصل حديثه وهو يصيح، «أنت لست أهلا للحصول على حضانة ولد صغيرا»، ورمقني بلمحة صارمة من فوق نظارته. «هل تعتقد أنني لست أهلا؟» قلت برفق.

نظر إليّ بجدية مرة ثانية. «هل تعتقد أنني نسيت؟» كنت متلهفا على نحو مفهوم لإخراجه من البيت بأسرع وقت ممكن. وبينما كنت أقوم بمراكمة وتصنيف الخطابات والمجلات

فوق المكتب، قلت له: «هل هذا هو كل ما جئت لتخبرني به؟ لدي الكثير لأقوم بعمله غدا ويجب أن أحصل على قسط من النوم. من المحتمل ألا أراك غدا على الإفطار. سيراعي «أجنيس» أنك يجب أن تأكل في الوقت المناسب لكي تلحق بالقطار المبكر». كان كل ما قاله: «يا لله! افق! انتبه لنفسك! إنك لن تستطيع خداع شخص مثلي، أنت تعرف هذا».

كان هذا النوع من الكلام هو بالضبط من صميم شخصية تشارلز. فعقله بطيء وبليد، وهو يتخيل باستمرار أن كل من يقابلهم يمارسون لعبة خداع شخصية معه بصفة خاصة. إنه غير قادر بالمرة حتى على متابعة أداء وظيفة التفكير بشكل معتدل لدرجة أنه يجد الرغبة في التآمر والسرية والخداع في كل مكان.

«ليس لدي وقت للاستماع لذلك النوع من الهراء»، قلت، وأنا أتأهب لمغادرة الحجرة.

لكنه صاح، «إنك لا تريد الاستماع! لا! ترغب في القيام بما تريد عمله. ترغب في المغادرة بعيدا إلى هناك والعيش وفق هواك، ولتذهب النتائج المترتبة على هذا إلى الجحيم!» في هذه اللحظة سمعت راكي يهبط إلى الطابق السفلي، حيث كنا نتحدث. من الواضح أن تشارلز لم يسمع شيئا لأنه واصل هذيانه قائلا: «لكن فقط عليك أن تتذكر. أنني قد حصلت على رقمك على أي حال، وإذا حدثت أي مشكلة مع الولد فسوف أعرف على من يقع اللوم».

أسرعت عبر الحجرة وفتحت الباب حتى يتمكن من الانتباه

إلى أن راكي كان موجودا هناك في المدخل. أوقف ذلك من تبكيته المطول لي. كان من الصعب معرفة إن كان راكي قد سمع أي جزء منه أم لا. على الرغم من أنه ليس صغيرا تماما، لأنه شخص عاقل وراشد، فإنه من المستحيل تماما معرفة ما يدور في رأسه تقريبا أكثر مما يسمح هو للمرء بمعرفته.

كنت متضايقا من أنه كان من حق تشارلز أن يرفع صوته بالصياح في داخل بيتي. إنه بالتأكيد، الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه قبول مثل هذا السلوك منه، لكن ليس هناك أب يحب أن يراه ابنه يتلقى النقد وهو خانع. كان راكي واقفا هناك بالفعل مرتديا روب الحمام الخاص به، ووجهه الملائكي خال تماما من كل تعبير، وقال: «هل من الممكن أن تقول للعم تشارلي ليلة سعيدة نيابة عني. فقد نسيت أن أقول له».

أخبرته أنني سأفعل، وأغلقت الباب بسرعة. عندما تراءى لي أن راكي قد عاد إلى حجرته في الطابق العلوي، تمنيت لتشارلز ليلة سعيدة. لم أقدر من قبل أبدا على التخلص من وجوده بسرعة كافية. فقد كان تأثيره عليّ راجعا إلى فترة مبكرة من حياتنا، إلى الأيام التي أكره تذكرها.

إن راكي ولد رائع. فبعدما وصلنا إلى هنا، ووجد أن من المستحيل علينا الحصول على بيت قريب من أي بلدة بحيث يكون بإمكانه تكوين صداقات مع الأولاد والبنات الإنجليز من مثل سنه، لم يظهر أي علامة على الكدر، في حين أنه كان يفترض أن يصاب بخيبة الأمل. وبدلا من ذلك، بينما كنا نخرج من مكتب تأجير العقارات إلى وهج الشارع، ابتسم لي ابتسامة عريضة ثم

قال: «حسنًا. أعتقد أننا سنضطر إلى الحصول على دراجتين، هذا كل ما في الأمر».

البيوت القليلة المتاحة والتي كانت تقع على مقربة مما كان سيطلق عليه تشارلز «المدنية» كانت شديدة القبح ومنغلقة تماما حتى أننا قررنا على الفور أنا وراكي أن نطلق عليها النقطة الباردة، على الرغم من أنها كانت تقع على الطرف الآخر من الجزيرة ومنعزلة تماما فوق المنحدر الصخري على البحر. وكان هذا بلا شك إحدى الخواص الأكثر أفضلية في الجزيرة، وكان راكي متحمسا فيما يتعلق بروعتها وتميزها مثلي تماما.

«سوف ينتابك السأم لكونك وحيدا هنا في هذا المكان البعيد، معي فقط»، قلت له بينما كنا نقفل عائدتين إلى الفندق.
«أوه. سأنجح في التكيف مع هذا الأمر بشكل جيد على أي حال. متى سنبحث عن الدراجات؟»

بسبب إصراره اشترينا دراجتين في صباح اليوم التالي. كنت متأكدا من أنني لن أستفيد كثيرا من استخدام دراجتي، لكنني فكرت في أن دراجة إضافية من المحتمل أن تكون مناسبة بحيث تكون قريبة من البيت. كان لدى الخدم من دون استثناء دراجات خاصة بهم، والتي من دونها لم يكونوا قادرين على الوصول إلى «أورانج ووك» والمجيء منها، حيث تبعد ثمانية أميال بطول الشاطئ. لذلك كنت مجبرا لفترة على أن أصل إلى البيت كل صباح قبل الإفطار فوق دراجتي وساقاي منفرجتان والتبديل بحماقة على امتداد الطريق إلى جانب راكي لمدة نصف ساعة. كنا نمضي خلال هواء الإبكار البارد، تحت الأشجار ذات النسيج

الحريري الشاهقة قرب البيت، وبعيدا إلى المنحنى الكبير عند حافة الشاطئ حيث أفرع النخيل التي تلوح وهي تميل نحو اليابسة في النسيم القوي الذي كان يهب هناك بشكل دائم. ثم نقوم بعمل التفاة واسعة ونتسابق عائدين إلى البيت، ونحن نناقش بصوت عال مدى رغباتنا الخاصة في الأنواع المختلفة للإفطار الذي كنا نعرف أنه بانتظارنا هناك في التراس. كنا نتناول إفطارنا عند عودتنا إلى البيت في الهواء الطلق، ونحن نطل على الكاربيي، ونتحدث عن الأخبار التي نشرت في عدد أمس في الجريدة المحلية، والتي يحضرها إلينا «إيساه» كل صباح من أورانج ووك. بعد ذلك يخفي راكي طيلة الصباح فوق دراجته، حيث يقودها بنشاط على امتداد الطريق في هذا الاتجاه أو ذاك حتى يكشف بقعة رملية جرداء غير مطروقة على امتداد الشاطئ، وتلك يمكنه اعتبارها بمثابة شاطئ جديد. في الغداء يصفها لي بالتفصيل، وهو يسرد عليّ كل الأخطار المادية التي واجهته والتي من بينها إخفاؤه للدراجة بين الأشجار، حتى لا يلاحظها أحد السكان المحليين الذي يمرون على امتداد الطريق سيرا على الأقدام، أو هبوطه مستعينا بيديه وقدميه المنحدرات الصخرية غير المتدرجة، والتي اتضح أنها كانت أعلى بكثير مما كانت تبدو عليه من النظرة الأولى، أو في سببه لعمق المياه تمهيدا للغطس فيها من أعلى الصخور، أو تقدير فاعلية سلسلة الصخور عند سطح المياه في الحيلولة دون وصول أسماك القرش والبركودة. لم يكن هناك أبدا أي عنصر استعراضي متفاخر في سرد راكي لمآثره - باستثناء الإثارة المفعمة بالمرح والتي كان يستمدّها من

حكيه لكيفية إرضائه لفضوله الذي لا ينضب. إن عقله يفصح عن يقظته في شتى الاتجاهات في آن واحد. لا أقصد أن أقول إنني أتوقع أنه سيكون «مفكرا». ليس هذا من شأني، ولا يوجد لدي أي اهتمام خاص بما إن كان سيصبح رجلا مفكرا أم لا. أعرف أنه سيتمتع دائما بشخصية ذات جرأة وبروح ذات نقاء عظيم في الحكم على القيم والأمور. سوف تمنعه جرأة هذه الروح النقية من أن يصبح ما أطلق عليه أنا «ضحية»: ولن يتحول أبدا إلى وحش بسبب حقائق الواقع. وهذا الإحساس الصائب بالتوازن الذي لا يخطئ في الاعتبار الأخلاقية سوف يحميه من الآثار المادية لعصرنا الحاضر المعوقة والكفيلة بإحداث شلل في العقل.

بالنسبة إلى ولد في السادسة عشرة فإن راكي يمتلك براءة غير عادية في رؤيته للأمور. أنا لا أقول هذا بصفتي أبا، على الرغم من أن الله يعرف أنني لا يمكنني أبدا أن أفكر في راكي من دون ذلك الإحساس الجارف المألوف من البهجة والامتنان لكوني أنعم وأحظى بامتياز مشاركتي لحياتي معه. وهو الشيء الذي يأخذه هو كأمر مسلم به بشكل كلي تماما، فحياتنا اليومية هنا معا، هي مصدر لاندعاش أبدي لن ينتهي بالنسبة إلي، ويشغل حيزا كبيرا من تفكيري كل يوم، لمجرد كوني جالسا هنا مدركا للحظ السعيد العظيم المتمثل في امتلاكي له بشكل كلي لنفسه، بعيدا عن العيون المتطفلة والألسن الخبيثة. (أظنني فكرت في تشارلز فعلا في حين كنت أكتب هذا). وأعتقد أن جزءا من جاذبية مشاركة الحياة مع راكي تتمثل بالتحديد في تعامله مع

الأمر برمته كأنه وضع طبيعي مسلم به تماما . وأنا لم أسأله من قبل إن كان يحب وجوده هنا - فمن الواضح أنه يحب وجوده هنا، جدا . أظن أنه لو التفت إليّ يوما ما وأخبرني كم هو سعيد هنا، فربما بطريقة أو أخرى، قد يفسد هذا السحر . بل وفوق ذلك لو كان راكي طائشا متهورا أو أنانيا، أو حتى قاسيا معي، فإنني كنت سأشعر بقدرتي على محبته أكثر لهذا .

أعدت قراءة الجملة الأخيرة تلك . ما الذي تعنيه؟ ولماذا يكون عليّ أن أتخيل أيضا أنها يمكن أن تعني شيئا أكثر مما تقوله؟ حتى الآن، بقدر ما يمكنني أن أحاول: لا أستطيع أن أوّمن أبدا بالحقيقة المجانية، والمنعزلة . ما يتعين عليّ أن أعنيه هو أنني أشعر بأن راكي كان بالفعل طائشا إلى حد ما . لكن بأي طريقة؟ بالتأكيد لا يمكنني الاستياء من رحلاته على الدراجة؛ فليس بإمكانني أن أتوقع منه أن يرغب في البقاء في البيت ويجلس للتحدث معي طوال اليوم . ومن جانبي لم ينتابني القلق أبدا بشأن تعرضه للخطر، فأنا أعرف أنه أكثر قدرة من معظم البالغين على الانتباه لنفسه، وأنه ليس من المحتمل تعرضه للأذى بسبب زحفه فوق المنحدرات أو السباحة في الخلجان أكثر من أي مواطن محلي . وفي نفس الوقت ليس هناك من وجهة نظري ما يجعلني مرتابا أو متضايقا من وجودنا هنا . يجب عليّ أن أستاذ من بعض التفاصيل حتى التي تسير في المسار المثالي الصحيح، أيا كان ما عليه هذا المسار . ربما لأنه في سن الشباب، وأنا أحسده على جسده المرن، وبشرته الملساء، وما يتمتع به من الطاقة والرشاقة والحيوية .

جلست لفترة طويلة هذا الصباح وأنا أتطلع إلى البحر، محاولاً حل ذلك اللغز الصغير. جاء طائران من طيور مالك الحزين لونهما أبيض وحطاً فوق بقعة ميتة في شرق الحديقة. وظلاً هناك لفترة طويلة من دون أن يتحركاً أدنى حركة. كنت أدير رأسي بعيداً وأجعل عيني تألفان أفق البحر اللامع، ثم أنظر إليهما فجأة لأرى إن كانا قد بدّلا من وضعهما أم لا، لكنهما في كل مرة كانا في نفس الوضع. حاولت أن أتخيل البقعة السوداء من دونهما - مشهد طبيعي صرف من النباتات الخضراء - لكن الأمر كان مستحيلاً. كنت أجبر نفسي ببطء طوال تلك الفترة على تقبل تفسير سخيّف لضيقى من راكي. ذلك الضيق الذي انتابني بالأمس فقط، عندما بدلا من أن يظهر في وقت الغداء كما هو معتاد، أرسل إليّ ولداً أسود البشرة من أورانج ووك، ليقول لي إنه سيتناول غداءه في القرية. تمكنت بكل سهولة من ملاحظة أن الولد كان يركب دراجة راكي. كنت قد أخرت موعد الغداء لمدة نصف ساعة انتظاراً له، فجعلت الخادمة جلوريا تعدّه لي على الفور بمجرد انطلاق الولد، عائداً إلى القرية. كانت تحدوني الرغبة لمعرفة نوع المكان والصحبة التي كان يمكن لراكي أن يأكل معها، نظراً لأن أورانج ووك، بقدر ما أعرف، لا يقطنها سوى الزوج، وكنت واثقاً من أنه سيكون بمقدور جلوريا أن تلقي ببعض الضوء على المسألة، لكنني كنت لا أقوى على سؤالها. لكن، عندما أحضرت إليّ الحلوى، قلت: «من كان ذلك الولد الذي أحضر الرسالة من السيد راكي؟» فهزت كتفيها وقالت: «صبي صغير من أورانج ووك، يدعى ويلموت».

عندما عاد راكي وقت الغروب، متورد الوجه من فرط الإجهاد (لأنه قاد الدراجة بطريقة متواصلة ولمسافة طويلة)، أخذت أراقبه بعناية. صدم عيني المرتابتين أصلا سلوكه لأنه بالفعل كان سلوكا وديا زائفا وإلى حد ما تبدت منه روح مرح مكرهة مجبرة. ذهب إلى حجرته مبكرا وراح يقرأ لفترة قبل أن يطفئ ضوء حجرته. قمت بنزهة طويلة في ضوء القمر الساطع تماما، ورحت أنصت لأصوات حشرات الليل على الأشجار. ثم جلست لفترة في الظلام فوق السور الحجري للجسر الممتد فوق النهر الأسود. (إنه في الحقيقة مجرد جدول يندفع إلى أسفل فوق الصخور من جبل على بعد أميال قليلة في الجزيرة، حتى يصل إلى الشاطئ قرب البيت). دائما ما يبدو صوته أكثر صخبا، وأعظم شأوا في الليل عنه في النهار. موسيقى المياه فوق الصخور جعلت أعصابي تهدأ، على الرغم من أنني كلما كنت أفكر في سبب لمثل هذا التوتر الذي أشعر به كنت أجده صعب الفهم، باستثناء أنني كنت متضايقا بالفعل بسبب عدم مجيء راكي إلى البيت وقت الغداء. لكن لو كان هذا صحيحا فسأكون أنا سخيفا بل وخطيرا أيضا - إنه بالضبط ذلك الشيء الذي يجب على والد المراهق أن يحترس ويحذر منه ويقاوم ضده، إلا لو كان غير مبال باحتمال فقدته لثقة وحب نسله، وعلى نحو دائم. يجب أن يبقى راكي بالخارج متى أحب هو، ومع من يحب، والمدة التي يرغب فيها، ويجب عليّ ألا أفكر في هذا الأمر ثانية، وألا أشير إليه من قريب أو بعيد أو آتي على ذكره إليه، وألا فسوف أعطي انطبعا بالتطفل بأي شكل

من الأشكال. إن فقدان الثقة من جانب الوالد هو الإثم الفادح الوحيد الذي لا يغتفر.

على الرغم من أننا كنا ما نزال نقوم بغطسنا الصباحية عندما نستيقظ من النوم، فقد مرت ثلاثة أسابيع منذ قيامنا معا بجولتنا المبكرة. فذات صباح وجدت راكي وقد قفز فوق دراجته بسرورال السباحة المبتل بينما كنت أنا لا أزال أسبح، وذهب بمفرده، ومنذ ذلك الحين كانت هناك اتفاقية ضمنية بيننا بأن الأمر سوف يسير بهذه الطريقة، أي أنه سيذهب بمفرده. ربما تسبب أنا في إعاقته، وهو يحب الانطلاق بسرعة شديدة.

البستاني الصغير المبتسم بيتر، من «خليج القديس إيفيز»، هو الصديق المفضل لراكي. من اللطيف رؤيتهما معا بين الأحراش، وهما يجثمان فوق بيوت النمل أو يسرعان هنا وهناك محاولين الإمساك بسحلية، إن الاثنين في نفس السن تقريبا، لكن ثمة اختلاف كبير بين الاثنين، فراكي ببشرته السمراء يبدو أبيض تقريبا مقارنة ببشرة الآخر السوداء اللامعة. أعرف أنني سأكون اليوم بمفردي على الغداء، نظرا لأن اليوم هو يوم إجازة بيتر. فعادة ما يذهبان في مثل هذا اليوم معا على دراجتيهما إلى «خليج القديس إيفيز»، حيث يمتلك بيتر زورقا صغيرا. ويقومان بالصيد هناك على امتداد الساحل، لكنهما لم يرجعا أبدا بأي شيء حتى الآن.

في تلك الأثناء أكون هنا بمفردي، أجلس على الصخور في الشمس، ومن وقت إلى آخر أنزلق إلى أسفل لأبرد جسدي في الماء، وأنا أدرك تماما أن البيت يقع وراء أشجار النخيل العالية

مثل قارب زجاجي كبير ممتلئ بنباتات الأوركيد والسوسن. الخدم يتمتعون بالنظافة والهدوء، والعمل يتم إنجازه بشكل تلقائي تقريبا. الخدم السود جيدون إنهم نعمة أخرى من نعم الجزر، والبريطانيون، الذين ولدوا هنا في هذه الجنة، لا يدركون كم هم من المحظوظين. إنهم في الحقيقة، لا يقومون بشيء سوى الشكوى. كان من الواجب على المرء أن يعيش أولا في الولايات المتحدة الأمريكية ليقدر أعجوبة هذا المكان. لا تزال الأفكار تتغير كل يوم، حتى هنا. وقريبا سيقرر الناس أنهم راغبون في التحديث، في أن يكون بلدهم جزءا من بشاعة عالم اليوم، وبمجرد أن يحدث هذا، سينتهي كل شيء. فبمجرد أن تمتلك هذه الرغبة، فأنت مصاب بفيروس مميت، وتبدأ أعراض المرض في الظهور عليك. فتعيش بلغة وبشروط الوقت والمال، وتفكر بمعايير المجتمع والتقدم. حينها يكون كل ما قد تم تركه لك هو أن تقتل الناس الآخرين الذين يفكرون بنفس الطريقة، مع كثيرين من هؤلاء الذين لا يفكرون كذلك، نظرا لأن هذا هو الإعلان النهائي للمرض عن نفسه. هنا في الوقت الحالي وعلى جميع المستويات - يشعر المرء بالسكونية - توقف الوجود عن أن يكون عبارة عن تلك الثواني القليلة الضئيلة التي تنفلت في الساعة الرملية عندما يأخذ فجأة ما تبقى من رمل في التسرب بسرعة إلى القاع دفعة واحدة. يبدو الزمن معطلا فجأة، للحظة. وإذا بدا معطلا، فهو كذلك بالفعل. كل موجة عند قدمي، كل صرخة طائر في الغابة من خلفي، لا تحملني خطوة واحدة باتجاه الكارثة النهائية. فالكارثة أكيدة الحدوث،

لكنها ستحدث فجأة، هذا كل ما في الأمر. وحتى ذلك الحين، يبقى الزمن ساكنا.

انزعجت اليوم من جراء ما وصلني في بريد الصباح، فالبنك الملكي الكندي يطلب مني أن أحضر بنفسني إلى مركزه الرئيسي لتوقيع إيصالات الوديعة وأوراق أخرى متعلقة بمبلغ كان قد تم إرساله برقيا من البنك في بوسطن. ونظرا لأن البنك يقع في الجانب الآخر من الجزيرة، على بعد خمسين ميلا، فإنه سينبغي عليّ قضاء الليل هناك والعودة في اليوم التالي. ليس هناك ما يستدعي اصطحاب راكي معي. فقد يثير مشهد الحضارة فيه حنينا إليها لم يعرفه من قبل. أنا متأكد من أنه كان سيفعل بي الشيء نفسه لو كنت في مثل سنه. وإذا كان لابد لهذا أن يبدأ مرة أخرى، فسيكون تيعسا فحسب، نظرا لأنه ليس له من شيء سوى الإقامة معي هنا، على الأقل لمدة سنتين قادمتين، عندما أمل في تجديد عقد الإيجار، أو، إذا طرأت انتعاشة في نيويورك، القيام بشراء المكان. بعثت برسالة مع إيساه عندما يذهب إلى بيته في أورانج ووك هذا المساء، لإحضار سيارة «ماك كوي» لي غدا في السابعة والنصف صباحا. إنها سيارة باكار قديمة ضخمة ومكشوفة، وبوسع إيساه أن يختصر على نفسه الطريق إلى هنا ويكوم دراجته في مؤخرتها ويركب مع ماك كوي.

كانت الرحلة عبر الجزيرة جميلة وممتعة، وكانت ستصبح أكثر إمتاعا لو لم يتلاعب بي خيالي في حيلة غريبة جدا في مستهل الرحلة. فقد توقفنا في أورانج ووك للتزود بالوقود. وبينما كان ذلك يتم، نزلت من السيارة وذهبت إلى محل على

الناصية لشراء بعض السجائر. ونظرا لأنها لم تكن بعد الثامنة تماما، فقد كان المحل مغلقا، فأسرعت إلى شارع جانبي حيث يوجد محل آخر صغير ظننت أنه قد يكون مفتوحا. وقد كان كذلك، فاشتريت سجائري. وفي طريق عودتي إلى الناصية لاحظت امرأة سوداء ضخمة كانت تستند بذراعها على البوابة الأمامية لبيتها الصغير، وهي تحقق في الشارع. وعندما مررت متجاوزا إياها، نظرت إلى وجهي مباشرة وقالت شيئا ما بلكنة غريبة خاصة بأهل الجزيرة. وبدا لي أن ما قالته كان يحمل نبرة عدوانية، وكان موجها إليّ بشكل ظاهر، لكن لم تكن لدي فكرة عما قالته. فرجعت إلى السيارة وقام السائق بتشغيلها. كان وقع الكلمات قد بقي في رأسي، بشكل ما مثلما يتضح شكل لامع بفعل الظلام فإنه من المرجح أن يبقى هذا الشكل في الخيال، بحيث عندما يغلق المرء عينيه فإنه يتمكن من رؤية المعالم الدقيقة المحيطة أو المؤطرة للشكل. كانت السيارة الآن تهدر بالفعل صاعدة التل صوب الطريق البري عندما سمعت فجأة نفس الكلمات تتردد مجددا. وكانت الكلمات: «أبق ابنك في البيت، يا رجل». جلست متصليا للحظة بينما كان الريف المفتوح يسرع إلى خلفنا عن اليمين وعن اليسار. لماذا ينبغي عليّ أن أظن أنها قالت ذلك؟ وقررت على الفور أنني كنت أعطي معنى اعتباريا لعبارة لم يكن بإمكانني فهمها حتى لو كنت منصتا وأنا منتبه تماما. وعندئذ تساءلت لماذا تحتم على عقلي الباطني أن يختار ذلك المعنى على وجه التحديد، ونظرا لأنني همست الآن بالكلمات لنفسني فقد أخفقت في التواصل مع أي قلق ربما كان

عقلي قد مال إليه. في الحقيقة أنني لم ألق بالآ على الإطلاق لجولات راكي هنا في أورانج ووك. بوسعي ألا أجد لديّ مثل هذا الانشغال بغض النظر عن كيفية طرحي للسؤال على نفسي. ثم، هل قالت المرأة بالفعل تلك الكلمات؟ وظللت طوال الطريق عبر الجبال أتأمل السؤال، على الرغم من أن هذا كان مضيعة للطاقة على نحو جلي. وسرعان ما لم يعد بإمكانني سماع صوتها في ذاكرتي: فقد قمت بتشغيل المسجل لفترة طويلة جداً، وقد أتلفته بسبب ذلك.

هنا في الفندق كان يجري احتفال راقص. الأوركسترا الرديئة، المكونة من آلتين ساكسوفون وآلة كمان سيئة، كانت تعزف موسيقاها في الحديقة أسفل نافذتي مباشرة، وكانت أزواج الراقصين ذوي المظهر الجدي تدب وتتساب هنا وهناك فوق أرضية الشرفة الخرسانية المعالجة بالشمع، على ضوء مجموعة من أشرطة الفوانيس الورقية. أظن أن المقصود بها أن تبدو مثل الفوانيس اليابانية.

في تلك اللحظة تساءلت عما كان راكي يفعله هناك في البيت برفقة بيتر وإرنست الحارس. تساءلت إن كان نائماً. البيت الذي تعودت على التفكير فيه كمكان مبهج ومريح، يمكن تماماً أن يكون الآن في أكثر المناطق سوءاً وبعداً عن الكرة الأرضية، نظراً لأنني هنا في هذا المكان جالس بصحبة الأوركسترا السيئة التي تعزف هنا في الطابق السفلي، وأنا أقوم برسم صورة للبيت لنفسي، وهو يصدمني بشدة لأنه عرضة للأذى في عزلته. أرى في خيالي البقعة القمرية وأشجار النخيل الطويلة التي تلوح في

الريح بلا انقطاع، ومنحدراتها المظلمة والأمواج من تحتها تمسها
مسا رفيقا. أحسست فجأة، وعلى الرغم من أنني كنت أصارع
هذا الإحساس القوي، أنني سعيد بشكل يفوق الوصف لكوني
بعيدا عن البيت، أحسست بعجز وأسى هنا في هذا المكان بعيدا
عن البقعة التي يوجد بها البيت، في صمت الليل. ثم تذكرت
أن الليل هناك نادرا ما كان هادئا. فهناك البحر الصاخب عند
قاعدة الصخور، وأزيز آلاف الحشرات، والصرخات المتقطعة
بين الفينة والأخرى لطيور الليل، كل الضوضاء المألوفة التي
تجعل النوم عميقا جدا. وراكي هناك محاطا بها كالعادة، وليس
بإمكاني سماعها. لكنني أشعر بالذنب على نحو عميق لتركي
له، ضعف فظيع لا يوصف وحزن عند التفكير فيه، وهو مستقل
هناك بمفرده في البيت مع الزنجين، الأدميين الوحيدة على
مسافة ميل. إذا واصلت التفكير في النقطة الباردة فسأصبح
عصيبا أكثر فأكثر.

لم أذهب إلى السرير حتى الآن. إنهم يصرخون جميعا
بالضحك هنا في الطابق السفلي، هؤلاء البلهاء، لن أستطيع
النوم أبدا بأي حال. لا يزال البار مفتوحا، لحسن الحظ، أنه
في شارع جانبي مجاور للفندق. إنني بحاجة في هذه المرة إلى
القليل من الشراب.

بعد فترة طويلة لاحقا، لم أشعر بتحسن، ربما أصبحت
سكرانا بعض الشيء. انتهى الرقص الصاخب والحديقة هادئة
الآن، لكن الغرفة كانت حارة جدا.
بينما كنت أروح في النوم الليلة الماضية، وأنا بكامل ثيابي،

والضوء اللامع مسلط بخسة على وجهي، سمعت صوت المرأة السوداء ثانية، كان الصوت أكثر وضوحا حتى أكثر مما كان عليه بالأمس في السيارة. لسبب ما في هذا الصباح لم يكن هناك شيء من شك في عقلي في أن الكلمات التي سمعتها كانت هي الكلمات التي قالتها. سأقبل بهذا الأمر وأنطلق من هذا الأساس. على فرض أنها قد أخبرتني أن أبقى راكي في البيت، فمن الممكن أن ذلك كان يعني فقط، أنها أو أي شخص آخر في أورانج ووك، كان قد تشاجر شجارا طفوليا معه، على الرغم من أنني يجب عليّ أن أقول إنه من الصعب تصور دخول راكي في أي نوع من المهاترة أو العداء مع هؤلاء الناس. ولكي أبعث في نفسي الهدوء (فيبدو أنني بالفعل قد أخذت الأمر بكثير من الجدية)، سأتوقف في القرية عصر اليوم قبل أن أذهب إلى البيت، وأحاول أن أرى المرأة. فأنا في توق شديد إلى معرفة ما الذي كانت تعنيه.

لم أكن واعيا حتى هذا المساء عندما عدت إلى النقطة الباردة، كم هي قوية كل تلك العناصر المادية التي ترتب وتنظم وجودها: البحر وأصوات الريح التي تعزل البيت عن الطريق، ولمعان المياه، والسماء والشمس، والألوان الناصعة والروائح القوية للأزهار، والإحساس باتساع الفراغ داخل البيت وخارجه. فهذه الأشياء تتفاعل مع المرء بشكل طبيعي عندما يعيش هنا. عندما عدت اليوم بعد الظهر كنت واعيا بها من جديد، بوجودها وقوتها. إنها كلها مثل مخدر قوي، فالعودة جعلتني أشعر وكأنني صرت ثملا تماما وأنتي كنت أرجع إلى مشهد من مشاهد انغماسي الذاتي

السابقة. الساعة الآن الحادية عشرة كما لو أنني لم أغب أبدا ولو لساعة. فكل شيء كما كان عليه دائما، حتى أفرع النخيل الجافة التي كانت تحتك بستارة النافذة عند الكومودينو الخاص بي. وبالطبع، لم تتقض سوى ست وثلاثين ساعة منذ أن كنت هنا، لكنني كنت أنتظر دائما غيابي عن المكان لإحداث تغييرات لا سبيل إلى التراجع عنها.

برغم غرابة الموقف، بعدما فكرت فيه، فقد كنت أشعر بأن شيئا ما قد تغير منذ أن غادرت صباح الأمس، وهذا هو السلوك العام للخدم بصفة عامة، الجو المميز الذي يفهم جميعا كالهالة، إن جاز التعبير قد تغير. فبمجرد عودتي لاحظت الاختلاف على الفور، لكنه لم يكن قابلا للتفسير أو التحديد. إنني الآن أراه بوضوح. فشبكة التفاهم المشترك التي بسطت نفسها ببطء عبر الأسيرة والتي كانت تدار بنجاح قد تم تدميرها. أصبح كل شخص الآن بمفرده. ليست ثمة عداوة فيما بينهم، ومع ذلك، فيما مكاني رؤيتها. إنهم يتصرفون جميعا بمعاملة قصوى، ربما باستثناء بيتر، الذي أصابتي كآبته غير المعتادة بالذعر عندما قابلته في المطبخ بعد العشاء. وكنت قد عزمت على سؤال راكي إن كان قد لاحظها، لكنني نسيت وذهب هو إلى السرير مبكرا. توقفت قليلا في أورانج ووك توقفت قليلا متحججا لماك كوي برغبتي في رؤية الخياطة في الشارع الجانبي. سرت جيئة وذهابا أمام البيت حيث كنت قد رأيت المرأة، لكن لم تكن هناك علامة على وجود أي شخص.

فيما يتعلق بغيابي، بدا أن راكي كان راضيا تماما، فقد قضى

معظم اليوم في السباحة بعيدا عن الصخور التي توجد أسفل الشرفة. كانت أصوات الحشرات قد بلغت ذروتها الآن، والنسيم أكثر برودة عن المعتاد، وسأنتهز الفرصة لكي أنعم بالراحة في هذه الليلة الطويلة.

كان اليوم أحد أكثر الأيام صعوبة في حياتي. نهضت مبكرا، وتناولنا إفطارنا في الوقت المعتاد، ثم مضى راكي باتجاه كهوف القديس إيف. استلقيت في الشمس في الشرفة في الوقت المعهود لذلك، وأنا أستمع إلى ضوضاء الحركة المنزلية. كان بيتر يتجول في جميع أرجاء المبنى وما حوله، وهو يجمع أوراق النباتات والأزهار الميتة في سلة كبيرة ويحملها بعيدا نحو كومة السماد. وقد بدا في مزاج أكثر سوءا حتى من الليلة الماضية. عندما أصبح على مقربة مني في مكان من الأماكن وهو في طريقه إلى الطرف الآخر من الحديقة ناديته. فوضع السلة على الأرض ووقف ينظر إليّ، ثم مشى نحوي عبر العشب ببطء - على مضض، حسبما تراءى لي.

«بيتر هل كل شيء على ما يرام؟»

«نعم، يا سيدي».

«هل توجد مشكلة في البيت؟»

«آه، لا، يا سيدي».

«ذلك حسن».

«نعم، يا سيدي».

عاد بيتر إلى عمله. لكن وجهه كان يخفي كلماته. ليس لأنه بدا لي أنه كان في حالة مزاجية عصبية غير جيدة من دون

شك، بل لأنه بدا في ضوء الشمس مريضا بكل تأكيد . ومع ذلك، لم يكن الأمر يعني، ما دام قد رفض الاعتراف به .

عندما وصلت حرارة الشمس الشديدة إلى درجة غير محتملة بالنسبة إلي، نهضت عن الكرسي وهبطت جانب المنحدر بطول سلسلة من الدرجات المقطوعة هناك في الصخر . كان مستوى الدرج واطئا، وكذلك كان لوح الغطس، لأن المياه كانت عميقة . كانت الصخور ممتدة في كل جانب وكانت الأمواج تتكسر عليها، لكن عند البسطة كان هناك حائط رأسي من الصخر وكانت المياه تضربه فقط تحت منصة الوثب . المكان عبارة عن مدرج صغير، معزول تماما عن الصوت وعن النظر إليه من البيت . في هذا المكان أيضا أحب أن أستلقي في الشمس، وغالبا عندما أخرج من المياه أخلع سروالي وأتمدد عاريا تماما فوق منصة الوثب . كنت أسخر من راكي بشكل متكرر وأنا أداعبه لأنه كان يشعر بالحر من أن يفعل الشيء نفسه . كان يقوم به بين الحين والآخر، لكن ليس أبدا من دون مداينة وملاطفة من جانبي . كنت ممددا هناك وأنا مجرد من ملابسني تماما، واستمتع بهددة المياه التي كانت تضربني في رفق، عندما قال صوت غير مألوف على مقربة شديدة مني: «هل أنت السيد نورتون؟»

انتفضت بعصبية، وتقريبا سقطت عن منصة الوثب، فاعتدلت جالسا، وأنا أحاول في الوقت نفسه الوصول إلى سروالي، لكن من دون جدوى، فقد كان ملقى فوق الصخور تقريبا عند قدمي الرجل الخلاسي الذي كان في منتصف

العمر. وكان مرتديا حلة بيضاء من نسيج قطني متين، وقميصا برقبة عالية ورابطة عنق سوداء، وبدا لي أنه كان ينظر إليّ بدرجة معينة من الرعب.

كان رد الفعل التالي الذي صدر عني غاضبا لانتهاك خصوصيتي بهذه الطريقة. نهضت وارتديت سروالي، لكنني ارتديته بهدوء ولم أتقوه بشيء ذي معنى أكثر من: «لم أسمعك وأنت تهبط الدرج».

«هل لنا أن نصعد؟» قال ضيفي. بينما كان يتقدم الطريق، كنت متوجسا بشكل واضح من أنه كان هنا في مهمة غير سارة. جلسنا في الشرفة، وعرض عليّ سيجارة من سجائره الأمريكية لم أقبلها.

«هذا المكان مبهج»، قال، وهو يلقي بنظرة سريعة إلى البحر ثم عند نهاية سيجارته، التي كانت متوهجة بشكل جزئي، فنفخ فيها، قلت له: «نعم»، منتظرا منه أن يمضي في حديثه؛ وهو ما فعله بعد ذلك بقليل.

«أنا من شرطة المنطقة، كما ترى»، ونظر إلى وجهي، «وهذه محادثة ودية. لكن حتى الآن يجب أن تؤخذ كتحذير. يا سيد نورتون. إن الأمر خطير جدا. فلو كان شخص آخر قد جاءك بشأن هذا الموضوع فإن مشكلة كان يمكن أن تحدث. مشكلة كبيرة. لهذا السبب أردت رؤيتك بشكل خاص وبهذه الطريقة لكي يتسنى لي تحذيرك بصفة شخصية. كما ترى».

لم أكن متأكدا تماما من أنني كنت أستمع إلى كلماته. بعد فترة قلت بفتور: «لكن بخصوص ماذا؟»

«ليست هذه زيارة رسمية. يجب ألا تتزعج. لقد أخذت على عاتقي التحدث إليك لأنني أرغب في أن أوفر عليك مشكلة عميقة».

«لكنني منزعج!» صحت، ووجدت أن صوتي قد بلغ مداه.
«كيف يسعني ألا أنزعج، وأنا لا أعرف ما الذي تقصده؟»
حرّك كرسيه بالقرب مني، وتحدث بصوت منخفض جدا.
«كنت أنتظر حتى يبتعد الشاب الصغير عن البيت حتى يمكننا أن نتحدث على انفراد. أنت ترى، الأمر متعلق به؟»
لم يفاجئني هذا بطريقة أو أخرى. أومأت إليه فقال:
«سأخبرك باختصار شديد. الناس هنا ريفيون بسطاء، ويخلقون مشكلة بسهولة. إنهم جميعا يتكلمون الآن عن الشاب الذي يعيش معك هنا. إنه ابنك، على ما سمعت».
كانت تعبيرات صوته تحمل نبرة شك.
«إنه ابني بكل تأكيد».

لم يتغير تعبير وجهه، لكن صوته أصبح محملا بالاستياء.
«أيا كان هو، فهذا الشاب سيئ».

«ما الذي تعنيه؟» صحت، لكنه قاطعني بشكل عنيف «من المحتمل أن يكون ابنك، وقد لا يكون كذلك. لكنني لا أعبأ بمن يكون. فهذا ليس شأني. لكنه سيئ بكل ما في الكلمة من معنى. ليست لدينا هنا أشياء مثل هذه تحدث بهذه الطريقة، يا سيدي. الناس في أورانج ووك وخليج القديس إيفيز غاضبون الآن جدا. أنت لا تعرف ما الذي يفعله هؤلاء الناس عندما يستشارون».

اعتقدت أنه قد حان دوري الآن لكي أقاطعه. «من فضلك أخبرني لماذا تقول أن ابني سيئا. ما الذي فعله؟» ربما أثرت فيه الجدية التي كان صوتي محملا بها، لأن وجهه اعتراه مظهر ينم عن اللطف والدمائة. وهو لا يزال على مقربة مني همس إليّ تقريبا قائلاً: «لا يتمتع بأي نوع من حمرة الخجل. إنه يفعل ما يسره مع الأولاد الصغار جميعا، ومع الرجال أيضا، ويعطيهم في كل مرة شلنا حتى لا يفضحوا أمره. لكنهم يتكلمون. فكل رجل على مسافة عشرين ميلا في جميع أنحاء الساحل يعرف بأمره. والنساء كذلك، يعرفن بأمره». كان هناك فاصل من الصمت.

أحسست بنفسى وأنا أتأهب للوقوف على قدمي في الثواني القليلة الباقية، لأنني كنت أريد الدخول إلى حجرتي وأن أكون على انفراد، لأبتعد عن ذلك الحديث الهامس الصادم والمروع أخلاقيا. وأعتقد أنني تمتمت له بينما كنت أنصرف بشيء يشبه «عمت صباحا» أو «شكرا لك»، وبدأت في السير نحو البيت. لكنه كان لا يزال بجانبى، ومازال يهمس في أذني مثل متآمر مشتاق، قال: «دعه يلزم البيت، يا سيد نورتون، أو أرسله بعيدا إلى المدرسة، إذا كان ابنك. لكن اجعله يبقّى بعيدا عن هذه الأنحاء. لمصلحته».

صافحته وذهبت للاستلقاء في سريري. ومن هناك سمعت باب سيارته ينغلق، وينطلق بسيارته. كنت أحاول في ألم صياغة الجملة الافتتاحية التي سوف أستخدمها عندما أتحدث مع راكي فيما يتعلق بهذا الموضوع، فأنا أشعر بأن الجملة الاستهلالية سوف تحدد موقفى. كانت المحاولة مجرد نوع من

الفعل العلاجي، لأجنب نفسي التفكير في الموضوع ذاته. وقد بدا كل موقف مستحيلاً. لم يكن هناك من طريق إلى طرح الموضوع. وأدركت فجأة عدم قدرتي على التحدث معه مباشرة عن الموضوع. فالإتيان على ذكر خبر كهذا قد يجعل من راكي شخصاً آخر - بالغ، وغامض ومرعب. لأكون على بينة، خطر لي أن قصة الرجل الخلاسي قد لا تكون صحيحة بالفعل، لكنني وبطريقة آلية رفضت الشك في القصة. بدا لي الأمر على أنني كنت راغباً في تصديقها، كما لو كنت على دراية بها بالفعل، ولم يقم الشرطي سوى بتأكيد ما ليس إلا.

عاد راكي في الظهيرة، وهو يلهث ويبتسم ابتسامة عريضة. كان من الضروري استخدام مشط في الخُصل الصعبة المبللة بالعرق. وعندما جلس لتناول الغداء، هتف إليّ قائلاً: «يا للعجب، صدقني، لقد عثرت على شاطئ رائع هذا الصباح! لكن أي جهد شاق كان للوصول إليه!» حاولت أن أبدو غير مهتم بينما كنت أرمق تحديقته، وبدأ كما لو كانت أوضاعنا قد تم تبادلها، وكنت آمل في إيقاف توبيخه العنيف. فقد كان يثرثر عن أشجار الزعرور الشائكة والنباتات المعترشة وعن منجله. وظللت أقول لنفسي طيلة الوجبة «الآن هذه هي اللحظة المناسبة. يجب عليك أن تقول شيئاً ما». لكن كل ما قلته كان: «هل تريد المزيد من السلطة؟ أم ترغب الآن في تناول الحلوى؟» هكذا مر الغداء ولم يحدث شيء. بعدما انتهيت من تناول قهوتي مضيت إلى حجرة نومي ونظرت إلى نفسي في مرآة كبيرة. فرأيت عيني تحاولان أن تضفيا على

صورتهما المنعكسة في المرآة بعض الشجاعة. وبينما كنت واقفا هناك سمعت ضجة في الجناح الآخر من البيت، أصوات، وارتطامات، وصوت مشاجرة. وفوق كل هذه الضوضاء جاء صوت جلوريا الحاد في غطرسة واستثارة قائلة: «لا، يا ولد! لا تضربه!» وبصوت أكثر ارتفاعا «إنه بيتر، يا ولد، لا». ذهبت بسرعة نحو المطبخ، حيث بدا أنه مكان حدوث المشكلة لكنني اصطدمت في الطريق براكي، الذي كان يترنح في المدخل ويداه أمام وجهه.

«ما هذا، يا راكي؟» صحت.

اندفع متجاوزا إياي إلى حجرة المعيشة من دون أن يحرك يديه بعيدا عن وجهه، فاستدرت وتبعته. من هناك دخل إلى حجرته، وترك الباب مفتوحا خلفه. سمعته في حمامه يفتح المياه. كنت مترددا ما الذي أفعله. فجأة ظهر بيتر في مدخل الصالة، وقبعته في يده. عندما رفع رأسه، اندهشت لرؤيتي أن خده كان ينزف. وكان في عينيه تعبير غريب ومضطرب لخوف عابر وعداء عميق. نظر إلى أسفل مرة ثانية.

«هل من الممكن أن أتحدث معك، يا سيدي؟»

«ما كل هذه الضجة؟ ما الذي كان يحدث؟»

«هل من الممكن أن أتحدث معك في الخارج، يا سيدي؟» قالها

بعناد، وهو لا يزال ينظر إلى أسفل.

ونظرا للظروف فقد جاريته. سرنا ببطء فوق طريق مفروش بالحصى إلى الطريق الرئيسي السريع، ثم عبرنا الكوبري، وتوغلنا في الغابة بينما كان يخبرني بقصته. لم أقل شيئا.

وفي النهاية قال: «لم تكن بي رغبة في ذلك أبدا، يا سيدي، حتى في المرة الأولى، لكنني كنت خائفا، وكان السيد راكي يطاردني وفي أثري كل يوم».

وقفت ساكنا، وفي النهاية قلت: «فقط لو كنت أخبرتك بهذا في المرة الأولى التي حدث فيها هذا، فقد كان من الممكن أن يكون الأمر أفضل بكثير للجميع».

أدار قبعته في يديه، وتفرس فيها بحزم وتمعن. ثم قال «نعم. يا سيدي. لكنني لم أكن أعرف ما الذي كان الجميع يقولونه في أورانج ووك حتى اليوم. فأنت تعرف أنني أذهب دائما إلى الشاطئ في خليج القديس إيفيز مع السيد راكي في يوم إجازتي. لو كنت أعرف ما كانوا يقولونه جميعا ما كنت لأخاف، يا سيدي. وأنا أرغب في مواصلة العمل هنا. إنني بحاجة إلى المال». ثم أعاد ما سبق أن قاله بالفعل ثلاث مرات. «قال السيد راكي إنك ستشهد بهذا الذي أقوله لك ليتم وضعي في السجن. فأنا أكبر من السيد راكي بسنة، يا سيدي».

«أعرف، أعرف»، قلت بضيق نافذ، وتبين لي أن القسوة هي ما كان يتوقعها مني بيتر في هذه اللحظة فأضفت: «من الأفضل أن تلمم أغراضك وتذهب إلى بيتك. لا يمكنك العمل هنا بعد الآن، أنت تفهم».

كانت درجة العداوة البادية في وجهه تعكس خوفه من جميع النواحي عندما قال: «حتى لو قتلتي لن أعمل بعد الآن في النقطة الباردة، يا سيدي».

استدرت وسرت بخفة عائداً إلى البيت، تاركا إياه واقفاً هناك في الطريق. يبدو أنه قد عاد ساعة الغروب، منذ فترة قصيرة، وأخذ متعلقاته.

كان راكي يقرأ في حجرته. كان قد وضع شريطاً طبياً لاصقاً على ذقنه وفوق عظمة خده.

«لقد طردت بيتر». قلت ذلك مضيفاً. «فقد قام بضربك، أليس كذلك؟»

رفع رأسه إليّ. كانت عينه اليسرى متورمة، لكنها لم تكن قد صارت داكنة بعد.

«فعل ذلك بالتأكيد. لكنني ناولته واحدة، أيضاً. وأظن أنني كنت أستحق هذا على أي حال».

استندت على الطاولة. «لماذا؟» سألت بلامبالاة.

«آه. كان عندي شيء ما بخصوصه منذ فترة طويلة وكان يخشى أن أخبرك به».

«والآن فقط هددته بإخباري؟»

«آه، لا!» قال إنه كان على وشك أن يترك العمل هنا، ومازحته قائلاً له إنه وغد حقير».

«ولماذا أراد أن يغادر؟ أعتقد أنه كان يحب العمل هنا».

«حسناً، لقد كان كذلك فعلاً، على ما أعتقد، لكنه لم يكن

يحبني». خانت تحديقة راكي الصريحة ظل الكبرياء الجريحة لديه. لازلت أنا مستندا على الطاولة.

واصلت، «لكنني ظننت أنكما منسجمان معاً. وأنت بدورك كنت منسجماً معه».

«لا. كان خائفا فقط من أن يفقد عمله. كان عندي شيء ما عليه. كان ولدا جيدا، ومع ذلك، فقد أحببته حبا خالصا. هل ذهب حقا الآن؟» تسلمت إلى صوته رعشة غريبة بينما كان ينطق الكلمات الأخيرة، وفهمت للمرة الأولى في ذلك الحين أن التكلف أو مظاهر الخوف من الزلزل غير مناسبة تماما للموقف. كان منزعجا جدا لافتراقه عن بيتر.

«نعم، لقد ذهب»، قلت بشكل مقتضب. «ولن يرجع ثانية، أيضا». وبينما راح راكي يستمع إلى التغيير غير المألوف في صوتي، نظر إليّ فجأة بدهشة غير واضحة في عينيه الصغيرتين، فأدركت أن اللحظة قد باتت مناسبة للمواصلة في إصرار وإلحاح، مناسبة لأن أقول له: «ما الذي أمسكته عليه؟» وكأنه قد وصل إلى نفس النقطة في عقلي قبلي بجزء من الثانية، شرع في انتزاع فرصتي بعيدا بقفزه إلى أعلى، وانفجاره في غناء عال، ثم تجرد من ملابسه كلها في آن واحد. وبينما كان واقفا أمامي عاريا، وهو يغني بأعلى صوته، ثم اندس في سروال السباحة الخاص به، أدركت مرة ثانية أنني غير قادر على أن أقول له ما يجب عليّ أن أقوله.

كان موجودا داخل البيت وخارجه طيلة فترة بعد الظهر، يقرأ في حجرته بعض الوقت، ومعظم الوقت في الأسفل عند لوح الغطس. إنه لسلوك غريب عليه، فقط لو تسنى لي معرفة ما يدور في عقله. عندما اقترب المساء، اتخذت مشكلتي مظهرا استحواذيا مفرطا. سرت جيئة وذهابا في حجرتي، وكنت أتوقف بشكل مستمر في طرف منها لأتطلع عبر النافذة إلى الخارج حيث البحر، وفي الطرف الآخر منها لألقي بنظرة خاطفة على

وجهي في المرأة. كما لو أن هذا كان فيه عون لي! ثم تناولت كأساً. ثم أتبعته بأخرى. واعتقدت أنني سأقوى على القيام بهذا في العشاء، بسبب التشجيع الذي منحني الشراب إياه وأشعر به. لكن لا. فبعد وقت قصير سينبغي عليه الذهاب إلى سريره. ليس لتلك الدرجة التي توقعته تمكن لي مواجهته بأي اتهامات، فأنا أعرف أنني لن أقوى على القيام بهذا أبداً. لكن يجب أن أجد طريقة لأمنعه من القيام بجولاته، ويجب أن أقترح سبباً آخر لأسوقه إليه، حتى لا يشك أبداً في أنني أعرف.

نخشى من المستقبل على أولادنا. إنه موقف جدير بالسخرية والضحك منه، لكنه فقط أكثر وضوحاً وصراحة بعض الشيء من أي موقف آخر في الحياة. انقضت مدة من الزمن، أيام أنا راض لأنني عرفتها، بالرغم من أنها انتهت الآن. اعتقد أن هذه الفترة كانت كل ما انتظره من الحياة لتعطيني لي، إنها التعويض الذي حصلت عليه من دون وعي مني لكنني توقعته بشدة، كمقابل لكوني ممسوكاً بإحكام شديد في قبضة الوجود كل هذه السنوات.

يبدو ذلك المساء وكأنه منذ عهد طويل، فقط لأنني تذكرت تفاصيله مرات عديدة إلى درجة أنها اتخذت لون الأسطورة. في الحقيقة أن مشكلتي قد تم حلها بالفعل بالنسبة إلي وقتها، لكنني لم أعرف هذا. لأنني لم يكن بإمكانني إدراك النمط، فقد تخيلت بحماقة أنني يجب أن أفكر بعمق لأعثر على الكلمات الصحيحة المناسبة لمفاتحة راكي في الموضوع. لكنه هو الذي جاء إلي في ذلك المساء نفسه، بينما كنت على وشك أن أخرج في

نزهة بمفردي اعتقدت أنها ستساعدني في أن أعثر على صيغة مناسبة، وظهر عند باب غرفتي.

«هل أنت ذاهب لممارسة رياضة المشي؟» سألني، وهو يرى العصا في يدي.

احتمال الخروج على الفور بعد التحدث معه جعل الأمور تبدو أكثر بساطة. «نعم»، قلت، «لكنني أريد التحدث معك أولاً».

«بالتأكيد. عن ماذا؟» لم أنظر إليه لأنني لم أرغب في رؤية البريق المنتبه الذي كنت متأكداً من أنه يتحرك في عينيه في هذه اللحظة.

بينما كنت أتحدث رحت أطرق بعصاي على التصميمات المنقوشة على بلاط الأرضية. «راكي هل تحب أن تعود إلى المدرسة؟»

«هل تمزح؟ أنت تعرف أنني أكره الدراسة».

نظرت إليه نظرة خائفة. «لا. أنا لا أمزح. لا ترتعب بشدة هكذا. فربما ستستمتع بوجودك مع مجموعة من الرفاق في مثل سنك».

(لم يكن هذا هو النقاش الذي قصدت أن أديره).

«ربما أحب أن أكون مع الأولاد من نفس سني، لكنني لا أرغب في الذهاب إلى المدرسة لأكون برفقتهم. لقد نلت من التعليم ما يكفي».

مضيت إلى الباب وقلت بضعف: «ظننت أن هذا هو ما كانت تعنيه ردود أفعالك».

ضحك. «لا، شكرا».

«هذا لا يعني أنك لن تذهب»، قلت ملتفتا إلى الخلف بينما كنت أمضى إلى الخارج.

كنت أثناء سيري أدق بعصاي على أسفلة الطريق في قوة، وقفت على الكوبري وانتابتنى تصورات درامية كان من بينها احتمالات عدة مثل انتقالنا عائدتين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، أو أن يسقط راكي عن دراجته بطريقة سيئة ويصاب بالشلل بضعة أشهر، أو حتى احتمالية تركي للأمور أن تأخذ مجراها الطبيعي، الأمر الذي قد يعني من دون شك زيارتي له من وقت إلى آخر في السجن الحكومي بهدايا وطعام، لكن كل تلك الاحتمالات لم تعن ما هو أكثر من المأساوية والعنف. «لن يحدث شيء من هذه الأمور»، قلت لنفسي، وأنا أعرف أنني كنت أهدر وقتا ثميناً، وأنه يجب ألا يعود إلى أورانج ووك غدا.

رجعت إلى المكان بخطى بطيئة جداً. لم يكن هناك قمر، ولا يكاد يوجد نسيم. عندما اقتربت من البيت، حاولت أن أخطو برفق فوق الحصى كي لا أوقظ الحارس إرنست واضطر إلى أن أبين له أنني أنا وليس شخصاً آخر، لم يكن ثمة ضوء في حجرة راكي. كان البيت مظلماً إلا من مصباح خافت فوق الكومودينو الخاص بي. وبدلاً من أن أمضي إلى الداخل، درت حول البيت، فاصطدمت بالأحراش والتصق وجهي بأنسجة العنكبوت، ثم ذهبت للجلوس لفترة في الشرفة حيث كان يبدو أن ثمة نسمة هواء هناك. كان صوت البحر بعيداً في الخارج على الصخور، حيث كانت الأمواج تتهدد. وهنا في الأسفل، لم يكن من شيء سوى الهدير الخافت والخرير الناعم

من وقت إلى آخر. كان المد منخفضا على غير العادة. دخلت ثلاث سجائر بطريقة آلية، وأنا أتوقف حتى عن التفكير، ثم، عندما أصبح مذاق فمي مرا من أثر الدخان، مضيت إلى الداخل.

كانت حجرتي خالية من الهواء. قذفت ملابسي على أحد الكراسي ونظرت إلى الكومودينو لأرى إن كان إبريق الماء هناك. ثم انفغر فمي متثابا. كانت ملاءة السرير العلوية قد أزيحت إلى الورا عند مؤخرة السرير. وهناك في الطرف الآخر من السرير، استطعت أن أميز اللون الداكن نوعا ما في مقابل بياض ملاءة السرير السفلية، كان راكي، مستلقيا على جانبه، وعاريا تماما.

وقفت أنظر إليه لفترة طويلة، وأنا ممسك بأنفاسي على الأرجح، لأنني أتذكر أنني أحسست بالدوار قليلا في وقت معين، وبينما راحت عيناى تتبعان انحناء ذراعه، وكتفه وظهره، وفخذه، وساقه، كنت أهمس لنفسي قائلا: «طفل، طفل». القدر، عندما يلاحظه المرء وبوضوح من جميع جوانبه، فسوف يكتشف أنه لا ملامح له على الإطلاق. فالتعرف عليه والوعى بالتصورات والتخيلات الواضحة الرؤية لا يتركأ أي مكان في أفق العقل. في النهاية أطفأت النور واستلقيت إلى أسفل برفق. كان الليل حالكا تماما.

ظل مستلقيا بشكل ثابت حتى الفجر. لن أعرف أبدا ما إن كان نائما بالفعل طوال ذلك الوقت أم لا. بالطبع لم يكن بمستطاعه النوم، إنه لا يزال مستلقيا في ثبات تام. دافئ وساكن، لكنه كالميت. كان الظلام والصمت ثقلين من حولنا. عندما بدأت الطيور في الغناء، غرقت في إغفاءة نوم هادئ غلفتني، وعندما استيقظت فيما بعد في ضوء الشمس، كان قد ذهب.

وجدته في الأسفل عند الماء، يشب بمفرده في مرج فوق لوح القفز، وقد تخلص للمرة الأولى من سرواله من دون أي إحياءات أو اقتراحات من جانبي. بقينا معا طوال اليوم هنا وهناك، قرب الشرفة وفوق الصخور، ونحن نتحدث، ونسبح، ونقرأ، واستلقينا بشكل تام في الشمس اللاهبة. لم يعد راكي إلى حجرته عندما حل المساء. بدلا من ذلك، بعدما نام الخدم، أحضرنا ثلاث زجاجات شمبانيا ووضعناها في الدلو الذي قمنا بتجهيزه فوق الكومودينو.

وهكذا حدث أنني كنت قادرا على التطرق إلى الموضوع الذي كان لا يزال يشغلني ويؤرقني، واستغللا لفرصة التفاهم الجديد بيننا، أدليت بمطلبي في سهولة، وبطريقة طبيعية جدا.

«راكي هل تسدي لي معروفا كبيرا إذا طلبته منك؟»

استلقى على ظهره، ويداه تحت رأسه. بدا لي أن نظرته كانت حذرة، وتتوق إلى الصراحة والصدق. متسائلا:

«أظن ذلك»، قال. «ما هو؟»

«هل من الممكن أن تبقى في دائرة البيت لبضعة أيام، لنقل، أسبوعا؟ فبإمكاننا القيام ببعض النزاهات معا، بقدر ما تحب. هل من الممكن أن تفعل هذا لأجلي؟»

«يقينا»، قال وهو يبتسم.

كنت أحاول كسب الوقت، لكنني كنت فاقدا الأمل.

ربما بعد مرور أسبوع - فقط عندما يكون المرء غير سعيد تماما يدقق إلى حد الوسوسة فيما يتعلق بالوقت، لدرجة أنه قد يكون تقريبا مصابا بالوسواس - وبينما كنا نتناول إيطارنا،

وإيساه واقفا على مقربة منا، في الظل، في انتظار أن نطلب منه أن يصب لنا المزيد من القهوة. قال راكي: «لاحظت أنك قد تلقيت خطابا من العم تشارلي في الأيام القليلة الماضية، ألا تعتقد أنه تجب علينا دعوته إلى هنا؟»
بدأ قلبي يخفق بشدة.

«إلى هنا؟ إنه يكره المكان هنا»، قلت بشكل عرضي. «بالإضافة إلى أنه ليست هناك حجرة له. أين سينام؟» بينما سمعت نفسي أنطق بهذه الكلمات، تبينت أنها كانت كلمات خاطئة، لدرجة أنني لم أعد أشارك في المحادثة بصورة فعلية. وللمرة الثانية شعرت بالضعف الكامل الذي ينتاب المرء عندما يدرك فجأة ويرى أمام عينيه قدره يتشكل.

«في حجرتي»، قال راكي. «فهي خالية.»
أمكنني في تلك اللحظة أن أرى المزيد من المخطط الذي في ذهنه بأكثر مما توهمت وجوده. «هراء»، قلت، «ليست هذه من نوعية الأماكن المفضلة لدى العم تشارلي.»
بدأ أن راكي قد اهتدى أو هو بسبيله إلى الاهتداء إلى فكرة ممتازة. «ربما إذا كتبت أنا إليه ودعوته»، قال اقتراحه هذا، وهو يومئ إلى إيساه لمزيد من القهوة.

«هراء»، قلت ثانية، وأنا لا أزال أرقب المخطط وهو يكشف عن نفسه، مثل الصورة الفوتوغرافية التي تصبح واضحة بشكل متدرج منتظم في صينية محلول الإظهار.
ملأ إيساه فنجان راكي وعاد إلى الظل. وراح راكي يشرب ببطء، متظاهرا بتلذذه بالفنجان.

«حسننا، لن أتجشم أي عناء من جراء المحاولة، وهو بدوره سيقدر الدعوة»، قال في تأمل.

لسبب ما، عرفت عند هذه النقطة المفصلية ما الذي عليّ أن أقوله، وبينما كنت أقوله، صرت على دراية بما كنت على وشك أن أفعله.

«اعتقدت أن بإمكاننا أن نطير إلى هافانا لبضعة أيام في الأسبوع القادم».

بدا مهتما في تحفظ، ثم ارتسمت على فمه ابتسامة عريضة. «رائع!» صاح. «ولماذا ننتظر حتى الأسبوع القادم؟»

وفي الصباح التالي كان الخدم يقولون لنا إلى اللقاء، بينما كنا ننطلق فوق الطريق الحجري في سيارة ماك كوي. أقلعنا من المطار في السادسة مساء. كان راكي مبتهجا، وظل يتجاذب أطراف الحديث مع المضيفة طوال الطريق إلى «كاماجوي»^(٣٣).

كان مسرورا أيضا بهافانا. ونحن جالسان في البار في «ناسيونال»، استأنفنا مناقشة احتمال قيام تشارلز بزيارتنا في الجزيرة. لم يكن من الصعب عليّ في النهاية إقناع راكي بأن الكتابة لعمه ستكون غير مستحسنة.

قررنا أن نبحث هناك عن شقة مناسبة من أجل راكي في فيدادو. لم يبد أنه يود العودة إلى هنا في النقطة الباردة. قررنا أيضا أن المعيشة في هافانا ستحتاج إلى دخل أكبر له مما سأحتاج إليه أنا. إنني بالفعل أملك الجزء الأكبر من ملكية أمه «هوب» وقد

(٣٣) مدينة في وسط كوبا - المترجم.

قمت بتحويلها إلى وديعة ستكون تحت إدارتي حتى يبلغ راكي سن الرشد، فهي نقود أمه بالرغم من كل شيء.

اشترينا سيارة جديدة مكشوفة، واصطحبني بها إلى «رانكو بويروس» عندما كنت ذاهبا لألحق بطائرتي. وكان راكي قد التقى بولد كوبي يدعى كلاوديو، ذو أسنان شديدة البياض، في حمام السباحة ذلك الصباح، وكان يجلس بيننا.

كنا ننتظر أمام مهبط الطائرة. أخيرا قام أحد المسؤولين بفك السلسلة ليدع الركاب يمرون. «إذا أحسست بالسأم، تعال إلى هافانا»، قال راكي، وهو يضغط على ذراعي.

كان الاثنان واقفين خلف الحبل، يلوحان لي، وقميصاهما يرفرفان في الريح عندما بدأت الطائرة في التحرك.

الريح تعصف برأسي، بين كل هبة ريح وأخرى كانت هناك آلاف الأصوات الصغيرة والمتقطعة بالضبط مثلما تسرع المياه إلى الخارج من الصدوع والفتحات؛ إحساس بطفو جزئي، وإحساس بانغمار جزئي ويكون المياه تسكن عقلي بينما الشمس الساخنة تلهب وجهي وتحرقه. إنني جالس هنا أقرأ، وأنتظر الإحساس اللطيف بالامتلاء الذي يعقب تناول وجبة شهية، ثم يتحول ببطء، بينما تتقضي الساعات، إلى الإحساس الداخلي العميق بمزيد من البهجة والسرور، والذي يصاحب انبعاث الشهية واستيقاظها.

أنا في الحقيقة سعيد تماما هنا، لأنني لا زلت أعتقد أنه ليس ثمة شيء شديد العنف من المحتمل أن يضرب أو يصيب هذا الجزء من الجزيرة في المستقبل القريب.

في باسوروجو

عندما ماتت السيدة سانشيز العجوز، قررت ابنتها ليتشا وتشاليا زيارة أخيهما في مزرعته من منطلق الولاء لأمهما، كانت الابنتان قد اتفقتا على ألا تتزوجا أبدا مادامت أمهما على قيد الحياة، وبعدما رحلت، وكانتا قد تجاوزتا الأربعين بقليل، بدت فرصة زواجهما الآن في العائلة صعبة جدا عنها في أي وقت مضى. ربما لن تعترفا بهذا حتى لأنفسهما، مهما كان. اقترح دون فديكو بتفهم كامل على أخيه أن تتركا المدينة وتأتيا إلى باسوروجو لقضاء بضعة أسابيع. وصلت ليتشا مرتدية الكريب الأسود علامة الحداد. بالنسبة إليها، كان الموت أحد الأشياء التي تحدث في الحياة بانتظام معين، وبناء عليه كان الأمر يتطلب مراعاة خارجية للتقاليد الاجتماعية. بخلاف ذلك كانت حياتها لا سبيل إلى تغييرها، باستثناء أنها في المزرعة ستضطر إلى التعود على مجموعة كاملة من الخدم الذين لم تتعامل معهم من قبل.

«الهنود، أشياء رثة، حيوانات ناطقة»، قالت لدون فديكو في الليلة الأولى بينما كانا جالسين لتناول القهوة، كانت بنت حافية قد حملت لفورها أطباق الحلوى إلى الخارج.

ابتسم دون فديكو. «إنهم أناس طيبون»، قال في تأن. كانت المعيشة في المزرعة لمدة طويلة قد قللت من معاييرها في الحكم - كما كانت تقول - وعلى الرغم من أنه كان دائما ما يقضي شهرا أو نحو ذلك كل سنة في العاصمة، فإنه أصبح غير مبال بشكل متزايد بالحياة الاجتماعية للمدينة.

كانت ليتشا قد اعتادت أن تقول للسيدة سانشيز «إن المزرعة تأكل روحه بالتدريج»، وفي المرة التي أجابت فيها السيدة العجوز قالت: «إذا كانت روحه في سبيلها إلى التآكل، فلندع المزرعة تلتهمها إذن».

تفحصت حجرة الطعام البدائية بديكوراتها البسيطة المكونة من أوراق وأفرع النخيل: «إنه يحب المكان هنا لأن كل شيء ملك له»، فكرت ليتشا، «وبعض هذه الأشياء لن تصبح ملكا له إذا لم يقيم بتغييرها عن عمد لتصبح ملائمة». لم تكن تلك الفكرة مقبولة تماما. كانت تعرف أن المزرعة قد جعلته سعيدا ومتسامحا وحكيما، وبالنسبة إليها فقد بدا من المحزن أنه لم يكن قادرا على امتلاك هذه الأشياء من دون أن يفقد تحضره وتمدنه البراق المتألق، الذي خسره، من دون شك. كانت له بشرة فلاح، سمراء ومفضنة في كل جزء منها، كان يتحدث ببطء كالرجال الذين عاشوا لفترات طويلة من الزمن في الخلاء. وكانت نبرات صوته توحى بالصبر الذي يمكن أن يكتسب من التحدث إلى الحيوانات أكثر من التحدث إلى البشر. كانت ليتشا امرأة على دراية ووعي، ومع ذلك لم تكن لتقدر على الحيلولة دون الإحساس بقدر معين من الأسف لأن أخاها الصغير، الذي كان في فترة سابقة من حياته أفضل راقص بين أعضاء النادي في البلدة، قد أصبح ذلك الرجل النحيل، الحزين الملامح، الهادئ الذي كان يجلس أمامها.

- «لقد تغيرت كثيرا»، قالت فجأة وهي تهز رأسها من جانب إلى آخر في بطء.

- «نعم. إنك تتغيرين في هذا المكان كثيرا، لكنه مكان جيد».

- «جيد، نعم، لكنه كئيب جدا».

ضحك دون فديريكو: «ليس كئيبا على الإطلاق. سوف تعتادين الهدوء. وبعد ذلك ستجدين أنه غير هادئ على الإطلاق. لكنك لم تتغيري كثيرا. أليس كذلك؟ تشاليا تختلف، هي التي تغيرت. هل لاحظت ذلك؟».

- «كانت تشاليا مجنونة دائما. إنها لم تتغير أيضا».

- «لقد تغيرت كثيرا جدا». نظر إلى ما وراء المصباح الزيتي، إلى الخارج حيث الظلام: «أين هي؟ لماذا لم تتناول قهوتها؟».

- «إنها تعاني الأرق. إنها لا تشربها على الإطلاق».

- «ربما تجعلها لياalina تنعم بالنوم»، قال دون فديريكو.

كانت تشاليا جالسة في الشرفة العلوية في نسيم الليل اللطيف. كانت المزرعة تقع في خلاء شاسع أحاط بالغابة من جميع الجهات تقريبا، لكن القروء كانت تطلق صرخاتها من طرف إلى آخر، كأنه لم تكن هناك مساحة خلاء أو بيت المزرعة، كانت قد قررت تأجيل موعد ذهابها إلى السرير، بهذه الطريقة سيكون الظلام أقل حلقة ليحتمل إذا بقيت مستيقظة. كانت أبيات الشعر التي قرأتها في القطار قبل يومين لا تزال في ذهنها: «بصحة الليل^(٢٤)... في بعض الأحيان يأخذك الليل في داخله، يلفك، يطويك طيا، تاركا إياك مفسولا في النوم حتى حدود الصباح». كان هذان البيتان بمنزلة عزاء. لكن كان هناك بيت فضيع لم يأت بعد: «وفي بعض الأحيان يمضي الليل من

(٢٤) وردت بالإسبانية [الترجم].

دونك». حاولت أن تهرب من الصورة الخاصة بالصباح الجديد المشمس إلى فكرة غريبة تماما: النادل في نادي الشاطئ في «بونتاريناس»^(٣٥)، لكنها كانت تعرف أن الفكرة الأخرى في انتظارها هناك في الظلام.

كانت في أثناء رحلتها من العاصمة ترتدي بنطلون ركوب الخيل القصير وقميصا كاكي مفتوحا عند الرقبة، وقد أطلعت ليتشا على اعتزامها الاستمرار في ارتداء هذه الملابس طوال فترة وجودها في باسو روجو. وقد تشاجرت مع ليتشا في المحطة. «الجميع هنا يعرف أن أمنا قد توفيت، والذين لن يصدموها سوف يسخرون منك»، قالت ليتشا.

أجابت تشاليا بنبرة احتقار شديد في صوتها: «أنت أخذت رأيهم، على ما أعتقد».

عندما كانتا في القطار، وبينما كان ينحني عبر الجبال باتجاه «الأرض الدافئة»^(٣٦)، قالت فجأة ومن دون مناسبة: «إن اللون الأسود لا يناسبني». ما أصاب ليتشا بالانزعاج والضيق فعلا أنها ذهبت في بونتاريناس واشترت بعض طلاء الأظافر القرمزي حيث استعملته بصعوبة بنفسها في غرفة الفندق. «هذا غير ممكن، يا تشاليا!» صرخت أختها بدهشة، «إنك لم تفعلها من قبل. لماذا تفعلين هذا الآن؟».

ضحكت تشاليا ضحكة طويلة: «مجرد نزوة!» قالت وهي تمد يديها المزينتين أمامها.

(٣٥) ميناء في جنوب كوستاريكا [المترجم].

(٣٦) وردت بالإسبانية [المترجم].

جاء صوت خطوات تصعد السلالم ثم على امتداد الشرفة، التي اهتزت قليلا بفعل هذه الخطوات. نادتها أختها: «تشاليا!».

ترددت للحظة، ثم قالت، «نعم».

- «إنك تجلسين في الظلام! انتظري، سأحضر مصباحا من حجرتك، يا لها من فكرة جيدة!»

- «سوف تغطينا الحشرات»، قالت تشاليا معترضة، وعلى الرغم من أن مزاجها لم يكن صافيا، فإنها لم ترغب في أن تتسبب في تشويشه.

- «فدريكو يقول لا!» صاحت ليتشا من الداخل، «يقول إنه ليست هناك حشرات! لا توجد حشرات من النوع الذي يلسع أو يقرص، على أي حال!».

ظهرت الآن ومعها مصباح صغير وضعته على منضدة قبالة الحائط. جلست في أرجوحة مجاورة وأخذت تؤرجح نفسها برفق ذهابا وإيابا، وهي تدندن. نظرت إليها تشاليا بتجهم، لكن يبدو أنها لم تلاحظ ذلك.

- «يا للجو الساخن!» هتفت ليتشا أخيرا.

- «لا تجهدي نفسك كثيرا»، اقترحت تشاليا.

كانتا هادئتين. سرعان ما أصبح النسيم ريحا عاتية، تأتي من اتجاه الجبال البعيدة، لكنها كانت شديدة الحرارة، مثل أنفاس حيوان ضخم. تراقص ضوء المصباح، منذرا بالانطفاء، فنهضت ليتشا وخفضت من إضاءته. عندما كانت تشاليا تحرك رأسها كي تشاهدها، كان انتباهها مشغولا بشيء آخر، وسرعان ما بدلت تحديقها إلى حيث الحائط. كان هناك شيء ما ضخم،

أسود وسريع كان موجودا على الحائط منذ لحظة لكن الآن لم يعد هناك شيء. أخذت ترقب المكان بعزم ودقة. كان الحائط مكسوا بأحجار صغيرة لصقت فوقه وجرى طلاؤها بالكلس من دون عناية، لذلك كان السطح خشنا جدا ومملوءا بالثقوب الواسعة. نهضت فجأة واقتربت من الحائط، وأخذت تحقق فيه عن كثب. جميع الثقوب، الكبيرة والصغيرة، كانت مبطنه بأشكال بيضاء على هيئة أقماع. كان بإمكانها أن ترى الأرجل الطويلة النحيلة للعناكب التي كانت تعيش في الداخل، وهي تبرز إلى الخارج من وراء بعض هذه الأقماع.

«ليتشا، هذا الحائط مملوء بكائنات غريبة ومخيفة!» قالت صارخة. طارت خنفساء قرب المصباح، ثم غيرت رأيها وحطت على الحائط. انطلق أقرب عنكبوت إلى الأمام، وأمسك بالخنفساء ثم اختفى بها إلى داخل الحائط.

«لا تتظري إليها»، نصحتها ليتشا، لكنها ألقت نظرة خاطفة إلى الأرض قرب قدميها بطريقة متوجسة.

جذبت تشاليا سريرها إلى وسط الحجرة وحركت منضدة صغيرة إلى جواره. أطفأت المصباح واستلقت على «المرتبة» القاسية. كان صوت الحشرات الليلية عاليا بشكل غير محتمل، والصراخ الحاد المستمر يغطي على ضوضاء الريح. كانت جميع النباتات في الخارج جافة، وكان يصدر عنها الملايين من أصوات الاحتكاكات في الهواء كلما اندفعت الريح خلالها، والقردة ينادي بعضها البعض من وقت إلى آخر من مختلف الأنحاء، وكان أحد الطيور الليلية يصدر أصوات احتجاج بشكل عرضي، لكن صوته

ففي كل مرة كانت تبتلعه الأصوات اللوححة للحشرات واندفاع
الريح عبر الريف الساخن، الذي كان مظلما تماما .
أضاءت المصباح المجاور لسريرها بعد ساعة، ثم نهضت،
وذهبت بقميص نومها للجلوس في الشرفة. وضعت المصباح حيث
كان موضوعا من قبل، قرب الحائط، وأدارت كرسيها بمواجهته،
وجلست ترقب الحائط حتى ساعة متأخرة من الليل .
في الفجر كان الهواء باردا، ومملوءا بالأصوات المتواصلة
لخوار المواشي، بعيدا وفي الجوار. كان الإفطار قد جرى
إعداده بمجرد أن أشرقت السماء تماما . كانت هناك جلبة
صادرة عن أصوات النساء في المطبخ. وكانت حجرة الطعام
مملوءة برائحة الكيوسين والبرتقال. في منتصف المائدة طبق
كبير مكس بشرائح الأناناس السمكية الفاتحة اللون. جلس
دون فديكو في طرف المائدة، وظهره إلى الحائط. كانت خلفه
كوة صغيرة، مضاءة بالشموع، والسيدة العذراء واقفة هناك في
ثوب أزرق وفضي.

- «هل نمت جيدا؟» قال دون فديكو متوجها إلى ليتشا .

- «آه، بشكل رائع جدا!»

- «وأنت؟» إلى تشاليا .

- «لم أنم بشكل جيد على الإطلاق».

جرت دجاجة بشكل عشوائي إلى داخل الحجرة من الشرفة
فطاردتها إحدى الخادومات وأخرجتها . كانت مجموعة من أطفال
الهنود تقف خارج الباب تحرس ركنا تمتد فيه مجموعة من أحبال
الغسيل التي كانت تغطيها تشكيلة من اللحم الأحمر (أشرطة

من اللحم وتلافيف وبقايا الأعضاء الداخلية)، عندما انقض
نسر إلى أسفل، أخذ الأطفال يقفزون إلى أعلى وإلى أسفل،
وهم يصرخون في صوت واحد بشكل جماعي، حتى تمكنوا من
دفعه إلى التحليق في الهواء مرة ثانية. كانت تشاليا متجهمة من
ضوضائهم. ابتسم دون فدريكو قائلاً:

- «كل هذا تكريماً واحتفاء بكما»، «بالأمس ذبحنا بقرة وفي
الغد سيختفي كل هذا».

- «لن تختفي النسور!» صرخت تشاليا.

- «بالتأكيد لا. رعاة البقر والخدم كلهم يأخذون بعض هذه
القطع إلى بيوت أسرهم، وينجحون في استخلاص قطع مناسبة
منها لأنفسهم».

- «أنت كريم جداً»، قالت تشاليا، «إنه سيئ لهم. إنها تجعلهم
غير راضين وتساء، لكنني أعتقد أنك إن لم تعطها لهم، فسوف
يسرقونها على أي حال».

دفع دون فدريكو كرسيه إلى الوراء.

«لم يسرق أحد هنا أي شيء مني أبداً». نهض ومضى إلى
الخارج.

بعد الإفطار عندما يكون الوقت لا يزال مبكراً، وقبل أن ترتفع
الشمس في منتصف السماء، كان دون فدريكو يقوم بجولته المعتادة
في المزرعة وكانت تستغرق ساعتين. ونظراً إلى أنه كان يفضل
القيام بزيارات مفاجئة إلى رعاة القطعان المسؤولين عن المناطق
المختلفة، فإنه لم يكن يقوم في كل مرة بتغطية المناطق نفسها،
كان يشرح هذا لليتشا بينما كان يحل لجام حصانه ويسحبه

إلى خارج السور السلبي الشائك العالي المحيط بالبيت: «ليس لأنني أمل في أن أجد شيئاً ما خطأ، لكن هذه هي أفضل طريقة لاكتشاف أن كل شيء على ما يرام دائماً».

كانت ليتشا مثل تشاليا متشككة في قدرة الهندي على القيام بأي شيء بشكل مناسب. «فكرة جيدة جداً»، قالت: «أنا متأكدة من أنك رؤوف جداً ومتساهل مع هؤلاء الأولاد. إنهم في حاجة إلى قبضة قوية ومن دون شفقة أو رحمة».

فوق الأشجار العالية التي نمت خلف البيت كانت الببغاوات الأمريكية الحمراء والزرقاء ذات الذيل الطويل تزعق، وهي تكرر مسارها البيضاءوي في السماء بشكل لا نهائي. نظرت ليتشا إلى مسارها في الأعلى فرأت تشاليا واقفة في الشرفة العلوية، وهي تدس طرف قميصها الكاكي في بنطلونها القصير. «ريكو، انتظرا! أريد أن أذهب معك»، نادى تشاليا، وأسرعت إلى داخل حجرتها.

التفت ليتشا إلى أخيها: «إنك لن تأخذها معك بكل تأكيد، إنها لن تستطيع! ما يتعلق بأمننا...».

قطع دون فريكو عليها حديثها، لئلا يستمع إلى ما كان سيسبب له ألماً. «كلتاكما في حاجة إلى الهواء الطلق والمران. تعاليا».

صمت ليتشا للحظات، وهي تنظر بذهول إلى وجهه. وفي النهاية قالت: «لن أستطيع»، ومضت بعيداً لتفتح البوابة. كان عدد من رعاة البقر يتحركون بأحسنتهم في بطاء من الإسطبل باتجاه واجهة البيت. ظهرت تشاليا في الرواق السفلي وأسرعت إلى البوابة، حيث وقفت ليتشا تنظر إليها.

- «أنت ذاهبة إذن لركوب الخيل». قالت ليتشا. لم يكن صوتها ينم عن أي تعبير.

- «نعم. هل ستأتين؟ أعتقد لا. علينا أن نعود سريعا، أليس كذلك يا ريكو؟».

تجاهلها دون فديكو، ثم قال لليتشا: «سيكون من الجيد أن تأتي معنا».

لم تجب ليتشا بل مضت إلى البوابة وأغلقتها، فأشار إلى أحد رعاة البقر بالنزول عن حصانه ومساعدة تشاليا في امتطاء حصانه. جلست فوق الحيوان منفرجة الساقين وهي تبسم إلى الشاب.

- «الآن، لن يمكنك المجيء معنا. فليس لديك حصان!» صاحت بالشاب وهي تجذب اللجام بعنف لتجعل الحصان يقف ساكنا تماما.

- «نعم، يا سيدتي. سأذهب مع الرجال». كانت لغته قديمة ووقورة، لغة هندي قادم من الريف. كانت كلماتهم الهادئة المهذبة تضايقها دائما، لأنها كانت تعتقد، بطريقة خاطئة بعض الشيء، أن بإمكانها استشفاف السخرية تحت هذه الكلمات. «مثل الببغاوات التي تعلم بيتين من جونغورا^(٣٧)»، كانت ستقول هذا وهي تضحك، إذا ما طرح الموضوع. لكنها كانت متضايقه جدا الآن لسماعها تخاطب بلقب سيدة. «الأبله! يجب أن يعرف أنني لست متزوجة»، فكرت. لكنها عندما خفضت بصرها لتتظر إلى راعي البقر مرة ثانية لاحظت أسنانه البيضاء ووجهه الصغير

(٣٧) جونغورا يا أرجوتي (١٥٦١ - ١٦٢٧) شاعر إسباني [المترجم].

جدا . ابتسمت ثم قالت، «هذا الجو، كم هو ساخن بالفعل»، وفكت زر القميص العلوي.

جرى الولد إلى الإسطبل وعاد من فوره، ممتطيا حصانا أكبر وأكثر عصبية. كانت هذه بمنزلة مزحة لرعاة البقر الآخرين، الذين أخذوا في الضحك على الفور. سار دون فديكو وتشاليا جنباً إلى جنب، والولد خلفهما، يصفر لحنا ويطلق كلمات مهدئة على التناوب إلى حصانه الجفول.

سارت المجموعة لمسافة ميل أو نحو ذلك في المساحة المفتوحة الواقعة بين البيت والغابة، ثم أخذ العشب العالي يحتك بأرجل الركاب، بينما كانت الخيول تمضي إلى أسفل نحو النهر الذي كان جافاً إلا من جدول ماء ضيق في وسطه. ساروا متبعين قاع النهر في اتجاه التيار، وكانت النباتات تزداد ارتفاعاً، على امتداد الضفتين بينما كانوا يواصلون تقدمهم. كانت تشاليا في حالة مزاجية جيدة وقد طلّت أظافرها مجدداً قبل أن ينطلقوا. وراحت تناقش إدارة المزرعة مع دون فديكو. كانت النفقات والقدرة على تحقيق المكسب هي التي استحوذت على اهتمامها بصفة خاصة، على الرغم من أنه لم تكن لديها أي فكرة عن سعر أي شيء. كانت قد وضعت قبعة مكسيكية ضخمة وناعمة مصنوعة من القش ظلت تسقط حافتها على كتفها بينما كانت تتقدم في سيرها. كل عدة دقائق كانت تلتفت إلى الخلف ولوح إلى راعي البقر الذي كان لا يزال في المؤخرة، وتصبح إليه: «أبها الولد^(٢٨)! إنك لم تضل طريقك بعد».

(٢٨) وردت بالإسبانية [المترجم].

كان النهر قد انقسم في تلك اللحظة إلى قاعين شديدي التباعد عن طريق جزيرة كبيرة ظهرت أمامهم، وفي الجزء العلوي من الجزيرة يوجد سياج منيع من أفرع الأشجار وكرمات العنب. أسفل الأشجار العملاقة وسط بعض الصخور الرمادية الضخمة كان هناك قطيع من الأبقار أو نحو ذلك، وقد بدت الأبقار صغيرة جدا في الواقع بينما كانت مستلقية بانحناء في الطين أو تسير ببطء هنا وهناك بحثا عن ظل وارف. تقدم دون فديكو فجأة بسرعة إلى الأمام وتحدث بصوت عال مع رعاة القطعان الآخرين.

في الوقت نفسه تقريبا جذبت تشاليا لجامها وأجبرت حصانها على التوقف. بسرعة كان الرجل إلى جوارها. بينما كان يقترب قالت له: «الجو ساخن، أليس كذلك؟».

سار الرجل إلى الأمام، ودار دورة حولها. «صحيح، يا سيدتي. لكن هذا لأننا في الشمس» وأشار إلى الجزيرة «ثمة ظل. إنهم هناك الآن تقريبا».

لم تقل شيئا، لكنها خلعت قبعتها وراحت تهوي على نفسها بطرفها. وبينما كانت تحرك يدها ذهابا وإيابا نظرت إلى أظافرها المطلية باللون الأحمر قائلا:

«يا له من لون قبيح».

- «ماذا يا سيدتي؟».

- «لا شيء». صمتت ثم قالت «آه، يا للحرارة!».

- «هيا، يا سيدتي. هل لنا أن نمضي؟».

جعدت قمة القبعة المكسيكية في غضب بين قبضتها. «أنا لست سيدة»، قالت بشكل واضح، وهي تنظر إلى الرجل في

المقدمة. ابتسم الولد وواصلت هي سيرها بينما كانا ينطلقان إلى حيث توجد الأبقار ليوقظاها من خمولها. «أنا آنسة. وهذا ليس الشيء نفسه. أم أنك تعتقد أن الأمر لا يختلف؟».

كان الرجل متحيرا، فقد كان واعيا بانفعالها المفاجئ، لكن لم تكن لديه أي فكرة عن سببه. «نعم، يا آنسة»، قال بأدب، ومن دون اقتناع. ثم أضاف، بثقة زائدة، «أنا روبيرتو باز، في خدمتك».

سقطت أشعة الشمس عليهما وكانت تنعكس بفعل الميكا^(٣٩) الموجودة في الأحجار أسفل قدميهما. فكت تشاليا زرا آخر من قميصها.

- «الجو ساخن. هل سيعودون قريبا؟».

- «لا، يا آنسة. إنهم يعودون عبر الطريق الكبير. هل لنا أن نذهب؟» أدار حصانه صوب الجزيرة في المقدمة. قالت بعصبية: «أنا لا أريد أن أكون حيث توجد الأبقار، إنها حاملة للجاراباتا التي تصل إلى تحت جلدك».

ضحك روبيرتو كأنه يدللها «لن تتحرش بك إذا بقيت على حصانك، يا آنسة».

«لكنني أريد أن أنزل وأستريح. أنا متعبة جدا!» أصبح الإعياء الناجم عن الحرارة المزعجة واضحا بينما كانت تنطق كلماتها، هذا الضيق الذي كانت تشعر به كان من الممكن تحويله إلى حالة عامة من الشفقة على الذات والاكتئاب اللذين اعترياها كأوجاع مفاجئة. انتحبت وقد طأطأت رأسها: «أي، مادر ميا لا لامي

(٣٩) الميكا: مادة شبه زجاجية [الترجم].

المسكينة!» بقيت على هذا الوضع لفترة، ثم بدأ حصانها في السير ببطء نحو الأشجار الموجودة على ضفة قاع النهر. ألقى روبيرتو نظرة سريعة حائرة في الاتجاه الذي سلكه الآخرون. كانوا قد رحلوا جميعا خارج نطاق الرؤية إلى ما بعد الجزيرة، كانت الأبقار قد استلقت على الأرض مرة ثانية. «لا ينبغي أن تبكي يا آنسة».

لم تجب نظرا إلى أن اللجام قد واصل ارتخاءه، وواصل حصانها أيضا التقدم بخطوات أسرع نحو الغابة. عندما وصل الحصان إلى بقعة ظليلة على حافة الجدول، مضى الولد نحوها بسرعة قائلا «يا آنسة».

تهتدت ورفعت بصرها إليه، وقبعتها لا تزال في يدها. «أنا متعبة جدا»، قالت مكررة. «أريد أن أنزل وأستريح». كان هناك طريق يؤدي إلى الغابة. مضى روبيرتو إلى المقدمة ليقود السير، وهو يقطع العرائش والأحراش بمنجله. كانت تشاليا تتبعه، وهي تسير بكسل وتراخ فوق صهوة حصانها، وقد صارت أكثر هدوءا بفعل الدخول المفاجئ في العالم الأخضر للسمت ولطف الهواء النسبي.

تقدما ببطء خلال الغابة لمدة ربع ساعة أو نحو ذلك من دون أن يتحدث أحدهما إلى الآخر. عندما وصلا إلى بوابة فتحها روبيرتو من دون أن يترجل وانتظر تشاليا لكي تعبر خلالها. عندما مرت بجواره ابتسمت وقالت: «كم هو مكان لطيف هنا». أجاب، بطريقة جافة بعض الشيء، حسبما خيل إليها: «نعم، يا آنسة».

في المقدمة، خفت كثافة النباتات، وفي البعيد امتدت أرض شاسعة مفتوحة متعرجة قليلا، مزينة هنا وهناك، كما لو كان عن قصد، بجذوع بيضاء عملاقة من أشجار السيبية^(٤٠). كانت الريح الساخنة تهب عبر هذه الأرض المرتفعة، وكانت صيحات الزراير تملأ الهواء. أوقفت تشاليا حصانها وقفزت إلى الأرض. كانت النباتات الصغيرة شبه الشوكية التي غطت الأرض كلها تطلق تحت حذائها. جلست بعناية في الظل عند أقصى حافة الأرض المفتوحة.

ربط روبيرتو الحصانين إلى شجرة ووقف ينظر إليها، بعينين عدائيتين حذرتين لهندي يواجه ما لا يقوى على فهمه أو استيعابه.

«اجلس. هنا». قالت.

أطاع على مضض، وجلس وساقاه ممدتان على الأرض أمامه، كان ظهره شديد الاستقامة. أراحت يدها على كتفه. «يا للحرارة»، تمتت بالإسبانية.

لم تتوقع منه أن يرد، لكنه فعل، وبدأ صوته بعيدا. «إنه ليس خطئي، يا آنسة».

أطلقت ذراعها حول رقبتة وأحست بالعضلات وقد أصبحت مشدودة. مسحت وجهها في صدره، فلم يتحرك هو أو ينبس بكلمة. بعينيه المغلقتين ورأسها الذي كانت تضغطه بقوة، أحست كما لو كانت على صلة بالوعي فقط عن طريق الصرخات الصاخبة المتواصلة للزراير. ظلت على هذا الوضع برهة. كان

(٤٠) السيبية: شجرة أمريكية استوائية ضخمة [المترجم].

وجهه قد أصبح قناعا صعب الاختراق، لم يبد عليه التفكير في أي شيء، ولا حتى في كونه موجودا.

وهي تتنفس بصعوبة، رفعت رأسها لتتظر إليه، لكنها وجدت أنها لم تكن تملك الشجاعة لتبلغ عينيه بتحديقها. بدلا من ذلك نظرت إلى حنجرته وأخيرا همست، «لا يهم ما تظنه بي. يكفيني أن أتعلق بك هكذا».

أدار رأسه بجفاء بعيدا عن وجهها، وراح ينظر عبر الخلاء إلى الجبال. وقال بصوت أجش «من الممكن أن يأتي أخي عبر هذا المكان. يجب علينا أن نعود إلى النهر».

حاولت أن تدفن وجهها في صدره، كي تفقد نفسها مرة أخرى في هذا الإحساس العذب. من دون تحذير، تحرك بسرعة ونهض، إلى درجة أنها سقطت إلى الأمام ووجهها في الأرض.

المفاجأة الناجمة عن سقوطها البسيط بدلت مزاجها في الحال. نهضت قافزة، وانطلقت على نحو أعمى إلى أقرب حصان، وفي لحظة كانت قد امتطته بسرعة، قبل أن يتمكن هو من الصراخ قائلا: «إنه الحصان الشكس!» كانت قد لكزت جانبي الحيوان بكعبيها. رفع الحصان رأسه في انفعال، وبقفزة عنيفة بدأ في العدو بطول الطريق. عند الحركة الأولى أدركت بشكل لطيف أن ثمة تغييرا، وأنه ليس الحصان نفسه، لكن في غمرة إثارتها تناسست ملاحظتها. كانت مبتهجة بكونها تتحرك بسرعة وخفة عبر السهل ضد الرياح الساخنة. وكان روبيرتو وراءها في الخلف.

«أبله!» صرخت في الهواء بكل قوتها بالإسبانية، «أبله! أبله!» كان أمامها نسر ضخم، أصيب بالرعب والفرع من الأصوات الهستيرية للحوافر المقترية، فحلق بعيدا في السماء بشكل أخرق تعوزه البراعة.

بدأ السرج، الذي كان قد ربط خصيصا من أجل حركة أقل قوة ونشاطا، في الانزلاق. أمسكت بالحافة الأمامية المرتفعة من السرج، بيد واحدة، وبالأخرى أمسكت بقميصها مما أسفر عن جذب متشنج مزقه تماما فصار مفتوحا. انتابها إحساس قوي بالجدل والبهجة عندما ألقت بنظرة خاطفة إلى أسفل ورأت بشرتها البيضاء في ضوء الشمس.

على مسافة في أحد الجوانب، رأت بشكل باهت بعض أشجار النخيل تمتد فوق بقعة صغيرة في ما وراء النباتات السفلية. أغلقت عينيها: بدا النخيل مثل عناكب خضراء لامعة. كانت تعاني ضيقا في التنفس بسبب الاهتزاز. بينما الشمس ترسل أشعتها الحارقة. ظل السرج ينزلق أكثر فأكثر، ولم يكن بمقدورها أن تضبطه. لم يظهر الحصان أي علامة تدل على إدراكه لوجودها. جذبت الأعنة بقوة قدر استطاعتها من دون أن تسقط إلى الوراء، لكن لم يكن لهذا أي تأثير في الحصان، الذي واصل عدوه بأقصى سرعة، من دون أن يتبع أي مسار وتتفادى بعض الأشجار التي كانت على مقربة منه بقرب لا يزيد على بوصة.

«أين سأكون بعد ساعة؟» سألت نفسها. «ميتة. ربما؟» لم تكن فكرة الموت تخيفها بالطريقة نفسها التي تخيف بها بعض الناس.

كانت خائفة من الليل لأنها لا تستطيع النوم، لم تكن خائفة من الحياة أو الموت لأنها لم تشعر بتورطها أو انغماسها في أي من الاثنين إلى أي حد ولو ضئيل. فقط الناس الآخرون الذين عاشوا وماتوا، هم من يعرفون الحياة والموت، أما هي، بكونها داخل نفسها، فهي موجودة فقط كذاتها وليست كجزء من أي شيء آخر. البشر، والحيوانات، والأزهار، والأحجار كلها كيانات، وتنتمي جميعها إلى العالم الخارجي. وكانت التقابلات وعلاقات الجوار بينها هي التي صنعت الأنماط أو الأشكال العدائية أو الودودة. كانت تنظر في بعض الأحيان إلى يديها وقدميها لعدة دقائق، محاولة مقاومة الإحساس غير المحدد الذي كانت تمنحه لها بانتمائها هي أيضا إلى العالم الخارجي. لكن هذا لم يقلقها على نحو عميق من قبل أبدا. كانت تتلقى كل الانطباعات وتستقبلها من دون سؤال، فقد كان بإمكانها مكافحتها إلى حد بعيد عندما كانت تقلق راحتها بشكل قوي جدا.

بدأت تشعر هنا في شمس الصباح الساخنة، لكونها منجذبة إلى الأمام خلال الهواء، بأن كل ما بها تقريبا قد انسل إلى الخارج من عالمها الداخلي، وأن جزءا صغيرا منها هو الذي تبقى لها. وكان ذلك الجزء المتبقي مفعما بالدهشة وعدم التصديق، وفيه يكمن عدم الراحة الوحيد المتمثل الآن في تقبل حقيقة أن جذوع الأشجار البيضاء الضخمة كانت مستمرة في الإسراع على مقربة منها.

حاولت عدة مرات أن تشعر نفسها بالتواجد في مكان آخر: وسط حديقة الأزهار في البيت، في غرفة الطعام في الفندق

في بونتاريناس، حتى كملاذ أخير قد يكون مجديا، نظرا إلى أنها مارست ذلك في جو من التأزم من قبل، في سريرها بالمزرعة، والظلام من حولها.

بقفزة كبيرة، وثب الحصان فوق إحدى القنوات، فانزلق السرج بشكل كامل من الجانبين وتدلّى إلى أسفل. واصلت بقدر استطاعتها، التثبيت بجنبى الحصان عن طريق ساقها وكانت تجذب عنانه بشكل مستمر. فجأة أبطأ الحصان من سرعته وخطا بنشاط إلى داخل دغل. كان هناك طريق رديء، شكت في أنه كان الطريق نفسه الذي كانوا قد سلوكه عندما قدموا عن طريق النهر. جلست بخمول، لترى إلى أين سيذهب الحصان.

وفي النهاية ظهر قاع النهر كما توقعت، وهرب الحصان عائدا إلى المزرعة. كانت الشمس فوق الرأس مباشرة عندما وصلت هي والحصان إلى الإسطبل. وقف الحصان في الخارج، في انتظار أن يدخل، لكن لم يبد أن هناك أحدا في المكان. بمجهود كبير، نزلت إلى الأرض ووجدت أنها كانت تعاني صعوبة شديدة في الوقوف لأن ساقها كانتا ترتعشان بشدة. كانت محتاجة وتشعر بالخجل. عندما كانت تعرج باتجاه البيت تمنّت من أعماق قلبها ألا تراها ليتشا. قلة من البنات الهنديات ظهرن وكن الوحيدات الموجودات في المكان. جرجرت نفسها إلى الطابق العلوي وأغلقت عليها باب حجرتها. كان السرير قد جرى دفعه إلى الخلف قبالة الحائط، ولم تكن لديها القوة لتسحبه إلى المنتصف حيث كانت تريد.

عندما رجع دون فديكو والآخرين، مضت ليتشا، التي كانت تقرأ في الطابق السفلي، إلى البوابة وصاحت «أين تشاليا؟». «كانت متعبة. أعادها أحد الأولاد منذ فترة»، قال. ثم أضاف «حدث هذا مباشرة عندما أصبحنا في منتصف الطريق إلى كاناس».

تناولت تشاليا غداءها في السرير ونامت بعمق حتى وقت متأخر من بعد الظهر. وعندما خرجت من حجرتها ووقفت في الشرفة، كانت امرأة تمسح الغبار عن الكراسي الهزازة وتعيد ترتيبها في صف قبالة الحائط. «أين أختي؟» سألت تشاليا.

«ذهبت في الشاحنة مع السيد إلى القرية»، أجابت المرأة، ومضت إلى أعلى السلالم وبدأت كنسها ونفض الغبار عنها، الدرجة تلو الأخرى، بينما كانت ترجع إلى الخلف وهي تهبط. جلست تشاليا في كرسي ووضعت قدميها على سور المدخل، فكرت أن ليتشا لو كانت هنا لكان من الممكن أن تستهجن هذا الوضع. كان هناك منحني في النهر - الجزء الوحيد من النهر الذي كان على مقربة من البيت أسفلها مباشرة - وكان جانب من الضفة مرثيا لها عبر أوراق النباتات من حيث كانت تجلس. مدت شجرة خبز^(٤١) عملاقة فروعها إلى الخارج حيث الضلع المقابل للجدول تقريبا. كانت هناك بركة ماء عند المنحنى، بالضبط حيث نما جذع شجرة من الضفة الطينية. من بين الشجيرات خرج هندي يمشي بتأقل وراح يخلع بنطلونه وقميصه في هدوء.

(٤١) شجرة من فصيلة الخبزيات ثمارها كبيرة ذات لب نشوي يستعمل كالخبز [المترجم].

ثم وقف هناك للحظة، عاريا تماما، وهو ينظر إلى المياه، قبل أن يمشي إلى داخلها ويبدأ في الغوص والسباحة. عندما انتهى من استحمامه وقف على الضفة مرة ثانية، وهو يملس شعره الأزرق الداكن. كانت تشاليا متحيرة، لمعرفة أن قلة من الهنود كانوا وقحين وغير محتشمين جدا بحيث يستحمون عاريا على مرأى من الشرفة. للحظة أدركت، بإحساس غريب مفاجئ، بينما كانت تشاهده أنه كان روبيرتو وأنه كان يعلم تماما أنها موجودة.

«إنه يعرف أن ريكو قد ذهب وأن أحدا لن يراه من الطابق السفلي»، فكرت، وقد أصرت على إخبار أخيها عندما يعود إلى البيت. ملأتها فكرة الثأر من روبيرتو بإثارة ممتعة. راقبت تحركاته المتأنية بينما كان يرتدي ملابسه. جلس على صخرة مرتديا قميصه فقط وأخذ يمشط شعره. لمعت شمس العصر المتأخرة عبر أوراق الأشجار وأضفت على بشرته لونا برتقاليا. عندما ذهب أخيرا من دون أن يلقي ولو بتحية باتجاه البيت، نهضت هي ودخلت حجرتها. ونقلت السرير إلى منتصف الأرضية مرة ثانية، وبدأت تمشي حوله، كانت حالتها المزاجية تضطرب أكثر فأكثر كلما دارت في الحجرة.

سمعت باب الشاحنة ينغلق بقوة، وبعد لحظة، سمعت أصواتا في الأسفل. وهي تضع إصبعها على صدغها، حيث كانت تضعه هكذا دائما عندما كان قلبها ينبض بسرعة شديدة، تسللت إلى الخارج حيث الشرفة ثم إلى الطابق السفلي. كان دون فديكو في مخزن المؤن، الذي كان يفتحه لمدة نصف ساعة كل صباح ومساء. خطت تشاليا إلى الداخل عبر الباب، وفمها مفتوح بالفعل،

وهي تشعر بأن الكلمات على وشك أن تتفجر من رثتها. كان اثنان من الأطفال يدفعان بعملاتهما النحاسية بطول الكاونتر، وهما يشيران إلى الحلوى التي كانا يرغبان فيها. قرب المصباح كانت امرأة تتطلع إلى أحد المزاليج بين البضائع والسلع. وكان دون فديريكو فوق السلم، يحضر رتاجا آخر. انفلق فم تشاليا ببطء. خفضت بصرها إلى مكتب دون فديريكو القريب من الباب المجاور لها، حيث كان يحتفظ بدفاتر الحسابات وأوراقه النقدية. في صندوق سيجار مفتوح تقريبا في متناول يدها كانت هناك حزمة قدرة من أوراق البنكنوت. عادت إلى الحجرة قبل أن تعرف مقدارها. أغلقت الباب ورأت أنه كان في يدها أربع ورقات بنكنوت من فئة العشرة كولونات^(٤٢). حشرتها في جيب بنطلونها.

في العشاء سخرا من نومها الطويل بعد الظهر، وذكر لها أنها ستبقى مسيقظة طوال الليل مرة ثانية. كانت مهمكة في تناول طعامها «لو حدث ذلك، فسيكون هذا سيئا جدا»، قالت من دون أن ترفع عينيها نحوهما. «لقد قمت بترتيب حفلة موسيقية صغيرة بعد العشاء»، قال دون فديريكو. كانت ليتشا مبتهجة. واصل قائلاً: «لدى رعاة البقر بعض الأصدقاء هنا، جميعهم من باجاسيس، وقد انتهى راؤول من صناعة الماريمبا^(٤٣) الخاصة به».

(٤٢) الكولون وحدة النقد في السلفادور وكوستاريكا [المترجم].
(٤٣) الماريمبا: آلة موسيقية أفريقية الأصل، انتشرت وتطورت في أمريكا الوسطى، وتتألف من مجموعة من القضبان الخشبية المدرجة، وتزود في الغالب بجهاز في أسفلها لتقوية وتضخيم الصوت، يُعزف عليها بعصي خشبية [المترجم].

بدأ الرجال والأولاد في التجمع بعد العشاء بوقت قليل. كان هناك ضحك، وكانت الجيتارات تعزف في ظلام الشرفة. ذهبت الأختان للجلوس في المؤخرة قريبا من حجرة الطعام، وكان دون فدريكو في المنتصف مع الرعاية، بينما الخدم قد اصطفوا في مؤخرة المطبخ. بعد عزف عدة مقطوعات منفردة من جانب رجال مختلفين على الجيتار، بدأ راؤول وصديقه في العزف على الماريمبا. كان روبيرتو جالسا على الأرض بين رعاة البقر الذين لم يكونوا يقومون بالعزف.

«أقترح أن نرقص جميعا»، قال دون فدريكو، ونهض وأمسك بليتشا. تحركا هنا وهناك معا في مؤخرة الشرفة لفترة، لكن لم يتحرك أحد آخر.

«هيا إلى الرقص»، صاح دون فدريكو، وهو يضحك.

بدأ العديد من الفتيات في الرقص مثنى مثنى وهن خائفات، ثم أخذن يضحكن بصوت عال. لم يتزحزح أحد من الرجال. استمر راؤول وصديقه في دق اللحن نفسه على آلة الماريمبا مرارا وتكرارا. رقص دون فدريكو مع تشاليا، التي كانت مرهقة من ركوبها في الصباح، وسرعان ما استأذنت وغادرت. بدلا من أن تصعد إلى الطابق العلوي وتذهب إلى السرير مضت إلى الشرفة الأمامية وجلست تنظر في الخلاء المقمر الشاسع. كان الليل يوحى بالأبدية. وكان بوسعها أن تشعر به هناك، بالضبط وراء البوابة. لكن النغمات الموسيقية الرتيبة أبقت البيت حبيسا داخل حدود الزمن، محافظا عليه من أن يبتلع، وبينما كانت تستمع إلى المرح المتزايد، تولد لديها انطباع أن الرجال كانوا

يشاركون بدور أكبر فيه الآن. «من المحتمل أن يكون ريكو قد فتح لهم زجاجة شراب»، فكرت بغضب شديد.

في النهاية بدا أن الجميع كانوا يرقصون. ازداد فضولها إلى درجة عالية جدا، وكانت على وشك أن تنهض وتعود إلى الشرفة، عندما ظهر شخص ما في الطرف الآخر من الشرفة. لم تكن في حاجة إلى أن يخبرها أحد أنه كان روبيرتو. كان يسير في صمت نحوها، بدا أنه كان مترددا عندما وصل إليها، ثم جلس القرفصاء قرب مقعدها ورفع بصره إليها. كانت محقة، فرائحة الشراب كانت تشتت منه.

«مساء الخير، يا آنسة».

شعرت بأنها مدفوعة إلى أن تظل صامتة. ومع ذلك، قالت، «مساء الخير». ثم وضعت يدها في جيبها، وهي تقول لنفسها إنه يجب أن تقوم بهذا بطريقة سليمة وبسرعة.

بينما كان جاثما هناك ووجهه يلمع في ضوء القمر، انحنى إلى الأمام ومررت يدها فوق شعره الأملس. وأبقت أصابعها في مؤخرة رقبته، ثم مالت بثبات إلى الأمام أكثر. كان الشراب قويا جدا. لم يتحرك. بدأت تهمس في أذنه بصوت منخفض جدا: «روبيرتو، أنا أحبك. لدي هدية لك. أربعون كولونا. هنا».

أدار رأسه بسرعة وقال بصوت عال، «أين؟».

وضعت الأوراق النقدية في يده، وهي لا تزال ممسكة برأسه، ثم همست مرة ثانية: «هس! لا تنبس بكلمة لأحد. يجب أن أذهب الآن. سأعطيك المزيد غدا في المساء». وصرفته.

نهض ومضى خارج البوابة. وذهبت هي على الفور إلى الطابق العلوي حيث سريرها، وبينما كانت تروح في النوم كانت الموسيقى لا تزال مستمرة.

استيقظت بعد فترة طويلة وأشعلت مصباحها، كانت الساعة الرابعة والنصف. سوف يطلع النهار قريباً. وهي تشعر بامتلائها بطاقة غير معتادة، ارتدت تشالياً ثيابها، وأطفأت المصباح ومضت إلى الخلاء، أغلقت البوابة بسرعة خلفها. كانت الخيول في الإسطبل تتحرك بنشاط. سارت بمحاذاة الإسطبل ثم بدأت تمشي على امتداد الطريق إلى القرية. كانت ساعة هدوء شديد، حيث توقفت حشرات الليل عن إصدار الضوضاء التي تصدرها، ولم تبدأ الطيور بعد في تغريدها الصباحي المبكر. كان القمر منخفضاً في السماء، لذلك بقي خلف الأشجار معظم الوقت. أمامها في المقدمة كان كوكب الزهرة يتلألأ مثل قمر صغير. مشيت بسرعة، على الرغم من أنها كانت تشعر بوخزة ألم من وقت إلى آخر في وركها.

شيء ما قاتم ممدد أمامها في الطريق جعلها تتوقف عن المشي. لم يكن يتحرك. نظرت إليه بعناية، وهي تخطو بحذر نحوه، وهي على استعداد لأن تركض إلى الطريق الآخر. نظرا إلى أن عينيها كانتا معتادتين على شكله، أدركت أنه رجل مستقل في سكون تام. وعندما أصبحت على مقربة منه عرفت أنه روبيرتو. لمست ذراعه بقدمها. لم يستجب. انحنت فوقه ووضعت يدها على صدره. كان يتنفس بعمق، وكانت تنبعث منه رائحة شراب قوية إلى حد ما. انتصبت وركلته برفق في رأسه. كانت

هناك أنة صغيرة من بعيد صادرة من داخله . أحست بقوة وخفة رائعتين بينما كانت تتحایل لتتمكن من تحريك جسده بقدمها في بطة إلى الجانب الأيمن من الطريق . كان هناك جرف صغير ، على ارتفاع عشرين قدما تقريبا . عندما وصلت به إلى الحافة ، انتظرت برهة من الوقت ، وراحت تنظر إلى ملامحه في ضوء القمر . كان فمه مفتوحا بعض الشيء ، والأسنان البيضاء بارزة إلى الخارج من خلف الشفتين . ملست على جبهته عدة مرات وبدفعة رقيقة دحرجته من فوق الحافة . سقط بثقل شديد ، مصدرا صوت حيوان غريب عندما اصطدم بالأرض .

عادت ثانية إلى المزرعة بأقصى سرعة . كان الصباح على وشك الحلول عندما وصلت . مضت إلى داخل المطبخ وطلبت إفطارها ، ثم قالت : « لقد استيقظت مبكرا » . قضت اليوم بأكمله في أرجاء البيت ، تقرأ وتتحدث إلى ليتشا . اعتقدت أن دون فديكو كان مشغولا عندما خرج في جولته الصباحية التفقدية ، بعد إغلاق مخزن المؤن . وظنت أنه كان لا يزال مشغولا أيضا عندما عاد ، وأخبرته بذلك على العشاء .

- « إنه أمر هين » ، قال . « لا يبدو أنني قادر على ترصيد دفاتري » .

- « لقد كنت بارعا دائما في الرياضيات » ، قالت تشاليا .

أحضر بعض رعاة البقر روبيرتو بعد الظهر إلى المزرعة . سمعت ضجة في المطبخ وبعض صيحات الخدم قائلة : « يا إلهي ، إنها الخمر ! »^(٤٤) ، فخرجت لتتبين الأمر . كان قد

(٤٤) وردت بالإسبانية [الترجم] .

استرد وعيه، وكان ممددا على الأرض وجميع الهنود الآخرين من حوله يحدقون فيه.

«ما الأمر؟» قالت.

ضحك أحد رعاة البقر. «لا شيء ذا أهمية. لقد شرب كثيرا - أتى راعي البقر بإشارة تجسد وصف الشرب من زجاجة - فسقط بعيدا على جانب الطريق. لم يصب إلا بكدمات، على ما أظن».

بعد العشاء طلب دون فديريكو من ليتشا وتشاليا أن تحضرا إلى مكتبه الخاص الصغير. بدا متوترا، وتحدث ببطء فاق بطأه المعتاد. عندما دخلت تشاليا رأت روبيرتو واقفا في الباب. لم ينظر إليها، جلست ليتشا وتشاليا، وظل دون فديريكو وروبيرتو واقفين.

«هذه أول مرة يفعل فيها أحد هذا معي»، قال دون فديريكو، وهو ينظر إلى الأرض في السجادة، ويداه معقودتان خلف ظهره. «لقد سرقني روبيرتو. لا يزال بعض المال المفقود في جيبه، ما يزيد على أجرته الشهرية. أعرف أنه قد سرقه لأنه لم يكن معه مال بالأمس ولأنه»، والتفت إلى تشاليا، «لأنه يستطيع تبرير امتلاكه له فقط عن طريق الكذب. فهو يقول إنك قد أعطيته له. هل أعطيت روبيرتو أموالا بالأمس؟».

بدت تشاليا متحيرة. «لا»، قالت، «فكرت في إعطائه كولونا عندما أعادني من النزهة صباح الأمس. لكنني اعتقدت أنه سيكون من الأفضل لو انتظر حتى موعد مغادرتنا إلى المدينة. هل كانت كثيرة؟ إنه مجرد صبي».

قال دون فديريكو: «كانت أربعين كولونا . لكن هذا يعادل أربعين سنتافو . السرقة...».

قاطعته تشاليا . «ريكو! أربعون كولينزا! ذلك كثير! هل أنفق الكثير منها؟ يمكنك أن تستقطع ما أنفقه من أجرته بالتدريج». كانت تعرف أن أياها كان سيقول ما قاله بالفعل، بعد لحظة . «أبدأ، سيرحل الليلة . ومعه أخوه».

أمكن لتشاليا أن ترى في الضوء الخافت الكدمة الأرجوانية الكبيرة في جبين روبيرتو، الذي أبقى رأسه منكسا ولم يرفعه، حتى عندما نهضت هي وليتشا وغادرتا الحجرة بناء على إشارة من أخيهما .

ذهبتا إلى الطابق العلوي وجلستا في الشرفة . «يا لهم من همجيين!» قالت ليتشا في سخط . «قد يتعلم ريكو المسكين يوما ما كيف يعاملهم . لكنني أخشى أن يقتله أحدهم أولا».

تأرجحت تشاليا ذهابا وإيابا، وهي تحاول التهوية على نفسها بكسل «ربما يتغير مع المزيد من هذه الدروس»، قالت . ثم صاحت «يا للحرارة!».

سمعتا صوت دون فديريكو في الأسفل عند البوابة . قالت في صرامة بالإسبانية «أبله!». كانت هناك ردود خافتة ثم أغلقت البوابة . انضم دون فديريكو إلى أخته في الشرفة . كان يجلس في حزن .

«لم تكن بي رغبة في طردهما ليلا سيرا على الأقدام»، قال، وهو يهز رأسه . «لكن هذا الروبيرتو شخص سيئ . كان من

الأفضل أن أطرده بشكل نهائي وإلى الأبد، وبسرعة. جون طيب، لكن كان يجب علي التخلص منه أيضا، بالطبع».

«واضح، واضح»، قالت ليتشا بالإسبانية في دھول. ثم التفتت فجأة إلى أخيها وهي ممثلة بالقلق، وقالت «أتمنى أن تكون قد تذكرت أن تأخذ منه المال الذي قلت إنه كان لا يزال في جيبه».

«نعم. نعم»، أكد لها، لكنها عرفت من نبرة صوته أنه جعل الولد يحتفظ به لنفسه.

ألقى دون فديكو وليتشا بتحية المساء وذهبا إلى فراشهما. جلست تشاليا لفترة، وكانت تتظر بغموض إلى الحائط الذي توجد فيه العناكب. ثم تئأبت وأخذت المصباح إلى حجرتها. للمرة الثانية، كان السرير قد أعيد إلى مكانه قبالة الحائط بواسطة الخادمة. هزت تشاليا كتفيها، واستلقت في السرير حيث كان، أطفأت المصباح، وأنصت لدقائق قليلة إلى الأصوات الليلية، ونامت في هدوء، وهي تفكر في كيف أنه من المدهش أنها في غضون وقت قليل أصبحت معتادة على الحياة في باسو روجو، بل، ويجب عليها أن تعترف الآن، بأنها تستمتع بالمكان كذلك.

سنيور أونج وسنيورها

في آخر شارع البلدة الطويل يقع جبل أخضر يرتفع إلى عنان السماء بزاوية قدرها خمس وأربعون درجة، وترامت منحدراته المتسلسلة في وعورة من المرتفعات المتاخمة للسحب إلى أسفل نحو الوادي حيث كان النهر يجري. على الرغم من أن الأرض كانت خصبة في الوادي، لم تكن هناك مزارع أو بساتين؛ لأن أهل البلدة كانوا كسالى ولم يرغبوا في إزعاج أنفسهم بإزالة الصخور التي غطت الأرض. ثم إن الجو كان حارا جدا بشكل دائم بالنسبة إلى هذا النوع من العمل، وكان الجميع في ذلك المكان مصابين بالمalaria، لذلك سقطت البلدة منذ وقت طويل في قبضة نمط المعيشة المتواضع أو الضئيل المعتمد على الهنود الذين كانوا يهبطون من الجبال ويجلبون الطعام، ثم يعودون بالقماش الرخيص، والمناجل وأشياء أخرى مثل مرايا أو زجاجات فارغة. كانت الحياة في هذه البلدة سهلة دائما؛ على الرغم من أنه لم يكن هناك أحد غنيا، ومع ذلك لم يعرف أحد الجوع في أي وقت. كان لكل بيت تقريبا بعض أشجار البابايا والمانجو بجواره، وكان هناك الكثير من ثمار الأفوكادو^(٤٥) والأناناس في السوق في متناول المعدم أو المفلس.

تغير القليل من هذا عندما بدأت الحكومة في بناء السد الكبير إلى أعلى. لم يبد أن أحدا كان يعرف بالضبط أين يوجد السد؛ فقد قاموا ببنائه في مكان ما في أعلى الجبال؛ حيث كانت المياه

(٤٥) نبات أمريكي استوائي ثماره شبيهة بالكمثرى - [المترجم].

قد غطت عدة قرى بالفعل، والآن بعد ست سنوات كان العمل في البناء لا يزال مستمرا. وهذا الجزء الأخير هو الأكثر أهمية في الأمر، لأنه كان يعني أن الهنود عندما كانوا يهبطون في الوقت الحالي من أعلى صاروا يجلبون معهم ليس الطعام فقط بل والمال أيضا. لذا حدث فجأة أن وجد بعض الناس في المدينة أنفسهم أغنياء. كان من الصعب عليهم هم أنفسهم تصديق ذلك، لكن كان هناك مال، ولا يزال الهنود يواصلون نزولهم ويتركون المزيد والمزيد منه على كاونترات محلات هؤلاء الأغنياء الذين لم يعرفوا ما الذي يفعلونه بكل هذه البيزوات التي هبطت عليهم فجأة. معظمهم قام بشراء الراديوهات الكبيرة التي كانوا يتركونها تعمل منذ الصباح الباكر حتى المساء، وكانت جميعها مضبوطة كلها على برنامج «تاباتشولا»، لدرجة أنهم عندما كانوا يسيرون على امتداد الشارع الرئيسي كان بإمكانهم سماع البرنامج ومتابعته من غير انقطاع. لكن حتى ذلك الحين كانوا لا يزال لديهم مال. أحضر «بيب جيمينيز» سيارة جديدة لامعة في العاصمة، لكن بمرور الوقت، كان يقفل عائدا إلى المدينة، بعد قيادته لها لما يزيد على ستين ميلا في الطريق من «ماباستينانجو»، ولم تعد السيارة شيئا مثيرا للإعجاب، وأحس أنه أقدم على عملية شراء غير حكيمة. بل إن الشارع الرئيسي كان وعرا جدا وموحلا بالنسبة إليه كي يقودها عبره جيئة وذهابا، ولذلك ظلت واقفة والصدأ يأكلها أمام بار «مي إسبيرانزا»، عند الجسر. عندما كان نيكو ورفاقه يعودون من المدرسة كانوا يعيشون بها، متظاهرين أنها بمنزلة حصن. لكن مجموعة من الأولاد الأكبر سنا من أعلى

نهاية المدينة جاءوا يوما ما وخصصوا السيارة لألعابهم، حتى أن الأولاد الذين كانوا يعيشون عند النهر لم يعودوا يجروون على الاقتراب منها.

عاش نيكو مع عمته في بيت صغير كانت حديقته تنتهي بمساحة شاسعة من النباتات والتعريشات، التي كان تحتها مباشرة يجري نهر سريع، ويرتطم من جانبيه بصخرة تلو أخرى في واديه الضحل الممتلئ بالضباب. كان البيت نظيفا وبسيطا، وكانا يعيشان في هدوء. كانت عمه نيكو ذات طبيعة بسيطة جدا، ولأنها على دراية بهذا، شعرت أن إحدى الطرق لإعطاء ابن أختها المتوفاة الاهتمام المناسب كانت محاولة غرس الانضباط فيه؛ وكان الانضباط يتمثل في مناداته باسمه الحقيقي، وكان ديونيزيو.

لم يكن لدى عمه نيكو أي فكرة عن الانضباط في ما يتعلق بمعيشتها، لذلك لم يندهش الصبي عندما جاء يوم قالت له: «ديونيزيو، عليك أن تتوقف عن الذهاب إلى المدرسة. ليس لدينا المزيد من المال. سوف يستأجرك دون أناستازيو مقابل عشر بيزوات في الشهر للعمل في محله، ويمكن أن تحصل على وجبة الظهيرة هناك أيضا. مع الأسف^(٤٦)... لكن لا توجد نقود!»

مكث نيكو لمدة أسبوع في المحل يتعلم أسعار القطع التي كان يبيعها دون أناستازيو، إلى أن عاد إلى البيت ذات مرة فوجدت رجلا غريبا في مظهره، كان يجلس على الكرسي الهزاز الآخر أمام عمته. بدا الرجل يشبه قليلا بعض الهنود الذين كانوا

(٤٦) وردت بالإسبانية - [المترجم].

ينزلون من الجبال البعيدة والعالية، لكن بشرته كانت أقل سمرة، وكان ممتلئ الجسد وأكثر رخاوة، وكانت عيناه مغلقتين تقريبا. ابتسم إلى الولد، لكن بطريقة لم يعتقد نيكو أنها ودودة وحميمية جدا، وصافحه من دون أن ينهض عن كرسيه. بدت عمته في تلك الليلة بالفعل سعيدة جدا، وبينما كانا يستعدان للذهاب إلى الفراش قالت له: «سوف يأتي السنيور أونج للعيش معنا. لن يجب عليك العمل بعد الآن. لقد كان الله كريما معنا».

لكن خطر في بال نيكو أنه إذا كان السنيور أونج بصدد المجيء للعيش معهما، فإنه سيفضل الاستمرار في العمل عند دون أناستازيو، حتى لا يكون موجودا في البيت وبالتالي يضطر إلى رؤية السنيور أونج كثيرا جدا. قال بلباقة: «إنني أحب دون أناستازيو». فنظرت عمته إليه بحدة، «السنيور أونج لا يريدك أن تعمل إنه رجل متكبر، كما أنه غني بالقدر الكافي لإطعامنا، إن هذا ليس بالكثير عليه لقد جعلني أرى أمواله».

لم يكن نيكو مسرورا على الإطلاق، وراح في النوم ببطء، وذهنه ممتلئ بالهواجس والشكوك. كان خائفا من أن يجد نفسه في يوم من الأيام يتعارك مع السنيور أونج. وبالإضافة إلى ذلك، ما الذي سيقوله أصدقاؤه؟ فقد كان السنيور أونج رجلا غريب الأطوار بعض الشيء. لكن في الصباح التالي مباشرة كان قد وصل من فندق «باريسو» مع ثلاثة أولاد كان نيكو يعرفهم، وكان كل منهم يحمل فوق رأسه حقيبة كبيرة. شاهدتهم من الحديقة وهم يتلقون البقشيش السخي الذي أعطاه لهم السنيور أونج، ثم انطلقوا إلى المدرسة من دون انتظار ليروا إن كان نيكو يريد

التحدث معهم أم لا. «ذلك سيئ جدا». قال نيكو لنفسه بينما كان يركل الأحجار هنا وهناك فوق أرضية الحديقة الترابية الجرداء. وبعد فترة قصيرة مضى إلى النهر وجلس فوق قمة أكبر صخرة وأخذ يشاهد الماء الذي يشبه اللبن وهو يضطرب من تحته. كان أحد ببغاواته الخمسة من نوع الكوكاتوس يصرخ من بين كتلة أوراق شجر فوق الضفة. «كالاتي!» صرخ نيكو فيه بالإسبانية؛ فقد ضايقه سلوكه السيئ بنفس القدر الذي ضايقه به وصول السنيور أونج.

وقد انتهى كل شيء تقريبا إلى ما كان يخشاه - بل وأسوأ - فبعد يومين قال له أحد الأولاد الذين يقطنون في آخر الشارع أثناء مروره: «مرحبا يا تشالي^(٤٧)». رد على التحية بطريقة آلية ثم تابع سيره، لكن بعد دقيقة قال لنفسه: «تشالي؟ لكن ذلك يعني رجلا صينيا! تشينك!» بالطبع لا بد وأن السنيور أونج رجل صيني. استدار ونظر إلى الولد، وفكر في أن يضربه بحجر في ظهره، ثم طأطأ رأسه ومضى في سيره ببطء، لن يمضي أي شيء على ما يرام.

انتشرت المزحة بالتدريج، لدرجة أن أصدقاءه بعد فترة قصيرة كانوا ينادون عليه بكلمة تشالي عندما يقابلونه، وعلى الرغم من أنه بالفعل هو الذي أصبح أقل توددا وصدافة، فإنه تخيلهم جميعا يتجنبونه لدرجة أنه لا أحد عاد يرغب في رؤيته بعد الآن، وكان يقضي معظم وقته في اللعب وحده عند النهر. كان صوت الماء يصم الآذان، لكنه في نفس الوقت جعله يشعر بتحسن بعض الشيء.

(٤٧) وردت بالإسبانية - [المترجم].

لا السنيور أونج ولا عمته أعاراه كثيرا من الانتباه، باستثناء طلباتهما الثابتة والمتكررة عندما تحين أوقات تناول الطعام لكي يأكل، «الآن بعد أن أصبح لدينا المزيد من الطعام أكثر مما نحتاج إليه، لا تريد أن تأكل»، كانت عمته تقول له في غضب. ويقول السنيور أونج «كل يا ديونيسيو». فيرد نيكو بالإسبانية: «سمعا وطاعة»، وهو مفعم بالاستياء، لكن في نبرة توحى بالازدراء، وكان يقضم قطعة صغيرة من الخبز المكسيكي ويمضغها ببطء شديد.

لم يبد أن هناك سؤالا أو اهتماما بشأن عودته إلى المدرسة، على الأقل لم يتم ذكر الموضوع أبدا، الأمر الذي كان مسرورا به كثيرا، نظرا إلى أنه لم تكن به رغبة للعودة بين أصدقائه فقط ليسمعهم ينادونه بتشالي. كان من الممكن أن يكون الاسم ذاته محتملا لو لم يكن ينطلق من السخرية من حياته المنزلية، وقد بدا ضعفه تجاه تغيير ذلك الوضع أكثر خزيا بكثير من أي وضع كان من الممكن أن يجد نفسه مخطئا فيه. ولذلك كان يقضي أيامه بعيدا عند النهر، وهو يقفز مثل عنزة عبر الصخور، ويلقي بالأحجار لإخافة النسور وإبعادها من جثث الأحياء النافقة التي كانت تخلفها لهم المياه، باحثا عن بركة كبيرة ليسبح فيها، ويتعقب اتجاه مجرى النهر، ثم يستلقي عاريا في كسل فوق الصخور في الشمس الساخنة. بغض النظر عن مدى اللطف الذي ربما كان عليه السنيور أونج معه - وقد أعطاه حلوى بالفعل في مناسبات عديدة، بالإضافة إلى قلم رصاص أحمر - لكن نفسه لم تطاوعه على قبول وجوده كجزء من الأسرة. ثم كانت هناك الزيارات

المفردة لأناس غرباء وأغنياء من المدينة، أشخاص لم تعرفهم عمته من قبل، لكن الأمر الآن بدا طبيعياً تماماً في أن يجيء هؤلاء إلى البيت، وكانوا يمكثون لخمس أو عشر دقائق يتحدثون فيها إلى السنيور أونج، ثم يذهبون ثانية من دون أسئلة كثيرة عن صحة عمته، التي كانت تهتم دائماً وتصر على وجودها في مؤخرة البيت أو في الحديقة عندما كانوا يأتون. لم يكن في وسعه فهم هذا على الإطلاق. إنه لا يزال بيتها. أو ربما لا! ربما أعطته للسنيور أونج. النساء في الأغلب مجنونات. لم يجرؤ على سؤالها. والمرة الوحيدة التي كان قادراً على سؤالها عن الناس، الذين كانوا يواصلون المجيء بأعداد متزايدة، أجابته فيها قائلة: «إنهم أصدقاء السنيور أونج»، ونظرت إليه بتعبير بدا أنه يقول: «هل هذا كافياً بالنسبة إليك. أيها الفضولي؟» كان مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى بأن شيئاً أكثر تتوجب معرفته في ما يتعلق بهؤلاء الزوار. ثم قابل لوز، ولأنه لم يعد وحيداً بعد ذلك، فقد توقف لبعض الوقت عن التفكير بشأن أولئك.

عندما، رآها لأول مرة في يوم عاصف، واقفة على الجسر، ورأسها المضيء يتألق قبالة الجبال الداكنة في الخلف، توقف عن السير ووقف ساكناً تماماً كي ينظر إليها بعناية أكثر، فقد اعتقد أن هناك خطأ في ما رآه، لم يكن من الممكن أن يصدق أبداً أن يبدو إنسان ما بهذه الهيئة، كان شعرها الأبيض الناعم ملفوفاً على هيئة خوذة فوق رأسها، ووجهها كله أبيض، تقريباً كما لو كانت غطته بطلاء، حاجباها وأهداب عينيها، وحتى عينيها، كانت كلها فاتحة جداً لدرجة بدت كما لو أنها كانت غير

موجودة، فقط شفتاها القرنفليتان هما اللتان تبدوان حقيقتين. كانت متشبثة بسور الجسر في إحكام، وتعبير وجهها ينم عن انشغال شديد - أو ربما ألم غامض - كلما كانت تحديق إلى الخارج من تحت حاجبيها الأبيضين غير الوافيين بالغرض. كان رأسها يتحرك ببطء في كافة الأنحاء كما لو كانت تحاول العثور على زاوية للرؤية محتملة لتلك العينين الضعيفتين اللتين كانتا تعانيان خلف الرموش البيضاء.

قبل أسابيع قليلة مضت كان يقف وينظر إلى ظله ليس إلا؛ الآن كان يتأمل بعزم وتأن إلى أن بدت الفتاة، التي كانت من عمره تقريبا، على وشك الانحدار إلى الأمام صوب أسفل الطريق، وعندئذ أسرع نحوها ثم أمسك بذراعها بإحكام، فتراجعت إلى الخلف في التو، وهي تحديق في وجهه.

«من؟» قالت، بارتباك.

«أنا ما الأمر؟»

هدأت الفتاة، وتركت نفسها ليقودها إلى الأمام «لا شيء»، أجابت بعد لحظة. مشى معها نيكو إلى نهاية الطريق حيث النهر، عندما وصلا إلى الظل، اختفت الخطوط الرفيعة من جبينها. «هل تؤذي الشمس عينيك؟» سألها، فأجابت بنعم. أسفل إحدى أشجار ثمر الخبز العملاقة كانت هناك صخور رمادية ملساء؛ جلسا وشرع نيكو في سلسلة من الأسئلة. ردت بهدوء، كان اسمها لوز، وجاءت مع أختها منذ يومين فقط من «سان لوكاس»، لتبقى هنا مع جدها لأن أبويها نشب بينهما شجار في المنزل. وبينما كانت تنطق إجاباتها راحت تحديق بعيدا إلى الطرف البعيد من الخلاء،

كان نيكو متأكدا في تلك الأثناء من أنه لم يكن في استطاعتها أن ترى الأشجار النحيلة على الجانب الآخر من النهر أو الجبال التي في الخلف. سألها: «لماذا لا تنظرين إليّ عندما تتكلمين معي؟» وضعت يدها على مقدمة وجهها. ثم قالت «عيناى قبيحتان».

«هذا ليس صحيحا!» صاح في سخط. ثم أضاف، بعدما نظر إليهما بعناية للحظة، «إنهما جميلتان».

تبينت الفتاة أنه لم يكن يسخر منها، وقررت على الفور أنها أحبته أكثر من أي ولد عرفته في أي وقت.

في تلك الليلة أخبر عمته عن لوز، وبينما كان يصف ألوان وجهها وشعرها رأى نظرتها المسرورة. «إنها ابنة الشمس على الفور!»^(٤٨) أعلنت بقوة. «إنهم يجلبون الحظ السعيد. يجب أن تدعوها إلى هنا في الغد. سأعد لها فطيرة ساخنة ومنعشة من التاماريندو». قال نيكو إنه سيفعل، لكن لم تكن لديه أي نية لتعريض صديقه لفحص عمته المتلهف. وعلى الرغم من أنه لم يكن مندهشا على الإطلاق لسماعه أن لدى الأشخاص المصابين بالهق قوى خاصة، فقد اعتبر أن رغبة عمته في الانتفاع الفوري من إحدى هذه القوى التي ربما كانت تتميز بها لوز، كانت رغبة أنانية من جانبها.

في اليوم التالي عندما ذهب إلى الجسر ووجد لوز واقفة هناك، كان حذرا وهو يقودها عبر ممر ضيق خفي، إلى أسفل حيث النهر، حتى يمكنها أن تبقى غير مرئية لأنهما كانا يمران قرب بيته.

(٤٨) وردت الجملة بالإسبانية - [الترجم].

كان قاع النهر ممتدا بشكل كبير في الظلال الملقاة عليه من الأشجار الكبيرة التي نمت على امتداد ضفتيه. تجول الطفلان ببطء في اتجاه مجرى النهر، وهما يقفزان من صخرة إلى أخرى. من وقت إلى آخر كانا يفزعان نسرا من النسور، التي كانت تبرز منتصبة في طريقهما مثل جمرة ضخمة كبيرة، ثم يأخذ النسر في التأرجح بشكل غير متقن في الهواء، وهما يتقدمان في سيرهما، ويحط بعد ذلك في نفس المكان بعد لحظة، كان هناك مكان بعينه أراد نيكو أن يريه لها، حيث كان النهر يتسع وتصبح له شواطئ رملية، لكنها كانت تقع على مسافة طويلة في اتجاه مجرى النهر، لذلك استغرقا وقتا طويلا ليصلا إلى هناك. عندما وصلا، كان ضوء الشمس قد صار ذهبيا وبدأت الحشرات تطلق أصواتها فوق التل، غير مرئيين خلف ذلك الساتر السميك من الأشجار، كان الجنود يقومون بتدريبهم على المدافع الآلية، كانت الأصوات الضعيفة غير الحادة لطلقاتهم تأتي على شكل مجموعات على فترات غير منتظمة. طوى نيكو ساقي بنطلونه إلى أعلى فوق ركبته وخاض بقوة في الجدول الضحل: «انتظري!» نادى عليها. وهو منحن، غرف حفنة رمل من قاع النهر. كان مظهره عندما أحضره لها لتراه يدل على الانتصار الشديد والبهجة لدرجة أنها أمسكت أنفاسها، ومدت رقبتها لرؤيته قبل أن يصل إليها. «ما هذا؟» سألته.

«انظري!» إنها فضة! قال، وهو يسقط الرمل المبتل باحترام في كفها الممتد، الذي راحت تلمع فيه حبات الميكا الصغيرة في ضوء الشمس الغاربة.

«كم هو جميل ورائع»^(٤٩) صرخت بابتهاج. جلسا على بعض الجذور عند الماء. وعندما جفّ الرمل، سكبته بعناية في جيب ثوبها.

«ما الذي ستفعلينه بهذه الفضة؟» سألها.

«أعطيته لجدي».

«لا. لا. لا» صرخ. «لا تفشي أمر الفضة. خبيثه. ألا يوجد لديك مكان تخبئين فيه الأشياء؟»

كانت لووز صامته؛ لم يسبق لها التفكير في إخفاء أي شيء.

«لا»، قالت على الفور، ونظرت إليه بإعجاب.

أمسك بيدها. «سأعطيك مكانا خاصا في حديقتي حيث يمكنك أن تخفي كل ما ترغبين. لكن يجب عليك ألا تخبري أي شخص أبدا».

«بالطبع لا». كانت متضايقة لخشيته من أن يكون ظنها غيبا جدا. كانت راضية لفترة من الوقت أن تجلس هناك فقط ونيكو جالس إلى جوارها؛ أما الآن فكانت راغبة في العودة بصبر نافذ وإيداع الكنز. حاول إقناعها أن تبقى لفترة أطول قليلا، قائلا إنه سيكون هناك متسع من الوقت إذا عادا في وقت متأخر، لكنها كانت قد نهضت حتى لا تجلس مرة ثانية. تسلقا الصخور ضد اتجاه التيار، فجأة صادفتها بركة حيث وقفت امرأتان صغيرتان على عمق فخذ تغسلان الملابس، وهما عاريتان إلا من تتورتين ملفوفتين حول خصريهما الممثلئين اللحيمين، حيث طفت التورتتان على سطح الماء برفق في اتجاه التيار. ضحكت المرأتان وأطلقتا تحية. كانت لووز في حالة من الصدمة.

(٤٩) وردت بالإسبانية - [الترجم].

«يجب أن تشعرا بالخجل!» صرخت. «إذا فعلت امرأة ذلك في سان لوكاس، فستقذف بالحجارة حتى تدفن تحتها». «لماذا؟» قال نيكو، معتقدا أن سان لوكاس لابد أن تكون بلدة شريرة جدا.

«لأنهم سوف يفعلون ذلك»، أجابت، وهي لا تزال متلذذة بالصدمة والخجل اللذين شعرت بهما عند رؤيتها للصدرين الذهبيين وهما يلعبان في ضوء الشمس.

عندما رجعا إلى البلدة انعطفا إلى الطريق المفضي إلى بيت نيكو، وبينما كانا لا يزالان في نهاية حوش الحديقة المتشابك الشجيرات، توقف نيكو وأشار إلى شجرة ميتة كان جذعها قد فسد بشكل جزئي. بإيماءة المتآمر نَحَى جانبا أطراف ستائر التعريشات التي تدلت إلى أسفل فوق معظم الشجرة، كاشفا عن عدة فتحات مظلمة. ثم اقترب نيكو من إحدى هذه الفتحات، وجذب نيكو علبة صفيح لامعة ونفض منها النمل المتحارب الذي كان يتسابق بانفعال حولها، وحملها إليها.

«ضعيه هنا»، همس.

استغرق الأمر فترة كي ينقلا الرمل كله من جيبها إلى العلبة الصفيح؛ وعندما انتهت العملية أعاد العلبة إلى داخل الجذع المظلم وترك النباتات المتعرشة تسقط أمامه مباشرة لتغطي المكان. ثم قاد لووز بسرعة عبر الحديقة، حول البيت، إلى حيث الشارع. عمته التي كانت قد لمحتهما، نادت: «ديونيزيو!» لكنه تظاهر بعدم سماعها ودفع لووز أمامه بعصية. انتابه الرعب فجأة خشية أن ترى لووز السنيور أونج؛ ذلك الشيء كان يجب تجنبه بأي ثمن.

«دونيسيوا» كانت عمته لا تزال تنادي؛ وكانت قد خرجت ووقفت أمام الباب، وهي تنظر إلى نهاية الشارع في أثرهما، لكنه لم يلتفت إلى الوراء. وصلا إلى الجسر، الذي كان خارج نطاق الرؤية من البيت.

«وداعا»، قال بالإسبانية.

«إلى أن نلتقي في الغد^(٥٠)»، أجابت، وهي تحقق فيه بمظهرها الغريب وهي تبذل جهدا كبيرا. راقبها وهي تسير إلى أعلى الشارع، وتحرك رأسها من جانب إلى آخر كما لو كانت هناك آلاف الأشياء التي تستدعي الرؤية، في حين أنه لم تكن هناك في الحقيقة سوى قلة من الخزائير وبعض دجاجات تهيم هنا وهناك.

في وجبة المساء نظرت إليه عمته بنوع من التأنيب. تجنب نيكو تحديقها؛ لم تذكر وعده لها بإحضار لوز إلى البيت لتناول فطيرة «الريفريسكوس» الساخنة. في تلك الليلة استلقى فوق حصيرته وهو يشاهد الخنافس الفسفورية. كانت حجراته مطلة على الفناء؛ وكانت ذات جدران ثلاثة فقط، فقد كان الجدار الرابع مفتوحا. كانت أشجار الليمون تصل إلى الحجرة وتتحنى قبالة الحائط فوق رأسه، هناك في الأعلى، وكانت هناك أيضا أوراق ضخمة لشجرة موز غير متفتحة كانت تواصل طريقها كل يوم إلى مدى بعيد داخل الحجرة. كان الفناء آنئذ يبعث على الدوار بسبب الأنوار الحادة للخنافس، التي كانت تزحف فوق النباتات أو تطير بينها بصورة هستيرية، وهي تطلق وميضها بصورة متقطعة في إصرار مزعج. وفي الحجرة المجاورة احتلت عمته والسيد أونج

(٥٠) وردت بالإسبانية - [المترجم].

سرير البيت، مستمتعين بخصوصية المساكن المغلقة من جميع الجهات. أنصت نيكو: كانت الريح تهب. وكان صوت الريح يبدو جليا أثناء الليل، وتظل الريح تلاعب وتحرك أوراق الشجر حتى تتلاشى مرة ثانية قبل الفجر. غدا سوف يأخذ لووز إلى أسفل النهر للحصول على المزيد من الفضة. تمنى ألا يكون السنيور أونج قد تجسس عندما قام بكشف الفتحات الموجودة في جذع الشجرة. وضعته الفكرة المجردة لمثل هذا الاحتمال في حالة من القلق، فظل يتقلب على حصيرته من جانب إلى آخر.

قرر أن يذهب على الفور ويرى إن كانت الفضة لا تزال هناك. بمجرد أن يؤكد لنفسه أنها كانت في أمان أو تمت سرقتها، فسوف يشعر باطمئنان تجاه هذا الأمر ويتمكن من النوم. اعتدل جالسا، واندس في بنطلونه، وخرج إلى الفناء. كان الليل ممثلا بالحياة والحركة؛ وكانت أوراق وأفرع الأشجار تحتك ببعضها وهي تصدر تهديدات صغيرة. كان غناء الحشرات يسري أزيزا فوق الأشجار، وفي كل مكان كانت الخنافس الوامضة تبعث بإشارات الصامتة. بينما كان واقفا هناك وهو يشعر بالريح الخفيفة تطوف من حوله أحس بالأصوات الأخرى القادمة من اتجاه الصالة^(٥١). كان النور مضاء هناك، وللحظة اعتقد أنه ربما يكون لدى السنيور أونج زائر متأخر، نظرا إلى أن هذه الحجرة هي التي كان يستقبل فيها زائريه. لكنه لم يسمع أي أصوات. تحاشى الأغصان الحادة لشجرة الليمون، وسلك طريقه في صمت إلى الأبواب المغلقة وحقن من خلالها.

(٥١) وردت بالإسبانية، sala - [الترجم].

كانت هناك كوة مربعة في حائط الصالة في الطرف المقابل والذي عندما وصل السنيور أونج لأول مرة إلى البيت، قام بوضع تقويم كبير عليه يحمل صورة ملونة لفتاة متكررة صينية مبتسمة. كانت ترتدي ثوب سباحة أزرق وحذاء طويلا برقبة به فرو أبيض، وكانت تجلس عند حمام سباحة من القيشاني القرنفلي اللامع. وفوق رأسها في سماء مضيئة كانت طائرة ضخمة ذات محركات أربعة تحلق، وإلى أعلى فوقها في البعيد، وفي منطقة لا تزال خالية في سماء الصورة، كان الوجه الكريم للقائد العام تشيانج. أسفل الصورة كانت هناك كلمات: «أباروتيز فينوس. صن مان نجاي، هوكستلا، التشي». كان التقويم هو الشيء الوحيد الذي أحضره معه السنيور أونج لدرجة أن نيكو كان في وسعه أن يعجب به بصدق؛ فقد كان يعرف كل تفصيلة في الصورة عن ظهر قلب. كان وجودها قد حول الصالة من حجرة كئيبة ذات كرسيين هزازين قديمين ومنضدة إلى مكان من الممكن أن يحدث فيه أي شيء إذا انتظر المرء لفترة كافية. والآن بينما كان يختلس النظر عبر الشق، رأى وقد أصابته الدهشة أن السنيور أونج أزال التقويم من مكانه على الحائط، ووضعه على المنضدة. كان معه شاكوش وإزميل وكان يدق ويحفر في الجزء الأسفل من الكوة. بين الفينة والأخرى، كان يحفن بيديه الصغيرتين البدينتين إلى الخارج الجبس والتراب الناتج، ويلقيه في كومة منتظمة على المنضدة. انتظر نيكو لفترة طويلة من دون أن يجرؤ على التحرك. حتى عندما هبت الريح بقوة أكثر وبعثت القشعريرة في ظهر نيكو العاري لم يتحرك ولو حركة ضئيلة، خوفا من رؤية السنيور أونج

يلتفت إلى الوراء وينظر بعينه الضيقتين نحو الباب، والمطرقة في يد، والإزميل في اليد الأخرى. بالإضافة إلى ذلك، كان من المهم معرفة ما الذي كان يفعله. لكن السنيور أونج لم يبد في عجلة من أمره. انقضت ساعة تقريبا، وكان لا يزال يواصل عمله المنهجي بمثابرة، وكان يتوقف بشكل منتظم ليزيل البقايا ثم يكومها على المنضدة. في النهاية عندما بدأ نيكو يشعر بما يشبه الرغبة في العطس؛ عاد إلى حجرته وهو يجري في جنون عبر الفناء، حتى أن صدره كان يحتك بالأفرع في الطريق. ذهب الانفعال الناجم عن انطلاقه السريع برغبته في العطس، لكنه استلقى على أي حال خوفا من أن تعاوده تلك الرغبة إذا رجع إلى الباب ثانية، وسط تعجبه واندعاشه من السنيور أونج وسقط في النوم.

في الصباح التالي عندما دخل إلى الصالة كانت الفتاة الصينية الجميلة تغطي الكوة كالمعتاد، وقف ساكنا في مكانه وأرهف السمع: كانت عمته والسنيور أونج يتحدثان في الحجرة المجاورة، بسرعة جذب نيكو دبوس التثبيت الموجود في الركن السفلي الأيسر للتقويم ومد يده ليتحسس ما وراء التقويم، لكن لم يكن في وسعه الإحساس بشيء هناك. أعاد دبوس التثبيت مرة ثانية وهو يشعر بالإحباط ثم خرج إلى الحديقة. كان الكنز الخاص به موجودا في الشجرة لم يمس، لكنه الآن يشك في أن لدى السنيور أونج كنزا أيضا، وبدأت علبة الرمل لا تستحق أن تكون محط اهتمامه.

ذهب إلى الجسر وانتظر لئولوز عندما حضرت سارا إلى النهر أسفل الحديقة وجلسا عند الماء، كان ذهن نيكو مستغرقا في

صورة السنيور أونج وهو منحني على الكوة بأدواته، وكان خياله منشغلا بالتخمين في ما كان يفعله السنيور أونج بالضبط وكان غير متأكد إن كان يشرك لووز في سره أم لا، وتمنى ألا تتحدث عن فضتها هذا الصباح؛ ولكي يسبق مقدا استفساراتها عنه ذكر باقتضاب أنه قد ألقى نظرة عليه من نصف ساعة ووجد أنه لم يمس. كانت لووز جالسة تراقبه في حيرة؛ فقد بدا بالكاد أنه كان نفس الشخص الذي كان بالأمس. في النهاية قالت، بينما استمر هو في تحديق في الحصى الأسود أسفل قديمه، «ما هي حكايتك اليوم؟»

«لا شيء». أمسك بذراعها ليؤكد لها كلمته؛ فقادته هذه الحركة إلى بدء الثقة فيها. «اسمعي. هناك الكثير من الذهب مخبأ في بيتي». أخبرها بكل شيء: وصول السنيور أونج، كرهه له، زيارات أصحاب المحلات الأغنياء إلى البيت، وأخيرا التصرف المريب للسنيور أونج في الصالة الليلة الماضية. أنصت، وهي ترمش بسرعة طوال الوقت. وعندما انتهى وافقته على أنه من المحتمل أن يكون هناك ذهب مخبأ في الكوة، لكنها كانت ميالة إلى الاعتقاد بأنه كان يخص عمته، وأن السنيور أونج قد سرقه منها. لم تخطر هذه الفكرة لنيكو، وبالفعل لم يصدقها. مع ذلك، فقد أعجبه الفكرة، «سوف أحصل عليه وأعيده إليها»، صرّح قائلاً. «بالطبع!» قالت لووز بجدية، كما لو لم يكن هناك بديل آخر. جلسا لفترة من دون أن يتكلما. في أعلى الحديقة كانت جميع الببغاوات تصيح في الوقت نفسه. إمكان استعادة الذهب عن طريق السرقة لإعادته إلى عمته أثاره، لكن كانت هناك أخطار.

بدأ في وصف قبح السنيور أونج في مظهره وشخصيته، وتطرق إلى التفاصيل بشكل ارتجالي بارع. ارتجفت لوز ونظرت في قلق نحو الطريق الممتلئ بالظلال. «لكن، انتبه جيدا إلى نفسك»، تمتعت. ثم أرادت فجأة الذهاب إلى بيتها.

لم يبق الآن سوى انتظار شيء واحد هو غياب السنيور أونج عن البيت، هناك في «تلاتيبك» عاش رجل صيني اعتاد السنيور أونج زيارته كل أسبوع، حيث كان يرحل في الحافلة المبكرة في الصباح ويعود في ميعاد وجبة منتصف اليوم. انقضت حتى ذلك الحين ثلاثة أيام. حضر أناس إلى البيت وانصرفوا على الفور مرة ثانية، لكن السنيور أونج كان جالسا في هدوء في الصالة من دون أن يخرج إلى الشارع ولو لمرة، كل يوم كان نيكو ولوز يتقابلان على الجسر ويجلسان عند النهر يناقشان ويبحثان أمر الكنز بإثارة كانت تزداد بشكل ثابت مطرد. «أوه، يا للروعة!» كانت لوز تصيح بالإسبانية، وهي ترفع يديها مباعدة بينهما. «هذا الذهب كثير». كان نيكو يومئ موافقا؛ وبنفس القدر كان لديه إحساس بأنه عندما يرى الكنز فسوف يصاب بخيبة الأمل.

أخيرا جاء الصباح الذي قبل فيه السنيور أونج عمة نيكو على خدها ورحل عن البيت حاملا صحيفة تحت ذراعه. «إلى أين سيذهب؟» سأل نيكو ببراءة.

«إلى تلاتيبك». كانت عمته تتلف أراضية الصالة.

مضى نيكو إلى الفناء وراقب الطائر الطنان وهو يتنقل بسرعة من زهرة إلى أخرى من أزهار بيل - دي - نوتش البيضاء. عندما انتهت عمته من تنظيف الصالة أغلقت الباب وشرعت في تنظيف

أرضية غرفة النوم. تسلل نيكو في انفعال إلى الحجرة ومنها إلى التقويم، الذي فكّ ركنيه السفليين عن الحائط. كانت الكوة فارغة للمرة الثانية. كانت أرضيتها مكونة من أربع قرميدات كبيرة مزخرفة بالأزهار. كان في وسعه من دون أن يلمسها أن يعرف أيها كانت القرميدة المخلوعة. رفعها إلى أعلى وتحسس تحتها. كانت رزمة أوراق، ليست كبيرة جدا، والأمر الذي كان أكثر سوءا، أنها كانت ناعمة الملمس جدا. سحب مطروفا ممتلئا مصنوعا من ورق المانيلا^(٥٢)، ثم أعاد القرميدة والتقويم إلى مكانهما، ومشى برفق عبر الفناء، إلى الحديقة حيث شجرته.

كان في المطروف الكبير الكثير من المظاريف الصغيرة، وفي بعض المظاريف الصغيرة كانت هناك كمية صغيرة من مسحوق أبيض ليست له رائحة. وكانت المظاريف الأخرى الصغيرة فارغة، ومربوطة معا بشريط. كان هذا كل ما هناك. كان نيكو متوقعا خيبة الأمل، لكن ليس بهذا القدر الهائل والتام. كان غاضبا: لقد سخر منه السنيور أونج، واستبدل هذا الغبار عديم القيمة بالذهب، فقط إنه عمل لا يخلو من الشيطنة. لكن عندما فكر في الأمر، قرر أن السنيور أونج لم يكن من الممكن أن يخمن أنه قد عرف بأمر الكوة، وبالتالي لا بد أن يكون وراء هذا المسحوق كنز بالفعل. أحس أيضا بأنه من المستبعد أن يكون هذا خاص بعمته، على أي حال سيكون السنيور أونج أكثر غضبا لاكتشافه أنه قد فقده. أخرج مطروفين صغيرين فارغين، ومن المظاريف الأخرى سكب في المطروفين الفارغين مقدارا ضئيلا من المسحوق من كل مطروف

(٥٢) شجرة الأبق أو الموز الليفي - [الترجم].

به تلك المادة، حتى احتوى هذان المظروفان أيضا على نفس الكمية تقريبا. ثم أعاد المظاريف الممتلئة والفارغة في المظروف الكبير، وعندما رأى أن عمته كانت في المطبخ، عاد إلى الصالة ومعه المظروفان. لن يلاحظ السنيور أونج أبدا لا المظروفين الفارغين اللذين اختفيا ولا المسحوق الذي سكب فيهما. وبمجرد عودته إلى الحديقة أخفى الحزمتين الصغيرتين تحت العلبة الصفيح الممتلئة بالرمل، وسار إلى أسفل حيث الجسر.

كان الوقت مبكرا لانتظار لوز. تساقط ستار رفيع من المطر مندفعاً من أعلى الوادي سوف يصل في غضون دقائق قليلة. كان جانب الجبل الأخضر في نهاية الشارع يلمع في ضوء النهار نصف المعتم. جاء دون أناستازيو وهو يسير بتفائل من نهاية الشارع الرئيسي، وانعطف إلى الشارع الفرعي الجانبي حيث كان بيت نيكو. انقاد نيكو لرغبة عمياء، فصاح مناديا بالإسبانية: «نهار سعيد، يا دون أناستازيو!» بدا الرجل العجوز وقد انعطف في سيره، غير مسرور لرؤية نيكو: «نهار سعيد»، أجاب، ثم أسرع في طريقه. ركض نيكو من الجسر ووقف عند مدخل الشارع وهو يراقبه. كما هو متوقع، كان على وشك الدخول إلى بيت نيكو. «دون أناستازيو!» صاح، وبدأ يعدو نحوه.

توقف دون أناستازيو عن السير وظل ساكنا، ووجهه مقطب في ضيق. وصل نيكو مقطوع النفس: «هل كنت تريد رؤية السنيور أونج؟ لقد خرج».

لم يبد أن دون أناستازيو سعيد في تلك اللحظة، أيضا. «إلى أين؟» قال بانفعال زائد.

«أعتقد إلى ماباستينانجو، ربما»، قال نيكو، محاولاً أن يبدو غير متأكد من المكان، ومتسائلاً في نفسه إن كانت تلك تعد كذبة.

«يا للحظ السيئ!» قال دون أناستازيو بالإسبانية وهو يبرطم: «لن يعود اليوم، إذن».
«لا أعرف».
كان هناك صمت.

«هل في وسعي القيام بشيء لأجلك؟» قال نيكو متلعثماً.
«لا، لا»، قال دون أناستازيو بعجلة، ثم حذق فيه. طوال الأسبوع الذي كان نيكو يعمل فيه في محله، أتاحت له فرصة ملاحظة أن الولد كان سريعاً على غير العادة. «هذا»، أضاف ببطء، «لا أظن - هل السنيور أونج ... ؟»

«دقيقة واحدة»، قال نيكو وهو يشعر أن دون أناستازيو كان على وشك أن يكشف السر ويصبح سيد الموقف في نفس الوقت. «انتظر هنا»، أضاف بحزم. في تلك اللحظة لم يظهر دون أناستازيو أي ميل لعمل أي شيء آخر. وقف مشاهداً نيكو وهو يختفي قرب ناصية البيت.

عاد الولد على الفور وهو يلهث، وابتسم إلى دون أناستازيو.
«هل من الممكن أن نذهب إلى الجسر؟» تساءل نيكو.
أخذ دون أناستازيو، وقد أذعن للمرة الثانية، ينظر خلسة في أنحاء الشارع الطويل بينما كانا يسيران فيه. وقفاً على الجسر منحنيين فوق المياه أسفلهما، وقد أخرج نيكو أحد المظروفين الصغيرين من جيبه، وفي الوقت نفسه ألقى بنظرة سريعة على

وجه دون أناستازيو. نعم لقد كان محقا! فقد رأى ملامح ثابتة تعبر عن الارتياح، والتوقع المتلهف. لكن لبرهة فقط. إذ بعد تسليمه المظروف إلى دون أناستازيو، بدا وجه الرجل العجوز كما كان عليه دائما.

«جيد جدا، جيد جدا»، دمدم متذمرا بالإسبانية. حطت زخات المطر الأولى برفق فوق رأسيهما، لكن لم يلحظها أي منهما. «هل أدفع لك أم للسنيور أونج؟» قال دون أناستازيو، وهو يضع المظروف في جيبه.

لثوان قليلة كانت ضربات قلب نيكو تدق بقوة: يجب ألا يعرف السنيور أونج شيئا عن هذا. لكن لم يكن من الممكن أن يطلب من دون أناستازيو ألا يخبره. ابتلع ريقه وقال: «لي أنا». لكن صوته كان ضعيفا.

«آها!» قال دون أناستازيو، مبتسما بعض الشيء، ومسح بيده على شعر نيكو بطريقة أبوية. وجده مبتلا، فنظر إلى أعلى نحو السماء بوجه خال من التعبير. «إنها تمطر»، قال معلقا، ونغمة دهشة في صوته.

«نعم، يا سيدي». وافقه نيكو بصوت ضعيف.

«كم المبلغ؟» سأل دون أناستازيو، وهو ينظر إليه بقوة، بينما كان الرعد في الوادي يهزم في خفوت.

أحس نيكو بأنه يجب أن يرد على الفور، لكن لم تكن لديه أي فكرة عما يقوله. «هل بيزو واحدة مناسبة؟»

حدّق فيه دون أناستازيو بقوة أكثر، جعلته يشعر بأن عيني الرجل العجوز سوف تخترقانه في اللحظة التالية. ثم تغيرت

فجأة ملامح وجهه دون أناستازيو، وقال: «بيزو، هذا جيد». وأعطاه قطعة عملة فضية. ثم قال، «الأسبوع القادم تأتي إلى محلي بمظروف آخر. سوف أعطيك عشرين سنتافو إضافية لأجل المشوار، وهس!» ووضع أصابعه على شفثيه، وهو يدير عينيه إلى أعلى. «هس!» ربت على كتف نيكو، وقد بدا مسرورا جدا، ثم مضى صاعدا الشارع.

رجع السنيور أونج مبكرا عن المعتاد، وهو مبتل تماما، وفي حالة مزاجية سيئة إلى حد ما، لم يكن نيكو يعير أدنى انتباه للمحادثات التي كانت تدور بين عمته والسنيور أونج من قبل، لكنه في ذلك الوقت كان ينصت إلى حديثهما من المطبخ، وسمعه يقول لعمته: «ليست عندي ثقة في «ها». أخبروني أنه كان هنا في المدينة منذ يومين. بالطبع سيقسم إنه كان في تلالتيبيك طوال الوقت».

«ثلاثة آلاف بيزو ملقاة في الشارع!» صاحبت بغضب. «قلت لك ذلك وقتها. أخبرتك أنه سيستمر في البيع هنا بالإضافة إلى البيع في تلالتيبيك. أنا قلت لك هذا، يا رجل^(٥٢)»

«أنا لست متأكدا بعد»، قال السنيور أونج، وكان في وسع نيكو تخيل ابتسامته الهادئة بينما كان ينطق بتلك الكلمات، الآن بعدما سرقه فقد كرهه أكثر من أي وقت مضى، بمعنى أنه رغب في أن يكتشف السنيور أونج السرقة ويوجه الاتهام إليه، وبذلك تسنح له الفرصة ليقول له: «نعم، سرقتك، وأنا أكرهك». لكنه عرف أنه هو نفسه لن يفعل شيئا للتعجيل بمثل هذه اللحظة. خرج تحت

(٥٢) وردت بالإسبانية - [المترجم].

المطر واتجه إلى شجرته. كانت نسيمات الأرض الداكنة ترتفع في الأرجاء من حوله، لتعلق في الهواء المبلل بالمياه. أخرج علبة الرمل الصفيح وأسقط بداخلها البيزو.

استمر المطر في التساقط طوال النهار وأثناء الليل، ولم يتمكن نيكو من رؤية لووز حتى اليوم التالي، وقد اتخذ مظهرها غامضا، ومحيرا وهو يقودها إلى الشجرة.

«انظري!» صاح، وهو يريها العلبة الصفيح: «لقد أنتجت الفضة بيزو!»

كانت لووز مقتنعة ومبتهجة، لكنها لم تبد مندهشة فعلا. «ياله من شيء جميل!» تمتمت بالإسبانية.

«هل ترغبين في أخذه؟» رفع العملة المعدنية إلى أعلى، لكنه كان حريصا على أن يبقى يده فوق المظروف الموجود في تجويف الشجرة.

«لا، لا، اتركه! ربما ينتج المزيد. أعدده! أعدده إلى مكانه!» كان محبطا ومكتئبا بعض الشيء لاكتشافه أنها تعاملت مع معجزته كأمر مسلم به تقريبا. أخذا يضربان الأرض بقوة بقدميهما للتخلص من النمل الذي كان قد بدأ يتسلق سيقانهما.

«وماذا عن الذهب؟» همست. «هل أعدته إلى عمتك؟ هل كان وفيرا؟ وما الذي قاله السنيور أونج؟»

«لم يكن هناك شيء على الإطلاق»، قال نيكو، وهو يشعر بعدم ارتياح من دون أن يعرف لماذا.

«آه». كانت لووز تشعر بخيبة أمل.

سارا مسافة طويلة في اتجاه مصب النهر، ثم فجأة أصبحت
إزاء عظاية (اجوانا)^(*) ضخمة كانت تشمس نفسها على صخرة
فوق البركة. ألقى نيكو حجرا تجاهها، فتحرك الحيوان المخيف
بتثاقل بعيدا بين الأوراق. ظلت لووز متشبثة بذراعه في إحكام
إلى أن اختفى الحيوان عن النظر؛ فقد كان صوت الحيوان
عاليا وعميقا وهو ينسحب عبر الشجيرات الصغيرة النامية
أسفل الأشجار العملاقة. فجأة حرر نيكو نفسه، خالعا قميصه
وبنطلونه، وقام بوثبة سريعة في البركة. كان يبرز إلى أعلى
فوق سطح الماء، وهو يدفع الماء بذراعيه وقدميه في انفعال،
وأثناء ذلك كان يصيح بصوت عال. اقتربت لووز بمشية غير
متيقنة من حافة البركة، حيث جلست وأخذت تشاهده. ثم قالت
الآن: «هات المزيد من الفضة». لم تبد في صدمة على الإطلاق
بسبب عريه. غطس إلى القاع وفتش هنا وهناك، ولم يلمس
سوى الصخر. صعد إلى أعلى ثانية، وصاح: «ليس هناك أي
شيء منها!» كان رأسها الأبيض يتبع حركاته بينما كان يثب هنا
وهناك في البركة. وعندما خرج، جلس على الجانب المقابل،
تاركا الشمس تجففه. خلف التل كان تدريب الأسلحة الآلية
يدور مرة ثانية.

«هل تعتقدين أنهم سيقذفونني بالأحجار في سان لوكاس؟»
صاح.

«لماذا؟» صاحت بالإسبانية: «لا، لا، كلا بكل تأكيد!» ليست
هناك مشكلة بالنسبة إلى الأولاد.

(*) حيوان ضخم من فصيلة السحالي بأمريكا الجنوبية - [المراجع].

كانت الأيام القليلة القادمة مشمسة، وقد تمكنا من المجيء كل يوم إلى البركة في فترة بعد الظهر.

ذات صباح، والمظروف الآخر الصغير في جيبه، ذهب نيكو إلى وسط البلدة حيث محل دون أناستازيو. بدا الرجل العجوز مسرورا جدا لرؤيته. فتح المظروف خلف الكاونتر ونظر بعناية في محتوياته. ثم أعطى نيكو البيزو والنصف. «ليست معي فكة»، قال نيكو.

«الباقى لك»، قال دون أناستازيو بصوت أجش. هناك اذهب إلى السينما الليلة وعد في الأسبوع المقبل، لا تنس». ركض نيكو إلى نهاية الشارع، وهو يتساءل متى ستسمح له الفرصة لماء مظروف آخر لدون أناستازيو. كان الأمر مسألة وقت حتى يقوم السنيور أونج برحلته إلى تلاتيبيك. قبل لحظة من وصوله إلى الجسر خطت امرأة طويلة إلى خارج أحد المحلات ووقفت قبالة. كانت لها عينان واسعتان جدا ووجه مخيف إلى حد ما.

«مرحبا، أيها الولد!» صاحت المرأة بالإسبانية.

«نعم يا سيدتي»، ووقف ساكنا وهو يحدق فيها.

«هل لديك شيء ما لأجلي؟»

«شيء لك؟» كرر بانشداه.

«مظروف صغير؟» وقدمت له بيزوين. نظر إليهما نيكو وقال:

«لا، يا سيدتي».

أصبح وجهها أكثر إثارة للخوف. «كلا. كلا. لديك»، قالت المرأة بإصرار وهي تتحرك نحوه. ألقى بنظرة سريعة في أنحاء

الشارع: لم يكن هناك أحد. بدا المحل خاليا. فذلك الوقت من النهار كان الأشد حرارة. ارتعب فجأة من وجهها. «غدا»، صرخ، وهو ينحو جانبا لكي ينطلق متجاوزا إياها. لكنها أمسكت برقبتة. «اليوم»، قالت بخشونة وفضاضة؛ كانت أظفارها الطويلة تتغرس في جلده. «نعم. يا سيدتي». لم يجروا على النظر إليها، «على الجسر»، قالت في إصرار، «هذا العصر». «نعم، يا سيدتي».

تركته يمضي في طريقه وهو ينتحب قليلا من الغضب والخجل وليس لأنه خائف.

في الصالة كان السنيور أونج وعمته يتكلمان بانفعال. لم يمض إلى الداخل، بل اعتلى أرجوحة الفناء وأنصت إليهما. وعندما تم ذكر اسم دون أناستازيو، قفز قلب نيكو إلى الأمام من شدة الرعب: شيء ما قد حدث!

«أنا الآن متأكد تقريبا»، قال السنيور أونج ببطء. «لقد مضى أسبوعان منذ أن كان هنا، وقد أخبرني ساينز أنه سعيد تماما. وهذا يعني شيئا واحدا فقط: لا بد وأن (ها) يبيع له مباشرة». «بالطبع». قالت العمة بمرارة: «لم نكن في حاجة إلى الانتظار لأسبوعين كي نعرف هذا. ثلاثة آلاف بيزو سقطت في النهر. ياله من تبديد! كم أنت أحمق، يا رجل!»

لم يعرفها السنيور أونج أي انتباه. «هناك أيضا امرأة فرنانديز». قال وهو مستغرق في التفكير. «كان يجب عليها أن تكون هنا منذ عدة أيام. أعرف أنه لا يوجد معها نقود، لكنها حتى الآن كانت تتجح دائما في أن تجمع بعد أي قدر من المال».

«تلك العجوز الشمطاء!» قالت العمدة بازدراء. «ستكون محظوظة لو تمكنت من جمع عشرين، وليس خمسين في الحالة التي صار إليها وجهها الآن».

«في إمكانها جمعها» قال السنيور أونج وصوته مشوب بالثقة: «السؤال هو، هل عثر عليها بالفعل وهل هو يبيع لها بسعر أقل؟»

«لا تطرح عليّ كل هذه الأسئلة!» صرخت العمدة بصبر نافذ: «اذهب إلى تلاتيبيك واسأل العجوز نفسه!»

«عندما أذهب إلى هناك»، قال السنيور أونج بصوت خفيض وعدائي: «لن يكون هناك ما يسأل عنه».

في تلك اللحظة سمعت طرقة على الباب الرئيسي؛ تركت العمدة الحجرة على الفور، وأغلقت الباب خلفها، ومضت عبر الفناء إلى المطبخ. لدقائق قليلة كان في وسع نيكو أن يسمع فقط اختلاط همهمات أو أصوات منخفضة تتحدث في الصالة. أما الآن فقد أغلق شخص ما الباب الرئيسي. كان الزائر قد انصرف.

قبل وجبة الظهيرة ذهب نيكو إلى الحديقة وقذف العملتين الفضيّتين اللتين أعطاهما له دون أناستازيو في علبه الرمل الصفيح. التفكير في إطلاع لوز عليهما جعله يشعر ببعض المتعة؛ فسداجتها جعلته يشعر بالمهارة والتفوق لكنه اعتزم ألا يخبرها بأمر المسحوق أبداً، طوال فترة الغداء كان يفكر في المرأة الطويلة التي كان عليه مقابلتها على الجسر، عندما انتهت الوجبة فعل السنيور أونج شيئاً غريباً غير معتاد: تناول قبعته وقال: «أنا ذاهب

لرؤية ساينز والتحدث معه». ثم خرج. شاهده نيكو وهو يختفي في الشارع الرئيسي؛ فدخل إلى البيت ورأى عمته تغلق على نفسها حجرة النوم لتأخذ قيلولتها. من دون تردد مشى مباشرة إلى الكوة الموجودة في الصالة وأخرج المظروف الأصفر الكبير، كان يعرف أنه يفعل شيئاً خطيراً، لكنه كان قد اعتزم تنفيذه بأي حال من الأحوال. دس مظروفين صغيرين ممتلئين ومنتفخين في جيبه وترك أحد المظروفين في شجرته، ومضى بالآخر ووقف على الجسر في انتظار المرأة. لم تمض فترة طويلة قبل أن تلمحه من المحل. وبينما كانت تتجه نحوه، بدا وجهها المنهك أكثر قتامة في فترة العصر عنه قبل ذلك، قدم لها المظروف الأبيض الصغير قبل اقترابها، كما لو كان ذلك سيجعلها تبقى في مكان بعينه بمنأى عن الاقتراب منه. وصلت إليه وهي متجهمة وفي جبروت خطفته من أصابعه مثل طائر غاضب مهتاج، ودسته بعنف داخل صدريتها وباليد الأخرى وضعت بيزوين في كفه الذي كان لا يزال ممتداً، ثم هرولت بعيداً من دون أن تتبس بكلمة، قرر أن يبقى على الجسر، وهو يأمل في أن تظهر لوز في الوقت الحالي.

عندما جاءت، قرر فجأة ألا يأخذ بيدها إلى الشجرة، أو حتى إلى النهر. وبدلاً من ذلك، أمسك بيدها، وقال: «لدي فكرة»، كان هذا غير حقيقي، لكنه شعر بالحاجة إلى أن يفعل شيئاً ما جديداً، شيئاً ما مهماً.

«أي فكرة؟»

«دعينا نذهب في رحلة!»

«رحلة! إلى أين؟»

شرعا في السير يدا بيد في الشارع.

«يمكننا أن نستقل حافلة»، قال:

«لكن إلى أين؟»

«ليس مهما إلى أين»، قال بالإسبانية.

لم تكن لوزز مقتتعة بصواب الفكرة، كان ذهنها مثقلا بتخيل الوجه الصارم لأختها الكبيرة عندما ترجع إلى البيت، ومع ذلك كان في وسعه أن يرى أنها سوف تذهب معه، عندما وصلا إلى حيث بدأت البيوت والمحلات في الظهور، ترك يدها خوفا من أن يلتقي بأحد أصدقائه، لم يمش معها من قبل في الشارع، كان ضوء الشمس شديدا، لكن سحابة بيضاء ضخمة كانت تتقدم في ببطء من خلف الجبال أمامهما. استدار لينظر إلى رأسها الشاحب المضيء. كانت عيناها المتألمتان نصف المغمضتين عبارة عن شقين في وجهها من أثر ضوء الشمس. بالتأكيد ليس لأحد آخر في العالم هذا الشعر الجميل. همس إليها وهو ينظر بلمحة سريعة خاطفة إلى السحابة، «سوف تختفي الشمس عما قليل». في الميدان الرئيسي كانت هناك حافلة نصف ممتلئة بالناس. من وقت إلى آخر كان السائق، وقد وقف مستندا إلى بدن الحافلة الأحمر المعدني، يصيح، «تالتيبيك! تالتيبيك!» بعد وقت ليس بالقصير كانا قد استقلا الحافلة وجلسا قرب المؤخرة بجانب النوافذ حتى طلبت لوزز؛ في غمرة إحساسها بالقلق والخوف، أن تنزل من الحافلة. لكنه أمسك بذراعها وقال، وهو يخلق ويخترع بسرعة: «نعم، لقد أردت الذهاب إلى تالتيبيك لأننا مضطرون إلى القيام بشيء مهم جدا هناك. يجب علينا أن ننقذ حياة شخص ما».

استمعت بانتباه إلى قصته: كان السنيور أونج البشع بصدد قتل السنيور ها العجوز لعدم التزامه بوعده بالبقاء في تلاتيبيك. وبينما كان يروي الحكاية، ويتذكر الصيغة التهديدية التي قالها السنيور أونج، بدأ هو نفسه في تصديق القصة: «عندما أذهب إلى هناك لن أسأله عن شيء». لن تتاح للرجل العجوز الفرصة للشرح، أو الدفاع عن نفسه. عندما تحركت الحافلة من الميدان، كان مقتنعا مثل لووز أنهما كانا ذاهبين إلى تلاتيبيك في مهمة بطولية.

كانت تلاتيبيك تقع في أرض منخفضة في واد محاط بالجبال من جميع الجهات. السحابة البيضاء الكبيرة، كانت أطرافها اللامعة تندفع إلى الخارج، وهي ترتفع إلى مسافة أعلى صوب السماء، كما لو إلى داخل كهف من الكهوف؛ دخلت الحافلة في حدود ظل السحابة. ثم أصبح كل شيء في هذا المكان أخضر فجأة. وكانت صيحات الطيور المغردة تأتي عبر النوافذ المفتوحة، في قوة وحدة لتغطي على قعقة الحافلة العتيقة.

كانت لووز تنتهد من وقت إلى آخر قائلة بالإسبانية: «يا لها من مشكلة!»

وصلوا إلى تلاتيبيك، وتوقفوا في الميدان. نزل الركاب وتفرقوا بسرعة في اتجاهات مختلفة. كانت القرية هادئة جدا، والعشب الأخضر الفاتح ينمو وسط الشوارع. قلة من الهنود الصامتين كانوا يجلسون في جميع أنحاء الميدان أمام الحوائط. كان نيكو ولووز يتقدمان في الشارع الرئيسي، بعيدا عن الهدوء الذي كان يُغلف القرية. كانت السحابة قد غطت السماء؛ وراحت تتسحب

في ذلك الوقت ببطء مثل ستار فوق الجانب الآخر للوادي. كان جرس كنيسة صغيرة ذو صوت حزين قد بدأ يدق خلفهما في الميدان. دخلا إلى محل صغير كان مكتوبا على لافتته «الصيدلية الحديثة». كان الرجل الجالس في المحل يعرف السيد ها: فقد كان الصيني الوحيد في القرية. «إنه يسكن أمام الدير، في آخر بيت»، قال الرجل. في تلالتيبيك كان كل شيء مجاورا بعضه الى بعض. كان الجرس لا يزال يدق في الميدان. أمام الدير المتهدم الخرب كانت هناك ساحة عبارة عن مرج مفتوح؛ وفي نهاية كل طرف من أطرافه وضعت أعمدة خاصة بلعبة كرة السلة، لكن هذه الأعمدة كانت مكسورة الآن. قبل آخر بيت انتصبت شجرة كبيرة تحمل الآلاف من أزهار اللافتندر. وكانت الأزهار تتساقط في الهواء بشكل مستمر، مثل دموع صامئة، نحو الأرض المبتلة تحت الشجرة.

طرق نيكو على الباب. جاءت خادمة ونظرت إلى الطفلين من دون اكتراث، وذهبت بعيدا. ظهر السنيور ها على الفور. لم يكن متقدما جدا في السن كما توقعنا؛ وجهه النحيل البارز العظام كان خاليا من التعبير، لكنه نظر إليهما عن كثب. تمنى نيكو أن يدعوهما إلى داخل البيت: فقد أراد أن يرى إن كان لدى السنيور ها نفس التقويم الموجود في صالة البيت عنده، لكن مثل هذا الترحيب كان بعيد الاحتمال. جلست لووز على الدرجة الحجرية الأولى والتقطت بعض الأزهار التي كانت قد سقطت من الشجرة في حين كان نيكو يخبر السنيور ها بهويته وسبب مجيئه. وقف السنيور ها ساكنا تماما. حتى عندما قال له نيكو:

«وسوف يقدم على قتلك»، ظلت عيناه الصغيرتان الصارمتان في نفس الوضع بالضبط. لم يتحرك شيء في وجهه؛ وظل ينظر إلى نيكو كما لو أنه لم يسمع كلمة مما قال. ظن نيكو للحظة أن الرجل ربما لا يفهم سوى اللغة الصينية، لكن السيد ها قال، بوضوح شديد: «يا لها من أكاذيب!» ثم أغلق الباب.

سارا عائدين إلى السوق من دون أن يقولوا شيئاً، وجلسا على مقعد حديدي في انتظار الحافلة. تحركت حبيبات رزاز دافئة مثل المطر نحو الأرض خلال الهواء، وراحت تسقط بنعومة شديدة لدرجة أنها لم تكن مسموعة في سكون الميدان المهجور. في غضون ذلك، وبينما كانا ينتظران، نهض نيكو وذهب إلى الشارع الرئيسي بحثاً عن بعض الحلوى. عندما كان يهم بالخروج من المحل، كان رجل ضئيل الحجم يحمل حقيبة ويسير بسرعة من أمامه ثم عبر الشارع. كان هو السنيور ها.

بينما جلسا يأكلان الحلوى جاءت سيارة أجرة من الشارع الرئيسي وكانت تهتز وهي تعبر الميدان؛ وفي طرف مقعدها الخلفي كان السنيور ها يجلس منحنياً إلى الأمام وهو يتحدث إلى السائق، حدقا في بعضهما البعض، انعطفت السيارة إلى الطريق الذي كان يؤدي إلى أعلى الجبل في اتجاه البلدة، ثم اختفت في احمرار الشفق.

«إنه ذاهب لإخبار السنيور أونج!» صرخ نيكو فجأة. وترك فمه مفتوحاً وحدث في الأرض.

ضغطت لووز على ذراعه. «لا تهتم»، قالت: «إنهما مجرد رجلين صينيين. أنت لن تكون خائفا منهما».

نظر إليها على نحو خال من التعبير. ثم أجاب في اشمئزاز:

«لا!»

حدثا باقتضاب شديد في رحلتها الممطرة. كان الوقت ليلا عندما وصلا إلى البلدة. مبتلين وجائعين، سارا إلى أسفل الشارع نحو الجسر، لم يتكلما حتى هذه اللحظة. عندما عبرا النهر التفت إليها نيكو وقال: «تعالى وتناولى العشاء في بيتي». «أختي...»

لكنه جذبها معه في صرامة. عندما فتح الباب الرئيسي ورأى عمته والسنّيور أونج بالداخل، عرف أن السنّيور ها لم يحضر إلى هناك.

«لماذا تأخرت جدا؟» قالت عمته. «إنك مبتل». ثم رأت لووز. «أغلقى الباب يا حبيبتي». قالت، وقد بدت مسرورة. بينما كانا يأكلان في الجزء المغطى من الفناء. استأنف السنّيور أونج ما كان يقوله بوضوح في وقت سابق من ذلك المساء.... نظرت إليّ مباشرة من دون أن تنطق بكلمة. «من؟»، قالت عمته، وهي تبتسم إلى لووز.

«امرأة فرنانديز اليوم بعد الظهر»، كان صوت السنّيور أونج محملا بالضجر. «كان هذا برهانا كافيا بالنسبة إلي. لقد حصلت عليه من مكان آخر».

أصدرت عمته صوت شخير مزمجر. «ألا تزال تبحث عن دليل! نينا، تناولى مزيدا من اللحم». كومت طعاما إضافيا في طبق لووز.

«نعم، لم يعد هناك شك الآن»، واصل السنّيور أونج.

«ياله من شعر جميل! أوه، يا إلهي!» وملست على رأس الفتاة. كان نيكو يشعر بالخجل: فقد كان على دراية بأنه قد قام بدعوتها إلى العشاء لأنه كان خائفاً من العودة إلى البيت بمفرده، وكان يعرف أن عمته كانت تلمس شعر الفتاة فقط من أجل أن تجلب لنفسها الحظ السعيد. تنهد في بؤس وألقى بنظرة سريعة على لوز؛ التي بدت راضية تماماً بينما كانت تأكل.

فجأة سمعوا عدة طرقات عالية على الباب الرئيسي. فنهض السنيور أونج وذهب إلى الصالة. كان هناك صمت. قال صوت رجل باللغة الإسبانية: «هل أنت الأصفر المدعو سنيور أونج؟» فجأة أعقب ذلك الكثير من الضجة؛ تعارك بالأقدام واحتكاك الأثاث على الأرضية البلاط. قفزت عمه نيكو وجرت إلى المطبخ حيث بدأت تصلي بصوت عال جدا. في الصالة كانت هناك زمجرات وحشرجات، وعندما أصبحت الضجة أقل شدة، قال رجل: «جيد. أعرف جيدا. مائة جرام، على الأقل في حوزته. هذا كل ما نحتاج إليه، يا صديقي فامونوس».

انزلق نيكو عن كرسيه خلسة ووقف في المدخل. رجلان في معطفين بنيين مبتلين كانا يدفعان السنيور أونج إلى خارج الباب الرئيسي. لكنه لم يكن راغبا في المضي معهما. أدار رأسه فرأى نيكو، وعندما همّ بفتح فمه ليتحدث إليه، ضربه أحد الرجال بقبضته في جانب وجهه. «ليس أمام الولد»، قال السنيور أونج وهو يلوي فكه يمناً ويسرة ليرى إن كان على ما يرام: «ليس أمام الولد»، قال ثانية بشكل أكثر غلظة. صفق الرجل الثاني الباب مغلقا إياه. كانت الصالة فارغة. لم يكن هناك سوى صوت عمته

المنتحب في المطبخ، وهي تولول بصوت عال. التفت لينظر إلى
لووز، التي كانت جالسة في سكون تام.

«هل تريدان الذهاب إلى البيت؟» قال لها.

«نعم»، نهضت وجاءت عمته من المطبخ وهي تهز يديها بقوة ثم
اقتربت من لووز ووضعت يدها برفق على الشعر الأبيض، وهي
لا تزال تتلو وتغمغم بالصلاة.

«إلى اللقاء، يا حبيبتي. عودي في الغد»، قالت لها.

كان هناك مطر خفيف لا يزال يسقط، والقليل من
الحشرات كانت تصدر أصواتها من الأوراق المبتلة بينما كان
الطفلان الصامتان يسيران على امتداد الطريق إلى حيث
كانت تسكن لووز. عندما طرقا الباب انفتح على الفور. كانت
تقف هناك فتاة طويلة نحيلة. أمسكت بلووز بإحدى يديها
وجذبتها بعنف إلى الداخل من دون أن تتكلم، وأغلقت الباب
بيدها الأخرى.

عندما وصل نيكو إلى البيت ودخل إلى الصالة، ظن للوهلة
الأولى أن السنيور أونج قد عاد، لكنه أحس في اللحظة التالية
أنه كان في منتصف حلم سيئ. فقد كان السنيور ها جالسا هناك
يتحدث مع عمته. رفعت عينيها نحوه وكانت تبكي، وأمرته قائلة:
«اذهب إلى السرير».

بينما كان نيكو يمر أمامه انحنى السنيور ها وأمسك بذراعه
بإحكام. «أي»، قال نيكو رغما عنه: «لحظة واحدة». قال السنيور
ها، وهو لا يزال ينظر إلى عمة نيكو، ولم يرخ قبضته ولو للحظة.
«ربما يعرف هذا الولد». وقال دون وهو يدير وجهه نحو نيكو:

«لقد أخذت الشرطة السنيور أونج إلى السجن، إنه لن يعود إلى هنا، لقد أخفى شيئاً ما في هذا البيت. أين هو؟»
بدت الأصابع القاسية الصلبة كما لو أنها ستقطع جلد نيكو.
نظرت إليه عمته آملة بطريقة متوسلة راجية. أحس نيكو فجأة بالأهمية الشديدة.

«هناك»، قال مشيراً إلى التقويم.

نهض السنيور ها وانتزع الفتاة الجميلة عن الحائط. وعلى الفور كان بحوزته المظروف الأصفر. راح يتفحص محتوياته، ثم قال: «هل هناك المزيد؟»

«لا»، قال نيكو، مفكراً في المظروف الموضوع بأمان في مخزن شجرته هناك في الخارج حيث الليل المطر. بدأ السنيور ها يلوي ذراعه، لكن التفكير في خبيثته جعله يشعر بالقوة، وبأن ألمه وكراهيته قد تدفقا في ذلك الشعور بالقوة. ظل نيكو واقفاً في صلابة تاركا السنيور ها يؤلمه. بعد لحظة تركه السنيور ها، ثم قام بدفعه دفعة عنيفة أرسلته إلى منتصف الحجرة. «اذهب إلى السرير»، قال.

عندما خرج نيكو وأغلق الباب، استدار السنيور ها إلى عمته، وقال، «سأعود غداً ومعى ملابسي، ليس من الجيد أن يكون لديك ولد في البيت ولا يفعل شيئاً؛ سيقع في مشاكل. من الآن فصاعداً سوف يتولى تسليمه، لن يجيء إلى هنا أحد في البيت».
«لكن إذا أمسكت الشرطة...» اعترضت.

«لن تكون هناك مشكلة معهم. لقد تم ترتيب كل هذا. لحسن الحظ أن لدي قرابة ثلاثة آلاف بيزو تحت يدي». التقط حقيبته

ومضى إلى الباب. تبعته بإعجاب صريح، ثم تنهدت بعمق وقالت،
«ألن تبقى الليلة؟» نطقت الكلمات بفؤاد مرتعد، وبدت الكلمات
مفناجة بشكل غريب.

«لا. السيارة بانتظاري في الخارج. غدا «وفتح الباب. نهضت،
ثم ذهبت إليه وأمسكت بيده، وهي تضغطها بحرارة بين يديها.
«غدا»، قال مكررا.

عندما سارت السيارة مسافة بعيدة، ولم يعد في إمكانها
سماع صوت محركها، أغلقت الباب، وأطفأت النور، وخرجت إلى
الفناء، حيث مضت إلى الأرجوحة الشبكية واستلقت فوقها وهي
تتأرجح برفق ذهابا وإيابا.

«رجل ذكي»، قالت لنفسها. «ياله من حظ سعيد!» ثم توقفت
عن التأرجح للحظة. «حظ سعيد! بالطبع! لابد أن يأتي بها
ديونيسيوس مرة ثانية إلى البيت يوما ما قريبا جدا».

استمرت البلدة في رخائها، وواصل الهنود النزول من
المرتفعات محملين بالمال، كانت الغابة الكثيفة على امتداد الطريق
إلى ماباستينانجو قد تم اقتلاعها، وتم توسيع الطريق وتحسينه.
اشترى نيكو حزمة من المظاريف الصغيرة. وعثر بعيدا عند مصب
النهر على شجرة أخرى مجوفة. وفيها احتفظ بكنزه المخزون
الذي كان يتزايد ببطء، وأثناء الشهر الأول بالذات احتفظ بما
يكفي من المال الإضافي لشراء أحمر شفاه من أجل لوز ونظارة
شمسية مزينة بأحجار كريمة حمراء وخضراء في كل جزء من
أجزاء إطارها.

فريسة رقيقة

كان هناك ثلاثة فيلالين يبيعون الجلد في تبليالة^(٥٤) : أخوان والابن الأصغر لشقيقتهما . كان التاجران الأكبر سنا رجلين جادين وملتحين يحبان الانشغال بالمناقشات اللاهوتية المعقدة أثناء المرور البطيء لساعات النهار الحارة في حانوتهما^(٥٥) قرب ساحة السوق؛ وكان الشاب بالطبع يشغل نفسه بصفة مستمرة مع البنات ذوات البشرة السمراء على وجه التحديد في «الحي المحظور»^(٥٦) . وكانت هناك فتاة منهن بدت له أكثر جاذبية من الأخريات، لدرجة أنه شعر بشيء من الحزن عندما أخبره خاله أنهما سوف يغادرون إلى تساليت^(٥٧) . لكن لكل بلدة تقريبا «الحي» الخاص بها، وكان إدريس متأكدا على نحو معقول من قدرته على الحصول على أي فتاة مقيمة في أي حي من هذه الأحياء، مهما تكن روابطها العاطفية في الوقت الراهن، لهذا فإن الإحباط الذي انتابه عقب سماعه بمشروع الرحيل كان قصير الأجل .

انتظر الفيلاليون الثلاثة حلول فصل الشتاء قبل أن يشرعوا في الخروج إلى تساليت . ولأنهم كانوا يريدون الوصول إلى هناك بسرعة فقد اختاروا طريقا في أقصى الغرب، وهو أيضا الطريق الذي يمتد في أكثر الأقاليم بعدا والقريب في نفس الوقت من أراضي قبائل الرقيبات النهائية . كان قد مر وقت طويل لم ينزل

(٥٤) تقع في غرب الجزائر - [المترجم] .

(٥٥) وردت بالعربية - [المترجم] .

(٥٦) وردت بالفرنسية - [المترجم] .

(٥٧) تقع في شمال مالي - [المترجم] .

فيه هؤلاء الأجلاف من حمادتهم للانقضاض على قافلة من القوافل، اعتقد معظم الناس أنهم قد فقدوا بعد حرب «سارغو» الجزء الأكثر من أسلحتهم وذخيرتهم، وبقي الجزء الأكبر أهمية، وهو روحهم المعنوية. ثم إن مجموعة صغيرة مكونة من ثلاثة رجال وجمالهم من الصعب أن توقظ طمع الرقيبات، الذين يتمتعون بالثراء عادة بسبب الغنائم التي كانوا قد حصلوا عليها على امتداد طريق وادي الذهب^(٥٨) وموريتانيا.

رافقهم أصدقاؤهم في تلبالة، ومعظمهم أيضا تجار جلود فيلاليون، حتى أطراف البلدة وهم يشعرون بالحزن لمغادرتهم؛ ثم تمنوا لهم سفرا سعيدا، وشاهدوهم وهم يمتطون جمالهم ويمضون ببطء نحو الأفق المتألق.

وصاحوا بهم: «إذا قابلتم أيا من الرقيبات، فاجعلوهم في المقدمة أمام أعينكم!»

كان الخطر يكمن بالدرجة الأولى في الأرض التي سيهبطون إليها بعد ثلاثة أيام أو أربعة من رحيلهم عن تلبالة، وكانوا بعد أسبوع سيتركون خلفهم حدود الأرض التي يسكنها الرقيبات. كان الجو باردا بشكل معتدل إلا في منتصف النهار. كانوا يتبادلون أدوار الحراسة ليلا، وعندما كان إدريس يبقى في نوبة الحراسة كان يظل مستيقظا ويستل نايًا صغيرا كانت نغماته الحادة تجعل خاله الأكبر يعبس من الضيق، إلى حد كان يجعله يطلب منه أن يذهب ويجلس على بعد مسافة من أماكن نومهم فوق البطاطين، وكان إدريس يجلس طوال الليل وهو يعزف أي ألحان حزينة كان

(٥٨) في الجزء الجنوبي مما كان يسمى بالصحراء الإسبانية في شمال غرب أفريقيا - [المترجم].

بإمكانه أن يتذكرها، فالألحان المرحّة في رأيه لم تكن مناسبة إلاّ للحي، حيث لن يكون بمفرده أبداً.

وعندما كان الخالان يقومان بالحراسة، كانا يجلسان في هدوء، وهما يحدقان أمامهما مباشرة في ظلمة الليل. لم يكن هناك سوى ثلاثتهم فقط.

وفي أحد الأيام، ظهر شخص بمفرده، وكان يتحرك نحوهم عبر السهل المقفر من جهة الغرب. كان يركب جملاً، ولم تكن هناك أي إشارة تدل على وجود آخرين، وعلى الرغم من ذلك فقد مسحوا الخلاء بأعينهم في جميع الاتجاهات. توقفوا لفترة، فغيّر الرجل من مساره قليلاً. ساروا إلى الأمام، فغيّر من مساره مرة ثانية. لم يكن ثمة شك في أنه كان يريد التحدث معهم.

«لندعه يقترب، فلدى كل منا سلاح»، دمدم الخال الأكبر سناً، وهو يحملق في الأفق الفارغ مرة أخرى.

ضحك إدريس. فقد بدا له من غير المعقول حتى افتراض سعي رجل بمفرده إلى المشاكل.

عندما اقترب هذا الشخص أخيراً إلى مسافة تسمح بسماع صوته، حياهم في صوت يشبه صوت المؤذن قائلاً: «السلام عليكم^(٥٩)» توقفوا، من دون أن يترجلوا عن مطاياهم، وانتظروا أن يقترب الرجل أكثر. وسرعان ما ألقى عليهم التحية مرة ثانية، وفي هذه المرة رد عليه الخال الأكبر التحية، لكن المسافة كانت لا تزال أبعد من أن تحمل صوته، فلم يسمع الرجل رد التحية. كان الآن قد اقترب منهم بدرجة كافية أتاحت لهم أن يلاحظوا أنه لم

(٥٩) وردت بالعربية - [المترجم].

يكن يرتدي ملابس الريحوبيا . تهامسوا في ما بينهم: «إنه قادم من الشمال وليس من الغرب». وشعروا جميعا بالارتياح. ومع ذلك، عندما اقترب منهم أكثر بقوا فوق جمالهم، وانحنوا في وقار وجدية وهم في مجالسهم، وظلوا يبحثون في الوجه الجديد والملابس التي من تحته عن بعض مظاهر زائفة قد تمكنهم من إمالة اللثام عن الحقيقة المحتملة، وهي أن يكون الرجل دليلا مرشدا للرقيبات، الذين يركنون في انتظار وترقب على بعد ساعات قليلة في الحمادة، أو أنهم قد تحركوا الآن بالفعل في طريق مواز، لإحكام الخناق عليهم بهذه الطريقة بحيث لا يستطيعون الوصول إلى مكان يصبح بالإمكان رؤيتهم فيه قبل الغروب.

لم يكن الغريب بكل تأكيد من أفراد قبيلة الرقيبات، فقد كان خفيفا ومرحاً، وكانت بشيرته فاتحة ولحيته صغيرة جدا. لم يكن إدريس مستريحا لعيني هذا الرجل الصغيرتين المفعمتين بالنشاط واللتين تبدوان وكأنهما تأخذان كل شيء ولا تمنحان شيئا، لكن الانطباع العابر أصبح فقط جزءا من الريبة الأولية العامة التي لدى جميع الناس، والتي تلاشت تماما عندما تبينوا أن الرجل كان منقاريا. و«منقار» مكان مقدس في ذلك الجزء من العالم، ويقطنه سكان قليلون تتم معاملتهم باحترام من جانب الحجاج الذين يأتون لزيارة ضريح مهدم قريب من هناك.

لم يحمل القادم الجديد نفسه أي نوع من أنواع المشقة لإخفاء مشاعر الخوف التي كان يشعر بها لكونه بمفرده في تلك المنطقة، أو المتعة والسرور اللذين شعر بهما لوجوده الآن مع ثلاثة رجال آخرين. ترحلوا جميعا عن مطاياهم وقاموا بإعداد الشاي لتوثيق

عرى الصداقة بينهم، خاصة أن المنقاري قد قام بتهيئة فحم الخشب لذلك الغرض.

أثناء الجولة الثالثة للكؤوس بينهم اقترح المنقاري مرافقتهم نظرا لأنه كان سيمضي في نفس اتجاههم تقريبا إلى «تاوديني». كانت عيناه السوداوان اللامعتان تحدقان في كل فيلالي منهم على التعاقب، شرح لهم أنه قناص ماهر جدا، وأنه كان على يقين من إمكانية تزويدهم جميعا ببعض من لحم الغزال الجيد خلال الطريق، أو على الأقل أحد «الأوداد»^(٦٠). أخذ الفيلاليون يتدبرون الأمر، وفي النهاية قال أكبرهم سنا: «اتفقنا». فحتى لو تبين أن المنقاري قناص غير ماهر بالدرجة التي زعمها لنفسه، فإنهم سيكونون أربعة في الرحلة بدلا من ثلاثة.

بعد نهارين، في الصمت العظيم للشمس المشرقة، أشار المنقاري إلى التلال المنخفضة التي كانت تمتد إلى الجوار منهم في جهة الشرق وقال: «تم»^(٦١). أنا أعرف هذه الأرض. انتظروني هنا. إذا سمعتموني أطلق الرصاص، عندئذ اقتربوا، لأن ذلك يعني أن ثمة غزالان».

ذهب المنقاري سيرا على قدميه، وراح يتسلق بين الجلاميد ثم اختفى خلف أقرب قمة. «إنه يثق بنا»، فكر الفيلاليون. «فقد ترك لنا جملة، وبطاينه، ومتاعه». لم ينطق أحد منهم بشيء، لكن كل واحد منهم كان يعرف أن الآخرين كانوا يفكران في الشيء نفسه الذي يفكر هو فيه، وشعروا جميعا بود وألفة نحو الغريب. كانوا يجلسون

(٦٠) وردت بالعربية، وهي نوع من الأغنام أو الخراف البرية في شمال أفريقيا لها أهداب طويلة من الشعر في الرقبة والصدر والأرجل - [الترجم].
(٦١) وردت بالعربية - [الترجم].

في برودة الصباح الباكر بينما كانت الجمال تدمدم.
 بدا أنه من المستبعد الجزم بوجود أي غزلان في المنطقة،
 لكن إن كانت ثمة غزلان وكان المنقاري صيادا ماهرا كما يدعي
 لنفسه، فعندئذ ستكون هناك فرصة لأن يأكلوا لحم الغزال
 المشوي^(٦٢) ذلك المساء، وسيكون هذا الأمر رائعا.
 بدأت الشمس ترتفع ببطء في زرقة السماء القاسية. نهض
 أحد الجمال بثناقل ومضى مبتعدا، وهو يأمل في العثور على
 نبات شوكي ميت أو دغل بين الصخور، أي شيء متروك على
 مدار سنة مضت منذ كانت الأمطار تسقط. وعندما اختفى
 الجمل عن الأنظار، ذهب إدريس للبحث عنه وعاد به إلى جوار
 الجمال الأخرى، وهو يصيح فيه: «هت!»
 جلس إدريس. فجأة جاء صوت طلقة نارية، أعقبه فاصل
 طويل من الصمت، ثم دوت طلقة أخرى. كانت أصوات الطلقات
 بعيدة نوعا ما، لكنها واضحة تماما في السكون المطبق. قال الأخ
 الأكبر: «سأذهب. من يدري؟ فريما تكون هناك غزلان كثيرة».
 تسلق الصخور، وبندقيته في يده، ثم اختفى.
 انتظرا مرة أخرى. عندما جاءت أصوات طلقات نارية هذه
 المرة، بدا أنها كانت صادرة عن بندقيتين وليس بندقية واحدة.
 «ربما قاما بقتل أحد الغزلان!» صاح إدريس.
 «يمكن^(٦٣). بعون الله»، أجاب خاله، وهو ينهض متناولاً بندقيته.
 «أريد أن أجرب، أن أختبر مهارتي».

(٦٢) وردت بالعربية - [المترجم].

(٦٣) وردت بالعربية - [المترجم].

أصيب إدريس بإحباط، فقد كان يأمل في أن يذهب هو، ولو أنه بادر بالقيام منذ ثانية فقط، فربما كان الأمر ممكناً، لكن رغم ذلك فقد كان من اللازم أن يتركوه وراءهم للقيام بحراسة الجمال. على أي حال، فقد فات الأوان الآن، وتكلم خاله قبله. «حسناً».

ذهب خاله وهو يترنم بأغنية من تافيلالت^(٦٤): كانت الأغنية عن أشجار النخيل وابتسامات خفية. وظل إدريس لعدة دقائق يسمع شذرات من الأغنية، عندما كان اللحن يبلغ نغماته العالية. ثم ضاع الصوت بعد أن ابتلعه الصمت المحيط.

ظل إدريس ينتظر. بدأت حرارة الشمس تزداد سخونة، فغطى رأسه بيرنسه. كانت الجمال تنظر إلى بعضها البعض في بلادة، وهي تشرئب بأعناقها، وتكشف عن أسنانها الصفراء والبنية. فكّر في أن يقوم بالعزف على الناي، لكن اللحظة لم تبد مناسبة: فقد كان قلقاً جداً، وبه رغبة شديدة في أن يكون هناك معهم وبندقيته في يده، ليكمن خلف الصخور، ويتربص بطريدة رقيقة. راح يفكر في تساليات وتساءل عما ستكون عليه. مكتظة بالسود والطوراق، من المؤكد أنها أكثر حيوية ونشاطاً من تبليالة، بسبب الطريق الذي يمر بها. كان هناك صوت طلقة نارية. انتظر دوي طلقات أخرى، لكن لم يكن هناك المزيد هذه المرة. تخيل نفسه للمرة الثانية بين الصخور، يصوب نحو حيوان يلوذ بالفرار. يضغط على الزناد، فيسقط الحيوان. تظهر حيوانات أخرى، فيسقطها كلها. وفي الظلام يجلس المسافرون متحلقين حول

(٦٤) واحة جنوب شرق المغرب - [المترجم].

النار وهم يلتهمون اللحم الطري المشوي، ووجوههم تلمع بفعل الدهن. ويكون الجميع سعداء، لدرجة أن المنقاري يعترف بأن الفيلاي الصغير كان أفضل صياد بينهم.

مع تزايد شدة الحرارة أخذته سنة من النوم، كانت خواطره تلهو وترتع فوق مشهد النساء وأجسادهن، وكانت مقاطع موسيقية تطفو في السماء مثل السحب، وكان الهواء مثقلا بعقب دخان لحم الغزال السمين.

اعتدل جالسا وألقى بنظرة سريعة إلى ما حوله. كانت الجمال جالسة ورقابها ممتدة أمامها على الأرض. لم يتغير شيء. نهض، وتفحص المشهد الحجري من حوله في اضطراب وقلق. فبينما كان نائما، تسلل إلى وعيه وجود عدائي. وعندما حاول التعبير عما جال بخاطرته وشعر به بالفعل، أطلق صرخة مدوية. فمئذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناه على تينك العينين المفعمتين بالنشاط والحيوية شعر بعدم الثقة في صاحبهما، لكن حقيقة أن خاليه قد قبلاه بينهم دفعت الشك بعيدا إلى غيابة غور مظلم في عقله. أما الآن، فقد تجدد هذا الشك مرة ثانية، بعدما أفلت من عقاله أثناء سباته. التفت نحو سفح التل الساخن وحدّق بإمعان بين الجلاميد، وخلال الظلال القاتمة. سمع في ذاكرته صوت الطلقات بين الصخور مرة ثانية، ففهم ما الذي كانت تعنيه. أمسك أنفاسه وهو يجهش بالبكاء، وجرى لاعتلاء ظهر جملة، وهو يرغمه على النهوض، وكان قد قطع بالفعل مئات الخطوات قبل أن ينتبه لما كان يفعله. أوقف الحيوان ساكنا للحظة، وألقى بنظرة خاطفة على المخيم وراءه وهو خائف ومتحير. إذا كان

خالاه قد تم قتلهم، فعندئذ لن يكون بالإمكان القيام بشيء خلا التوغل في الصحراء المفتوحة بأسرع ما يمكن، بحيث يكون بمنأى عن الصخور التي يمكن أن تخفي المنقاري بينما يقوم بالتصويب نحوه.

وعلى الرغم من أنه لم يكن على دراية بالطريق إلى تساليت، ولم يكن معه ما يكفي من الطعام أو الماء للوصول إليها، فقد استمر في طريقه إلى الأمام، وهو يرفع يده بين الفينة والأخرى ليحفف دموعه.

واصل طريقه على هذه الحال لمدة ساعتين أو ثلاث، وهو لا يكاد يبصر المكان الذي كان الجمل يطأه. فجأة جلس بشكل مستقيم، وراح يوجه السباب إلى نفسه، وفي غمرة غضبه، أدار الحيوان إلى الاتجاه المعاكس. فمن المحتمل في تلك اللحظة على وجه التحديد أن يكون خالاه جالسين في المعسكر مع المنقاري، وهما يعدان المشوي ويوقدان النار، ويسألان أنفسهما بأسى لماذا هجرهما أبن أختهما أو ربما يكون أحدهما قد انطلق بالفعل بحثاً عنه. لن يكون هناك أي عذر ممكن لسلوكه، الذي هو نتيجة لرعب أحرق. وبينما كان يفكر في الأمر، كان غضبه من نفسه يتعاظم: فقد تصرف بطريقة لا تغتفر. انقضى منتصف النهار، وكانت الشمس قد مالت إلى جهة الغرب. سيكون الوقت متأخراً عندما يصل. وبينما كان يتوقع العتاب الذي لا مفر منه والضحكات الساخرة التي ستكون في انتظاره، شعر بوجهه وقد أصبح ساخناً من فرط الخجل، فضرب جنبي الجمل بعقبه في ضراوة.

قبل فترة طويلة من وصوله إلى المعسكر سمع غناء، فأدهشه هذا. توقف وأصاخ السمع: كان الصوت بعيدا جدا بحيث لا يمكنه أن يتعرف عليه ويميزه، لكن إدريس كان على يقين من أنه كان صوت المنقاري. دار حول سفح التل حتى وصل إلى مكان يتيح له رؤية الجمال. توقف الغناء، وخيم صمت بدلا منه. لاحظ أن بعض الأمتعة قد تم تحميلها ثانية فوق ظهر الحيوانات، تمهيدا للرحيل. كانت الشمس قد انحدرت تدريجيا، وكانت ظلال الصخور قد انبسطت على امتداد الأرض. لم تكن هناك أي علامة تدل على أنهم قد اصطادوا أي طرائد. أطلق صيحة بينما كان يتأهب للنزول عن مطيته. في نفس اللحظة تقريبا كانت هناك طلقة نارية من مكان ما على مقربة في الجوار، وسمع صوتا قصيرا لرصاصة تمرق بجوار رأسه. أمسك ببندقيته؛ فانطلقت رصاصة أخرى شعر على إثرها بألم حاد في ذراعه، ولم يقو على حمل البندقية فسقطت على الأرض.

ظل جالسا في مكانه للحظة ممسكا بذراعه، وهو مذهول. ثم ألقى بنفسه على الأرض بسرعة وخفة وظل جاثما بين الأحجار، وهو يحاول الوصول بذراعه السليمة إلى البندقية التي سقطت منه إلى الأرض. وعندما لمسها، كانت هناك طلقة ثالثة، وتحركت البندقية على امتداد الأرض لبضعة بوصات وسط سحابة من الغبار. سحب يده ونظر إليها، كانت داكنة والدم ينساب منها. في تلك اللحظة قفز المنقاري بسرعة إلى المساحة التي تفصل بينهما، وقبل أن يتمكن إدريس من النهوض كان الرجل قد ألقى بنفسه عليه، ودفعه إلى الوراء فوق الأرض بماسورة بندقيته. كانت

السماء الصافية ممتدة في الأعلى، فرمقها المنقاري بنظرة تحد .
وركب فوق الشاب المنبطح على ظهره، وغرس ماسورة البندقية
في رقبته تحت ذقنه مباشرة، وهمس إليه قائلاً: «كلب فيلالي!»
حدّق إدريس فيه بفضول من نوع خاص. كانت اليد العليا
للمنقاري؛ ولم يكن بإمكان إدريس سوى الانتظار. نظر إلى وجه
المنقاري في ضوء الشمس التي كانت على وشك الغروب، فتكشّف
له عن شراسة مميزة فيه. كان على دراية بأن هذا التعبير ينجم
عن تعاطي الحشيش. فالرجل الذي تحلق به أنفاس الحشيش
الساخنة بإمكانه الهرب والانفصال بعيداً جداً عن عالم الإدراك.
ولكي يتلافى إدريس ذلك الوجه الكريه الحاقد، كان يدير عينيه
ذات اليمين وذات الشمال. لم يكن من شيء هناك سوى السماء
الآخذة في الشحوب. كانت ماسورة البندقية تعيقه عن التنفس
بعض الشيء. إلا أنه قال في صوت مكتوم: «أين خالاي؟»
دفع المنقاري بندقيته بقوة في عنقه، وانحنى فوقه بشكل
جزئي ويبد واحدة نزع عنه سراويله^(٦٥)، حتى أنه كان ممدداً على
الأرض عارياً من خصره إلى قدميه وهو يتوجع ويتلوى قليلاً لأنه
كان يشعر بالحصى البارد من تحته.

ثم أخرج المنقاري حبلاً وقيّد قدميه. ثم تقدم خطوتين نحو
رأسه، والتفت بوجهه على نحو مفاجئ في الاتجاه الآخر، وغرس
ماسورة بندقيته في سُرّة إدريس. ويبد واحدة، سحب ما تبقى
من ملابس كانت تستر الفتى إلى فوق رأسه وربط معصميه معا.
وبشفرة حلقة قديمة قطع ما تبقى من الحبل. في تلك الأثناء

(٦٥) وردت بالعربية - [الترجم].

كان إدريس يصرخ في صوت عال مناديا على خاليه باسميهما،
الواحد بعد الآخر.

تحرك الرجل مبتعدا قليلا وراح يمعن النظر في الجسم
الصغير الممدد على الأحجار. ومرّر إصبعه على امتداد شفرة
الحلاقة، فاعترته نشوة لطيفة مدغدة. خطا مقتريا منه،
ونظر إلى أسفل، فرأى الجزء الذي كان بارزا من قاعدة البطن.
ومن دون وعي كامل بما كان يفعله، أمسك به بإحدى يديه وترك
ذراعه الأخرى تهوي عليه بحركة مماثلة لحركة حاصد يحصد
بمنجله. اجتث الجزء البارز على الفور من دون عناء، تاركا ثقباً
مستديرا داكنا في مستوى سطح الجلد، وراح الرجل يحدق
للحظة، بوجه خال من أي تعبير. كان إدريس يصرخ. وكانت
عضلات جسمه كلها بارزة وتنتفض بشدة.

ابتسم المنقاري ببطء، كاشفا عن أسنانه. ووضع يده على
البطن المتصلب وملّس على البشرة. ثم قام بعمل شق طولي
صغير في ذلك المكان، وباستخدام كلتا يديه، حشر فيه العضو
المستأصل بعناية حتى اختفى داخل الشق.

بينما كان ينظف يديه في الرمال، صدر عن أحد الجمال
فجأة صوت دمدمة. قفز المنقاري إلى أعلى وأخذ يدور ويلف
هنا وهناك بوحشية، وهو يرفع يده الممسكة بشفرة الحلاقة
إلى أعلى في الهواء. في تلك الأثناء، وهو يشعر بالخجل من
عصبيته، شعر بأن إدريس كان يراقبه ويحتقره، (على الرغم
من أن عيني الشاب كانتا لا تبصران من فرط الألم) فركله حتى
انقلب على بطنه حيث تمدد وكانت تصدر عنه حركات تقلصية

صغيرة متقطعة. وبينما كان المنقاري يتابع هذه التشنجات بناظريه، طرأت على باله فكرة جديدة. سيكون من اللطيف أن يلحق بالفيلايلي الشاب إهانة أخيرة لا تمحى. فألقى بنفسه فوقه، وفي هذه المرة كان المنقاري صاحبا ويتأوه بتأن من فرط استمتاعه. وفي النهاية نام.

استيقظ عند الفجر وبحث عن شفرة الحلاقة، التي كانت ملقاة بجواره على الأرض. كان إدريس يتأوه بصوت خافت. فقلبه المنقاري على ظهره وراح يضغط بحد الشفرة جيئة وذهابا في عنقه حتى تأكد تماما من أنه قد قطع القصبة الهوائية. ثم نهض، ومضى مبتعدا، وشرع في الانتهاء من مهمة تحميل الجمال التي كان قد بدأها في الأمس. وعندما فرغ من هذا قضى فترة طويلة من الوقت وهو يسحب الجسد إلى أسفل التل ثم أخفاه هناك بين الصخور.

كان من الضروري لكي يقوم بنقل بضائع الفيلايليين إلى تساليت (فلن يكون هناك مشتررون في تاودني) أن يأخذ جمالهم محملة بها معه. وصل إلى هناك بعد خمسين يوما تقريبا. تساليت مدينة صغيرة، لذلك عندما بدأ المنقاري في عرض الجلود هناك، سمع فيلايلي كبير في السن يدعى الشيباني عن وجوده عن طريق المصادفة. ومثله مثل أي مشتر متوقع حضوره جاء الشيباني لفحص الجلود، ولأن المنقاري لم يكن حكيما بما فيه الكفاية فقد سمح له برؤيتها. إن الجلد الفيلايلي لا تخطئه العين لتمييزه، وليس ثمة من يبيعه أو يشتريه بكميات كبيرة غير الفيلايلة. فهم الشيخ أن المنقاري قد حصل على الجلود بطريقة غير مشروعة، لكنه لم ينبس

بكلمة. وعندما وصلت بعد ذلك بعدة أيام قافلة من تبليالة تضم بين أفرادها أصدقاء للفيلايين الثلاثة؛ سألوا عنهم وظهر عليهم الضيق الشديد لسماعهم أن الفيلايين الثلاثة لم يصلوا بعد، ذهب الرجل العجوز إلى المحكمة، حيث أفلح، بعدما واجهته صعوبات عديدة، في العثور على فرنسي كان راغبا في الاستماع إليه. في اليوم التالي قام الحكمدار (رئيس الشرطة) واثنان من مرؤوسيه بزيارة المنقاري. وسألوه عن الكيفية التي تسنى له بها الحصول على ثلاثة جمال بالإضافة إلى جملة، وكانت لا تزال محملة ببضعة أسراج مزركشة تحمل الطابع الفيلاي؛ فاستمت إجابته بالمرأوخة. أنصت إليه الحكمدار بجدية، وشكره، وانصرف مغادرا. ولم يتسن للمنقاري رؤية الحكمدار وهو يغمز بعينه إلى رجله بينما كانوا يخرجون إلى الشارع. ولذلك فقد ظل جالسا في فناءه، وهو لا يدري أنه قد تمت محاكمته وأن إدانته قد ثبتت.

عاد الفرنسيون الثلاثة إلى المحكمة حيث كان التجار الفيلايون الذين وصلوا أخيرا يجلسون مع الشيخ الشيباني. كانت القصة ذات طابع قديم، لدرجة أنه لم يكن هناك شك على الإطلاق في أن المنقاري كان مذنبا. «إنه لكم»، قال الحكمدار، «افعلوا به ما تشاءون».

شكره الفيلايون بشدة، ثم عقدوا اجتماعا بحضور الشيباني، ومضوا في جماعة إلى الخارج. وعندما وصلوا إلى مقر إقامة المنقاري وجدوه يعد الشاي. نظر إلى أعلى، وعلى الفور سرت قشعريرة في عموده الفقري. وبدأ يصرخ إليهم بأنه بريء؛ لكنهم لم ينطقوا بشيء، قيدوه تحت تهديد السلاح ودفعوا به إلى أحد الأركان،

حيث استمر في الهذيان والنحيب. وراحوا في هدوء يشربون الشاي الذي كان يقوم بتجهيز منقوعه، ثم أعدوا المزيد منه، وخرجوا عند الغسق. ربطوه إلى أحد الجمال، وامتطى كل منهم جملة، وتحركوا في موكب صامت (إلا من صوت المنقاري) إلى الخارج عبر بوابة المدينة بعيدا نحو الأرض الخراب اللانهائية.

استمروا في سيرهم لنصف ليلة، حتى وصلوا إلى منطقة مهجورة تماما في الصحراء. بينما كان المنقاري ممددا يهذي، وهو مقيد إلى الجمل، قاموا بحفر حفرة عميقة تشبه البئر، وعندما انتهوا من عملهم رفعوه إلى أعلى، وهو لا يزال مقيدا بإحكام، وأوقفوه فيها. ثم ملأوا كل المكان المحيط بجسده بالرمال والأحجار، حتى لم يعد منه شيء فوق مستوى سطح الأرض سوى رأسه. وقد بدا رأسه الحليق بدون عمامته في ضوء الهلال الباهت مثل صخرة صغيرة. ومع ذلك ظل يتوسل إليهم، وهو يصرخ مُشهدا الله وسيدي أحمد بن موسى على براءته. لدرجة أنهم كانوا ينصتون إلى كلماته بانتباه كامل كما لو أنه كان يصدق بإحدى الأغنيات. وفي الوقت الراهن كانوا ينطلقون إلى تساليت، وبسرعة فائقة كانوا قد ابتعدوا عن نطاق وصول الصوت.

وعندما انصرفوا صمت المنقاري تماما، وهو ينتظر على امتداد الساعات الباردة أن تطلع الشمس التي سوف تبعث فيه الدفء في بادئ الأمر، ثم الحرارة بعد ذلك، ثم الظمأ، ثم الحمى، ثم الهذيان والهلاوس. في الليلة التالية، لم يدر أين كان، ولم يعد يشعر بالبرد. كانت الريح تكس الغبار على امتداد الأرض إلى داخل فمه بينما كان يغني.

الوادي المستدير

هناك دير مهجور مقام فوق ربوة صغيرة في وسط خلاء شاسع في الغابة التي انحدرت من جميع جهات الأرض في رفق نحو الأرض، متشابكة وكثيفة لدرجة أنها ملأت الوادي المستدير، المحاط في مواطن عدة بمنحدرات صخرية سوداء شديدة الانحدار. كانت هناك أشجار قليلة في بعض أفنيته، وقد استخدمتها الطيور كأماكن لالتقائها عندما كانت تطير بعيدا عن الحجرات والممرات حيث قامت ببناء أعشاشها. ومنذ وقت طويل أخذ قطاع الطرق كل ما كان قابلا للحمل من المبنى. وكان الجنود قد استخدموا الدير في ما مضى كمقر لهم، وكانوا، مثل قاطعي الطرق، يشعلون النيران في الحجرات الكبيرة التي كانت الرياح شديدة فيها حتى أنها بدت في ما بعد مثل المطابخ الأثرية القديمة. وبعدما تم إفراغ كل ما كان في الداخل، بدا أنه لن يأتي أحد مجددا قرب الدير. اقتربت النباتات من السور الواقعي؛ وسرعان ما أصبح الطابق الأول محجوبا عن الرؤية بواسطة أشجار صغيرة متسلقة قامت بطرح عرائشها لتحيط بأفاريز وعتبات النوافذ. نمت مراعي ملتوية شديدة الرطوبة وكثيفة؛ حتى أنه لم يكن هناك طريق خلالها.

في أعلى نهاية الوادي المستدير كان هناك نهر يجري من المنحدرات ليتحول إلى وعاء من البخار وصوت هادر كصوت الرعد في الأسفل؛ وبعد ذلك ينحدر على امتداد قاعدة من المنحدرات حتى يجد فجوة في النهاية الأخرى للوادي، حيث

يسرع خلالها بحكمة من دون منحدرات، ولا شلالات، كان خيط أسود كثيف من المياه يتحرك في خفة وانسيابية إلى أسفل التل بين الجوانب المصقولة للوادي. ووراء الفجوة حيث تتسع الأرض وتصبح مبتسمة؛ استقرت قرية على جانب التل في الخارج مباشرة. في الأيام التي كان الدير فيها مأهولا كان الرهبان يحصلون على لوازمهم من تلك القرية، نظرا لأن الهنود لم يكونوا يدخلون الوادي المستدير. منذ قرون عندما كان يجري تشييد المبنى استقدمت الكنيسة العمال من منطقة أخرى في الريف. كان هؤلاء أعداء تقليديين للقبائل التي في الجوار، وكانوا يتحدثون لغة أخرى، ولم يكونوا مصدرا للخطر نحو السكان الذين كانوا يتواصلون معهم عندما كانوا يعملون في تشييد الأسوار الضخمة. استغرق البناء فترة طويلة جدا بالطبع لدرجة أنه قبل اكتمال الجناح الشرقي كان جميع العمال قد ماتوا، واحدا في أثر الآخر. لذلك أكمل الرهبان بأنفسهم غلق نهاية الجناح بأسوار لا نوافذ فيها، تاركين إياها بهذه الطريقة، غير مكتملة ولا توجد بها فتحات، في مواجهة المنحدرات السوداء.

جيلا بعد جيل، كان الرهبان يفسدون، أولادا صغارا يافعين ثم يصبحون نحفاء ويعتريهم الشيب، وفي النهاية يموتون، ويتم دفنهم في حديقة تحتوي على نافورة تقع خلف الساحة. في أحد الأيام منذ فترة ليست بالبعيدة تركوا الدير كلهم، ولم يعرف أحد أين ذهبوا، ولم يفكر أحد في أن يسأل. بعد فترة قصيرة من رحيلهم جاء قاطعو الطرق ثم الجنود. وحتى ذلك الحين، نظرا لأن الهنود لا يتغيرون، لم يصعد أحد من القرية حتى الآن عبر

الفجوة لزيارة الدير. كانت هنا معيشة الأتلاجالا؛ لم يقو الرهبان على اللجوء إلى قتله كحل وحيد، وفي النهاية استسلموا وذهبوا بعيدا. لم يندهش أحد، لكن شهرة واسعة ومكانة عالية أضيفت لصالح الأتلاجالا بمغادرتهم. على مدار القرون التي بقي فيها الرهبان في الدير، تساءل الهنود عن سبب سماح الأتلاجالا لهم بالبقاء. الآن، أخيرا، ينقادون مطرودين إلى الخارج. لقد كانت معيشة الأتلاجالا هناك بشكل دائم، حسبما قالوا، وستستمر هذه المعيشة هناك لأن الوادي كان بيت الأتلاجالا، ولم يكن من الممكن الرحيل عنه أبدا.

في الصباح الباكر كان تنقل الأتلاجالا في توتر وضجر عبر أروقة الدير. كانت الحجرات المظلمة تمر سريعا، واحدة تلو الأخرى. وفي ساحة صغيرة، حيث اندفعت الأشجار اليافعة المتلهفة للنمو من أحجار الأرضية إلى أعلى لتصل إلى الشمس، كان الأتلاجالا يتوقف لبرهة، حيث يكون الهواء ممتلئا بأصوات صغيرة: حركات ورفيف الفراشات، وتساقط أوراق الأزهار الصغيرة على الأرض، والهواء الذي يتبع مساراته العديدة حول حواف الأشياء، والنمل الذي كان يواصل أعماله التي لا تنتهي في التراب الساخن. في الشمس كان الأتلاجالا ينتظر، وكان على دراية ووعي بكل تعاقب سواء في الصوت أو الضوء أو الرائحة، يعيش في خضم التحلل البطيء المستمر والمتواصل الذي هاجم الصباح وبدله إلى فترة بعد الظهر. عندما كان المساء يحل، كان كثيرا ما ينسل إلى سطح الدير ويتطلع إلى السماء المعتمة: كان الشلال يهدر في البعيد. ليلة بعد ليلة، وعلى مدار السنوات

المتعاقبة، كان يحلق هنا فوق الوادي، متحوّلاً في سرعة البرق إلى خفاش، أو نمر، أو فراشة لدقائق قليلة أو ساعات، عائداً إلى استراحته الثابتة في مركز الخلاء المحاط بالمنحدرات الصخرية. عندما تم بناء الدير، كان قد أخذ في التردد على الحجرات، حيث لاحظ لأول مرة الإشارات والإيماءات التي لا معنى لها الخاصة بالحياة البشرية.

ثم أصبح ذات مرة من دون قصد أحد الرهبان الصغار. كان هذا إحساساً جديداً، وغريباً ومعقداً، وفي نفس الوقت خائفاً بشكل لا يطاق، كما لو كان قد تمّ التخلص إلى الأبد من أي احتمال بخلاف البقاء منعزلاً في عالم صغير تحكمه قوانين السبب والنتيجة. كان كالراهب، يذهب ويقف في النافذة، يتطلع إلى الخارج حيث السماء، فيرى للمرة الأولى، ليست النجوم ذاتها، بل الفضاء فيما بينها ووراءها. حتى في اللحظة التي شعر فيها بالرغبة في أن يرحل، في أن يخطو إلى خارج المحارة الصغيرة للعذاب حيث كان قد أقام لفترة، دفعه فضول مبهم لأن يبقى قليلاً وأن يشارك لفترة أكثر قليلاً في ذلك الإحساس غير المعتاد. وقف الراهب، ورفع ذراعه إلى السماء في إشارة توصل ومناشدة. ولأول مرة يشعر الأتلاجالا بالمعارضة، بالردة الناجمة عن الصراع. كان من الممتع والمبهج أن يشعر الشاب بالكفاح لتحرير ذاته من وجودها، ولم يكن من المحبب له بكل المقاييس أن يبقى هناك داخله. عندئذ أسرع الراهب مصحوباً بصرخة إلى الجانب الآخر من الحجرة وأمسك بكرياج جلدي ثقيل معلق على الحائط. تجرد من ملابسه وبدأ في ممارسة طريقة ذاتية وحشية

وضارية جدا في عقاب الذات. عند الضربة الأولى للسوط كان الأتلاجالا على وشك تحرير السوط من يده، لكنه أدرك وقتها أن فورية ذلك الألم الداخلي الخادع كانت تبرهن فقط على تأثر الجلد من الخارج، ولذلك تمهل الأتلاجالا وكان الشاب مستمرا وهو يشعر بتزايد الوهن تحت ضربات سوطه هو. وعندما انتهى وصلى إحدى الصلوات زحف إلى فراشه وسقط في النوم وهو ينتحب، وانسل الأتلاجالا إلى الخارج بطريقة غامضة ودخل في طائر كان يقضي الليل جالسا فوق شجرة كبيرة على حافة الغابة، وهو يهدف السمع إلى أصوات الليل، ويطلق صرخة من وقت إلى آخر.

وجد الأتلاجالا بعد ذلك أنه من المستحيل مقاومة الانسلال إلى داخل أجساد الرهبان؛ لقد زارهم الواحد تلو الآخر، وقد وجد تنوعا مدهشا من الأحاسيس في هذه العملية. كان كل واحد منهم عالما منفصلا، وله تجربة منفصلة، لأنه كان لكل منهم ردود أفعال مختلفة عندما كان الواحد منهم يصبح واعيا بوجود الكائن الآخر بداخله. ربما كان الواحد منهم يجلس ليقرأ أو يصلي، أو يذهب للقيام بسير طويل شاق في المراعي، في كل مكان حول المبنى، وكان بعضهم يجد رفيقا ليشترك معه في شجار عبثي سخيف لكنه مثير، وقليلون منهم كانوا ينتحبون، وكان البعض يقوم بجلد نفسه أو البحث عن صديق ليقوم بجلده. كانت هناك دائما وفرة غنية من المفاهيم بالنسبة إلى الأتلاجالا كي يستمتع بها، ولذلك لم يعد يخطر بباله التردد على أجساد الحشرات، والطيور والحيوانات ذات الفراء، بل ولا حتى التفكير

في مغادرته للدير والتقل فوق في الهواء. بدأ الأتلاجالا يجابه الصعوبات تقريبا عندما سقط ميتاً فجأة راهب عجوز كان يسكنه. كان ذلك الخطر هو الذي سرى على التعاقب بشكل متتابع في الرجال، الذين بدوا كأنهم لا يعرفون متى يهلكون، أو كانوا يعرفون بالفعل، لكنهم تظاهروا بمثل هذه القوة من عدم المعرفة، حتى أن الأمر كان بمثابة الشيء نفسه. الكائنات الأخرى تعرف مسبقا، إلا عندما تكون المسألة كونها تلقى حتفها على حين غرة ويتم افتراسها. ولذلك كان الأتلاجالا قادرا على منع تلك المباغته التي قد يتعرض لها الطائر الذي كان يبقى بداخله، ويجنبه دائما الخطر المحدق به من جانب الصقور والنسور.

عندما غادر الرهبان الدير، أطاعوا الأوامر الحكومية، بأن تجردوا من أروابهم الكهنوتية، وتفرقوا وأصبحوا عمالا، كان الأتلاجالا في حيرة لا يعرف كيف يمضي أيامه ولياليه. كان كل شيء في ذلك الحين قد صار مثلما كان عليه قبل وصولهم: لم يكن هناك سوى المخلوقات التي كانت تعيش في الوادي المستدير. جرب الأتلاجالا الدخول في: حية عملاقة، أو غزالة، أو نحلة، لكن لم يكن أحد يتمتع بالميزة التي تنامت فيه إلى مرتبة الحب. كان كل شيء كما كان من قبل، لكن ليس بالنسبة إلى الأتلاجالا، الذي عرف الوجود الإنساني، والآن لم يعد هناك إنسان في الوادي، فقط كان هناك المبنى المهجور بحجراته الفارغة التي تجعل غياب الإنسان أكثر إثارة للحزن.

جاء قاطعو الطرق بعد عام واحد، عدة مئات منهم في عصر يوم عاصف. عند الشفق قام بتجربة كثيرين منهم بينما كانوا

مسترخين هنا وهناك ينظفون أسلحتهم ويتشائمون، واكتشف حتى ذلك الحين أوجه ومظاهر أخرى من الإحساس: الكراهية التي شعروا بها تجاه العالم، والخوف الذي كان يملكهم من الجنود الذين كانوا يتعقبونهم، والميول الغريبة من الرغبة التي كانت تضطرم داخلهم عندما كانوا يتمددون مع ليسكروا قرب النار التي كانت تحترق وتدخل من دون لهب في وسط الأرضية، وألم الغيرة غير المحتمل الذي يبدو أن العريضة الليلية كانت توقظه داخل بعضهم. لكن قاطعي الطرق لم يملكوا طويلا. وعندما غادروا، جاء الجنود في أثرهم. كان ما شعر به الأتلاجالا كجندي شديد القرب مما كان عليه كقاطع طريق. كان الخوف الشديد والكراهية غير متوافرين، لكن ما تبقى كان مشابها تقريبا. لم يبد أن قاطعي الطرق أو الجنود كانوا على دراية بوجوده داخلهم؛ كان بإمكانه الانسلال من رجل إلى آخر من دون أن يحدث أي تغيير في سلوكهم. أدهشه هذا، نظرا لأن تأثيره على الرهبان كان واضحا جدا، وشعر بخيبة أمل أكيدة لاستحالة جعل وجوده معروفا لهم.

ومع ذلك، فقد استمتع الأتلاجالا إلى حد هائل، بكل من قاطعي الطرق والجنود، حتى أنه كان أكثر شعورا بالوحشة عندما تُرك وحيدا مرة ثانية. كان يصبح أحد طيور السنونو التي صنعت أعشاشها في الصخور بجانب قمة الشلال. وفي لهيب الشمس الحارقة كان يغطس مرارا وتكرارا في ستارة الرذاذ المتصاعد من بعيد في الأسفل، وكان يطلق في بعض الأحيان صرخات مبتهجة. كان يقضي يوما كاملا كسوسة نبات، ويأخذ في الزحف

ببطء على امتداد الجانب السفلي للأوراق، ويعيش في سكون في العالم الأخضر الضخم هناك في الأسفل حيث يختفي من السماء إلى الأبد. أو يعيش في الليل، في الجسد القطيفي الناعم لنمر أرقت، مما يتيح له أن يعرف متعة القتل. وقد عاش ذات مرة لمدة عام داخل ثعبان الماء في قاع بحيرة أسفل الشلال، وكان يشعر بتراجع الطين أمامه كلما كان يدفعه بأنفه المستوي؛ كانت تلك الفترة تتسم بالراحة والهدوء، لكن فيما بعد عاودته ثانية الرغبة في معرفة لغز الحياة البشرية، كانت محاولته لتخليص نفسه من هذا الهاجس الاستحواذي غير مفيدة وعقيمة. وكان يتنقل الآن في ضجر عبر الحجرات المهدمة، والوجود الأخرس، وحيدا، ومتعطشا لأن يكون متجسدا مرة ثانية، لكن فقط في جسد إنسان. وبسبب عمليات إمداد الطرق السريعة عبر الريف كان من المحتم أن يأتي الناس مرة ثانية إلى الوادي المستدير.

قاد رجل وامرأة سيارتهما حتى قرية في واد سفلي؛ كانا قد سمعا عن الدير المهدم والشلال الذي كان يسقط من أعلى المنحدرات في أرض واسعة منبسطة تحيطها التلال، وكانا قد قررا رؤية هذه الأشياء. جاء فوق بغلين لأن القرية كانت تقع خارج الفجوة، ولكن هناك حيث توجد الفجوة رفض الهنديان اللذان كانا قد استأجراهما المضي إلى مدى أبعد من ذلك، ولذلك واصلوا الطريق بمفردهما. ثم صعدا إلى أعلى الوادي حيث منطقة الأتلاجالا.

كان الوقت ظهرا عندما كانا يسيران في الوادي؛ وكانت العروق السوداء للمنحدرات الصخرية تلمع مثل الزجاج بفعل

أشعة الشمس الحارقة التي كانت تسقط عليها . أوقفنا البغلين قرب مجموعة من الصخور العملاقة عند حافة المراعي المنحدرة. نزل الرجل أولاً عن دابته، واقترب ليساعد المرأة على النزول. مالت هي إلى الأمام، ووضعت يديها على وجهه، وتبادلا القبلات لفترة طويلة. ثم أنزلها على الأرض وتسلقا اليد في الأخرى إلى أعلى فوق الصخور. حوّم الأتلاجالا قربيهما ليشاهد المرأة عن قرب: كانت أول امرأة على الإطلاق تجيء إلى الوادي. جلسا أسفل شجرة صغيرة فوق العشب، ينظران أحدهما إلى الآخر، وهما بيتسمان. على غير المتوقع، دخل الأتلاجالا في الرجل. على الفور، بدلا من أن يشعر بالتواجد وسط الهواء المشمس، وصيحات الطيور وروائح النبات، كان واعيا فقط لجمال المرأة وقربها الشديد. تراجع الشلال، والأرض، والسماء ذاتها، اندفعت إلى حيث الفراغ، ولم تكن هناك سوى ابتسامة المرأة وذراعيها ورائحتها. كان عالما أكثر اختناقاً وألماً عن ذلك الذي اعتقد الأتلاجالا أنه بالإمكان. ومع ذلك ظل، بينما كان الرجل يتكلم والمرأة ترد عليه، في داخل الرجل.

«اتركيه. إنه لا يحبك».

«سوف يقتلني».

«لكنني أحبك. أحتاجك إلى جواري».

«لا أستطيع. أنا خائفة منه».

اقترب الرجل منها ليجذبها إليه؛ فتراجعت إلى الوراء قليلا في خفة، لكن عينيها اتسعتا.

«لدينا اليوم بأكمله»، تمتمت، محولة وجهها نحو أسوار الدير
الصفراء.

احتضنها الرجل بعنف، وهو يكاد يحطم جسدها وكأن هذا
الفعل سينقذ حياته.

قال: «لا. لا. لا. لا. لا يمكنني الاستمرار هكذا». «لا».

كان ألم معاناته شديدا جدا، فترك الأتلاجالا الرجل في رفق
وتسلل إلى داخل المرأة. وكان عليه الآن إقناع نفسه أنه قد سكن
اللاشيء، وأنه يوجد داخل نفسه اللامحدودة ذاتها، وكانت نفسه
هذه على دراية ووعي كلي تام بالريح الهائمة، والرفيف الدقيق
لأوراق الشجر، والجو المشرق الذي كان يحيط بها. لكن كان
هناك اختلاف: فقد كان كل عنصر من العناصر مضخما بشدة،
وكان الكون كله ضخما هائلا، ولا حدود له. فهم الأتلاجالا
الآن ما كان يبحث عنه الرجل في المرأة، وعرف أن الرجل كان
يعاني لأنه لم يبلغ ذلك الإحساس بالاكتمال الذي كان يبحث
عنه. لكن الأتلاجالا، لكونه وحده داخل المرأة وفي توحد معها،
فقد بلغ ذلك الكمال، ولكونه واعيا بامتلاكه لهذا الكمال، فقد
ارتعش من البهجة. ارتجفت المرأة عندما التقت شفتها بشفتي
الرجل. هناك فوق العشب أسفل ظل الشجرة واصلا مرحهما
حتى بلغا ذرى جديدة، وقد شكل الأتلاجالا، الذي كان على
دراية بطبيعتهما وجسديهما، قناة واحدة بين رغباتهما الدفينة
المتصاعدة المتفجرة. طوال الوقت، ظل داخل المرأة، وبدأ يبتكر
بشكل غامض طريقا لإبقائها، إن لم يكن داخل الوادي نفسه،
فعلى الأقل على مقربة منه، حتى يتسنى لها العودة إليه.

سارا بعد الظهر، في حركات تشبه الحالم، إلى البغلين وامتطياهما، واقتادا البغلين خلال عشب المرعى الكثيف إلى الدير. توقفا داخل الفناء الكبير، وهما ينظران في تمهل إلى الأقواس القديمة في ضوء الشمس، وإلى الظلام الدامس داخل المداخل.

«هل سندخل؟» قالت المرأة.

«يجب أن نرجع.»

«أريد أن أدخل»، قالت. (ابتهج الأتلاجالا). زحفت حية رمادية رفيعة على امتداد الأرض في الأحراش. لم يتمكنوا من رؤيتها. نظر إليها الرجل بحيرة. «إن الوقت متأخر»، قال.

لكنها نزلت عن البغل بدون مساعدته ومشّت أسفل الأقواس إلى ممر طويل في الداخل. (لم تبدُ الحجرات من قبل حقيقة جدا هكذا مثل الآن عندما كان الأتلاجالا يشاهدها بعينيها). استكشفوا جميع الحجرات. ثم أرادت المرأة أن تصعد البرج، لكن الرجل كان له موقف حاسم.

«يجب أن نرجع الآن»، قال بثبات، واضعا يده على كتفها.

«هذا هو يومنا الوحيد الذي نقضيه معا، وأنت لا تفكر في

شيء سوى الرجوع.»

«لكن الوقت ...»

«هناك قمر. لن نضل الطريق.»

لم يغير رأيه. «لا.»

«كما تشاء»، قالت. «سأصعد أنا. بإمكانك العودة بمفردك

إذا شئت.»

ضحك الرجل بارتباك. «أنت مجنونة»، قال وهو يحاول تقبيلها.

انصرفت ولم تجب للحظة. ثم قالت: «تريدني أن أترك زوجي من أجلك. أنت تطلب مني كل شيء، لكن ما الذي تفعله لأجلي في المقابل؟ إنك ترفض حتى أن تصعد معي برجا صغيرا لكي أشاهد المنظر. ارجع بمفردك. اذهب!»

يكت وأسرعت نحو السلالم المظلمة. فتبعها وهو ينادي عليها، فتعثّر في مكان ما خلفها. كانت واثقة من خطواتها كما لو كانت قد صعدت الدرجات الحجرية من قبل آلاف المرات، وهي تسرع إلى أعلى عبر ظلام المكان.

أخيرا وصلت إلى القمة وأخذت تحقق عبر الشروخ الصغيرة الموجودة في الحوائط المتصدعة. كانت العوارض التي تحمل الجرس تفسخت وسقطت، وكان الجرس الثقيل ملقى على جانبه وسط الأنقاض، مثل حيوان ميت. كان صوت الشلال أكثر ارتفاعا هنا، وكان الوادي ممتلئا بالظلال. من أسفل، نادى الرجل اسمها بشكل متكرر. لم تجبه. وبينما كانت واقفة تشاهد ظلال المنحدرات وهي تتجاوز أعماق الوادي الموغلة في الاتساع وتبدأ في تسلق الصخور العارية متجهة إلى الشرق؛ تشكلت تلك الفكرة في ذهنها. لم تكن بالفكرة التي يمكن لها أن تتوقع أن تصدر عنها هي، لكنها كانت موجودة هناك، تنمو ويتعذر عليها اجتنابها. وعندما أحسّت بها مكتملة في داخلها، استدارت وعادت بسرعة إلى أسفل. كان الرجل يجلس في الظلام قرب نهاية الدرج، يتأوه قليلا. «ما الأمر؟» قالت.

«جرحت رجلي. هل أنت مستعدة للذهاب الآن أم لا؟»
«نعم»، قالت ببساطة. ثم أضافت «أسفة لأنك سقطت».
نهض دون أن ينطق بشيء وسار خلفها وهو يعرج إلى الفناء
في الخارج حيث وقف البغلان. كان هواء الجبل البارد قد بدأ
في الانسياب إلى أسفل من قمم المنحدرات الصخرية. وبينما
كانا يمضيان في طريقهما عبر المراعي بدأت هي تفكر في كيفية
طرحها للموضوع عليه. (يجب أن يتم هذا قبل أن يصلا إلى
الفجوة. ارتعد الأتلاجالا).
«هل سامحتني؟» سألته.
«بالطبع». ثم ضحك.
«هل تحبني؟»
«أكثر من أي شيء في العالم».
«هل هذا صحيح؟»
نظر إليها سريعا في الضوء الخافت، كانت تجلس في استقامة
فوق الحيوان البري.
«أنت تعرفين أنه كذلك»، قال برفق.
ترددت المرأة.
«ليس هناك سوى طريق واحد، إذن»، قالت أخيرا.
«لكن ما هو؟»
«أنا خائفة منه، لن أعود إليه. عد أنت. سأبقى هنا في
القرية». (ولكون القرية قريبة، فسوف تأتي إلى الدير كل يوم).
«عندما ينجح هذا. ستأتي أنت وتأخذني. عندئذ يمكننا الذهاب
إلى مكان آخر. لن يعثر علينا أحد».

بدا صوت الرجل غريبا. «أنا لا أفهم».

«أنت تفهم فعلا. هذا هو الطريق الوحيد. افعله أو لا تفعله، أنت وما تريد. إنه الطريق الوحيد».

استحثا سيرهما إلى الأمام لفترة في صمت. لاح الوادي في المقدمة، داكنا في مقابل سماء المساء.

عندئذ قال الرجل، بوضوح شديد: «أبدا».

بعد لحظة أفضى الطريق إلى الخارج إلى مكان مفتوح عال فوق مياه سريعة الجريان في الأسفل. كان صوت النهر المكتوم يصلهما بشكل ضعيف. وكان الضوء في السماء قد ذهب تقريبا؛ واتخذ المنظر في الغسق معالم خادعة. كان كل شيء رماديا - الصخور، والأحراش، والطريق - ولم يكن لشيء بعد أو حجم. خففا من سرعتهم.

كانت كلمته لا تزال تتردد في أذنيها.

«أنا لن أعود إليه!» صرخت في عنف مفاجئ. «بإمكانك العودة ولعب الورق معه كالمعتاد. كن صديقه الحميم المخلص مثلما كنت دائما. أنا لن أذهب. ليس بوسعي الاستمرار مع كليكما في نفس البلدة».

(لم تتجح الخطة؛ رأى الأتلاجالا أنه قد فقدها، ومع ذلك فقد كان بإمكانه مساعدتها).

«أنت متعبة جدا»، قال برفق.

كان محقا. بمجرد أن قال كلماته تقريبا، بدأ الفرح والخفة غير المعتادين اللذين شعرت بهما منذ الظهر ييارحانها، طأطأت رأسها في ضجر وقالت، «نعم، إنني كذلك».

في نفس اللحظة أطلق الرجل صرخة حادة، فظيعة، نظرت
هي على الفور فرأت البغل الذي يمتطيه وهو يغطس من حافة
الطريق إلى حيث اللون الرمادي في الأسفل. كان هناك صمت،
ثم الصوت البعيد لأحجار كثيرة تتدحرج نحو الأرض. لم تقدر
على تحريك أو إيقاف بغلها؛ جلست فوقه في صمت مطبق،
تاركة إياه يحملها إلى الأمام، وزن هامد أو خامل فوق ظهره.
وفي لحظة واحدة أخيرة، عندما بلغت الطريق الذي كان
الحافة التي ينتهي عندها عالمه، خرج الأتلاجالا من داخلها
وهو يرتعد. رفعت رأسها وانتابتها رعدة ابتهاج طفيفة، ثم تركت
رأسها يسقط إلى الأمام مرة ثانية.
شاهد الأتلاجالا وهو محلق في الهواء المعتم فوق الطريق،
شاهد شكلها غير الواضح وقد أصبح غير مرئي في سواد الليل
البهيم. (لو لم تكن قادرا على إبقائها هناك في الوادي، فإنك
لا تزال قادرا على مساعدتها هنا).
بعد لحظة كان الأتلاجالا في البرج، يستمع إلى العناكب وهي
تصلح شباكها التي كانت السيدة قد مزقتها. ستكون قد مرت
فترة طويلة، طويلة جدا، قبل أن يحث نفسه على الدخول في
كائن آخر عاقل. فترة طويلة طويلة، ربما إلى الأبد.

المترجم فخ سلور

أ. محمد هاشم هيد السلام
 * روائي ومترجم.
 * من مواليد التيم ١٩٧٥.
 * حاصل على بكالوريوس علوم الحاسب الآلي العام ١٩٩٦.
 * له عدة كتب منشورة مثل:
 * سلسلة (رواية - ٢٠٠٠) دهرت الرأيا (رواية - ٢٠٠٢) معاولات مع أعظم
 * السبعة الأوروبية - ٢٠٠٦ كما أن له كثيرا من الكتب قيد الطبع والنشر.
 * له كثير من المقالات والتجميعات والتخصصات الانسانية المنشورة في الصحف
 * والمجلات.

العراجم فخ سلور

د. سليمان خالد الرياح
 * من مواليد الكويت العام ١٩٥٢.
 * حاصل على شهادة البكالوريوس - في الآداب - قسم اللغة الانجليزية وآدابها
 * العام ١٩٧٥، وعلى شهادة الماجستير في تخصص اللغة الإنجليزية - كلية
 * اجنية العام ١٩٩٩.
 * حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة ولاية أوهايو في كولومبوس في
 * تدريس اللغة الإنجليزية سنة اجنية العام ٢٠٠٢.
 * عمل عضوية كثير من الكائنات العلمية وقبرها.
 * يعمل حاليا أستاذ مساعد في قسم اللغة الإنجليزية في الهيئة العامة
 * للتعليم التطبيقي. ويشغل منصب رئيس وحدة اللغة الإنجليزية في كلية التربية
 * الانسانية.
 * راجع سلسلة الدراسات العلمية، رواية والشهادة العدد ٣٧٦، أكتوبر ٢٠١٥.

الفهرس

5 مقدمة المترجم
11 مقدمة بقلم: جيمس لاسدان
23 ١ - العقرب
31 ٢ - عند الماء
44 ٣ - حادث قديم
65 ٤ - توقف قصير الى كورازون
88 ٥ - القس دوو في تاكيت
124 ٦ - الصدى
150 ٧ - صفحات من النقطة الباردة
187 ٨ - في باسوروجو
216 ٩ - سنيور أونج وسنيورها
254 ١٠ - فريسة رقيقة
269 ١١ - الوادي المستدير

العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)

- أحدثت ثلاث من قصص هذه المجموعة ردود أفعال شديدة في الأوساط الأدبية في نيويورك عندما نشرت، وهي على الترتيب «صفحات من النقطة الباردة، فريسة رقيقة، حادث بعيد»، وقدم فيها «بولز» واحدا من موضوعاته الأساسية: كيف ينظر أهل الثقافات الأجنبية إلى مخلوقات العالم المتحضر. واستخدم فيها، وفي غيرها من قصص المجموعة، ما يشبه وقائع وأسلوب «إدجار آلان بو» في سرد قصص الرعب بسلاسة إلى درجة أنك بصعوبة تستطيع أن تلاحظ الرعب فيها.

- يتسم إنتاج «بولز» الأدبي بصفة عامة بالاغتراب والحس الوجودي العميق، بالإضافة إلى العنف الفني الجميل غير المباشر. إذ تدور أحداث أغلب قصصه ورواياته، وكثير من قصص هذه المجموعة ينطبق عليها هذا، في مدن المغرب والصحراء الكبرى وأفريقيا.

- يعد الأمريكيان عالم «بولز» الفني بصفة عامة عالما أجنبيا اغترابيا، لا يمت إلى الواقع الأمريكي بصلة، كما يزعمون أنه «كاتب يكتب بالمصادفة باللغة الإنجليزية»، لكنه بالطبع يعكس ذلك.